

النص والخطاب والاتصال

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الألسن - جامعة عين شمس



الأكاديمية الحديثة
للكتاب الجامعي

النص والخطاب والاتصال

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الألسن — جامعة عين شمس



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

لكتاب : النص والخطاب والاتصال

المؤلف : الأستاذ الدكتور محمد العبد

تاريخ الإصدار : ٢٠١٤ م

حقوق الطبع : محفوظة للنشر

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

العنوان : ٨٢ شارع وادي النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر

تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ١٧٣٤٥٩٣ ٠١٢٢

البريد الإلكتروني:

m.academyfub@yahoo.com

m.academyfub@gmail.com

رقم الإيداع : ٤٩٩٥ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي : ٥ - ٦٢ - ٦١٤٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

تذيير :

حقوق النشر : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادله بطريقة الاسترجاع أو نقله على أى نحو أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابةً ومقدماتاً.

تصدير

تريد الدراسات التي يصممها هذا الكتاب أن تشق طريقاً جديداً في حقل اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، موصولة بطائفة من الأدبيات الأصيلة في ذلك الحقل إضافة وتعميقاً وتطبيقاً على نصوص عربية أسهمت في صناعة الثقافة العربية والأدب العربي القديم والمعاصر، انطلاقاً مما رأيناه مفاهيم جوهرية لا بد للبحث اللساني العربي المعاصر من أن يدلي فيها جاهداً بدلوه.

في الدراسة الأولى تناولت مفهوم الكفاية وتطوره من الكفاية اللغوية عند

التحوليين إلى الكفاية الاتصالية عند اللسانيين الاجتماعيين والتداوليين. وفي الدراسة الثانية استهدفت بالتحليل مفهوماً محورياً ومعياراً نصياً أولياً هو "الحبكة" في قراءة متأنية لتبصرات البلاغيين العرب لذلك المعيار سواء أكان حبكة نصياً أدبياً أم حبكة نصياً قرآنياً. وقد خلصت هنا إلى جملة من الملاحظات والاستخلاصات التي تؤكد وعياً نظرياً قوياً بأهمية ذلك المعيار في صناعة النص وتحليله في آن معاً.

أما الدراسة الثالثة، فقد حاولت فيها الوقوف على أهم الوسائل اللغوية والمنطقية التي مالت النصوص الحجاجية العربية قديماً وحديثاً إلى توظيفها للإقناع بوجهة النظر.

وفي الدراسة الرابعة عالجت مفهوماً مركزياً في تداولية أفعال الكلام: وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية" الذي أتوقع له استثماراً موسعاً حثيثاً في ميدان اللسانيات العربية المعاصرة والنقد الأدبي العربي المعاصر؛ وذلك لوقوعه في مركز العملية الاتصالية في صورتها العامة والأدبية جميعاً.

أما الدراسة الخامسة والأخيرة في ذلك الكتاب، فهي محاولة لاستجلاء العلاقة بين الصورة الأدبية والثقافة، وقد بدا لي هنا أن الثقافة العربية قد عنيت بالصورة الأدبية من حيث هي نص على حساب العناية بها من حيث هي خطاب، ومن ثم كانت العناية بتحليل عناصر الصورة وجمالياتها على حساب ربط الصورة بسياقاتها الاتصالية والثقافية، حيثما تصبح الصورة الجميلة في سياق اتصالي ثقافي غير جميلة في سياق اتصالي ثقافي آخر.

صراحة كل من هاينمان W.Heinemann وفيهيجر D.Viehweger. وعلى رغم أن كلا منهما يرى أن كثيراً مما يسمى بعلم اللغة النصي لا يحكى - فيما يبدو - لوضع المعايير التي يجب أن يقوم عليها علم للنص، من حيث إن العنصر الأساسي - وهو "النص" وحده - قد أظهر أنه غير كاف لبناء فرع معرفي مستقل، فإنهما قد ذهبا إلى أنه لا يمكن أن يفهم علم اللغة النصي على أنه علم شامل، بل يجب على علم اللغة النصي أن يبقى بحثه محصوراً في أبنية النصوص وصياغاتها، مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية والنفسية العامة^(١).

إن تعريف النص بالخطاب شيء مألوف عند كثير من الدارسين. يقول روجر فاولر Roger Fowler: "إن كل نص خطاب، فعل لغة من لدن مؤلف ضمني، له تصميم محدد لقارئ ضمني محدد الهوية"^(٢). وتقول جوليا كريستيفا Julia Kristeva: "النص الأدبي خطاب يخترق حالياً وجه العلم والأيدولوجيا والمسياسة"^(٣).

لقد اعترف ميخائيل استوبس Michael Stubbs بما يعترض النص والخطاب من غموض وخلط، ولكنه يرى - في الوقت نفسه - أن الاختلاف بينهما اختلاف ضئيل لا يجعله يامل في تأسيس فارق نظري مهم بينهما. ولكنه يعود - في محاولته التمييز بينهما - إلى تقديم بعض الملحوظات المفيدة:

١- فنحن نتكلم غالباً عن "النص المكتوب" في مقابل "الخطاب المنطوق".

٢- وغالباً ما يمتنى "الخطاب" الخطاب التفاعلي interactive discourse، على حين يكون النص مونولوجاً غير تفاعلي، سواء في ذلك أن يكون مونولوجاً منطوقاً جهرة أم غير ذلك^(٤).

(١) راجع: فرانصاح عابدين وديز فيلبر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فاغ من حسب المصحي، طبعة الملك سعود، السعودية (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، ص ٩-١٢.

(٢) فاولر، روجر: الفلسفات والفروقات، ترجمة حسن إحسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١ (١٩٩٧م) ص ٦٦.

(٣) كريستيفا، جوليا: علم النص، ترجمة فريد فرانز، مراجعة عبدالحليل باطم، دار نونال للنشر، الدار البيضاء، ط ٢ (١٩٩٧م) ص ١٣.

(٤) Stubbs, Michael: Discourse Analysis. Basil Blackurl. p.9.

التمييزات السابقة نرى لها نظيراً في الثقافة العربية. بينما ارتبط النص بالمتن أو ناتج العملية الاتصالية، إذا بالخطاب يرتبط بالاتصال الشفاهي المباشر من ناحية، كما يرتبط بحضور الطرف الآخر في العملية الاتصالية وتفاعله على نحو ما وأداء وظائف أيديولوجية من ناحية أخرى الحوارية والتفاعل في الخطاب مما يلح على التنويه به غير واحد من المعاصرين. خذ مثلاً على ذلك ديان ماسكدونيل Dian McDonell التي تجعل الحوار الشرط الأول للخطاب^(١).

الحيرة بين المصطلحين أو المراوحة بينهما في دراسات نظرية وتطبيقية لاتحصى تلؤلؤ إلى حصر بعض المنظرين النص في البناء المجرد في الوقت الذي يربط فيه آخرون ذلك البناء بمقاصده ووظائفه. يرى وليم جراب W.Grabbe أن النص هو المعادل البنائي للغة في استعمال حقيقي^(٢). ويقوم هـ.ج. ودوسون H.G.Widdowson على دراسة الأدب بوصفه نصاً والأدب بوصفه خطاباً.

يمالج ودوسون في الحال الأولى موضوعات مثل: الإحالة، والمدول، ومعدنات الاختيار، وقواعد المصاحبة، وغيرها من خصائص الأساليب والتركيب^(٣). فإذا عالج الأدب بوصفه خطاباً صارت بؤرة اهتمامه هي أن قطعة من الاستعمال اللغوي - أدبية فكانت أم غير أدبية - ليست تمثيلاً محضاً لمقولات لغوية؛ أي ليست نصاً فحسب، ولكنها أيضاً قطعة من الاتصال، قطعة من خطاب من نوع أو آخر. يقول ودوسون: "السؤال المهم في هذه الحال هو عن أهمية السمات أو الملامح النصية textual features التي تلزم لفهم الأدب بوصفه خطاباً. إن مركز هذه المسألة هو إشكالية العلاقة بين مراعاة القواعد وإمكانية التأويل"^(٤).

من ناحية أخرى، يرى كل من دو بوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler أن النص هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية التي تنهض على

(١) ماسكدونيل، ديان: مقدمة في نظريات الخطاب. ترجمة وتقديم د. مراد إسحاق. للنسبة الإكاديمية. ط ١ (٢٠٠١) ص ٦٧.

(٢) Grabbe, W. : Written Discourse Analysis. A R A L Vol.5. U S A (1985) p. 106

(٣) Widdowson, H. G. : Stylistics and The Teaching of Literature. Longman . Group Ltd. London (1975) pp.7-26.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٧-٤٦ .

الوحدات والأنماط البنائية حال الاستعمال. بيد أن النص عندهما - في الوقت نفسه - ليس محض هيئة أو تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. الأخرى عندهما أن الوحدات الصرفية والجمل توظف من حيث هي وحدات وأنماط إجرائية تشير إلى المعاني والأغراض أثناء الاتصال. يرى دو بوجراند ودرسلر أنه من الصعب أن نحصر دراسة النصوص في صناعة الكلام أو الكتابة؛ وذلك أن هذه الصناعات ناهضة بطبيعتها إذا عزلت عن العمليات الإجرائية التي تؤديها^(١).

إذا كان النص عند هذين المنظرين الرائيين هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية، فإن الخطاب عندهما موقف أو سلسلة من الواقعات Events التي يمرض فيها المشاركون نصوصاً بوصفها أفعالاً خطابية discourse actions. ويجعل كل منهما الاتصال من خلال الخطاب حالة من حالات التخطيط التفاعلي interactive planning^(٢).

يظل التمييز بين النص والخطاب من زاوية كون النص في الأساس بنية في مقابل كون الخطاب في الأساس موقفاً هو التمييز السائد في أدبيات نظرية النص وتحليل الخطاب، بيد أن الإلحاح على ربط النص بمقاصده ووظائفه مما يعمد هذين المصطلحين في الاستعمال إلى دوائر متشابكة، يبدو فض الاشتباك بينهما أمراً عسيراً جداً.

ومهما يكن من أمر، فإن هناك فروقا أولية يتمدد عليها الإجماع نظرياً، من أهمها ما يلي :

١- ينظر إلى النص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تتكون وحدة دلالية. وينظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للغة فيه أن تعمل على مطابقته.

٢- يحصل من ذلك القول بأن الخطاب أوسع من النص؛ فالخطاب بنية بالضرورة ولكنه يتسع لمرض ملابسات إنتاجها وتلقيها وتاويلها. ويدخل في تلك الملابسات ما ليس بلغة كالمسلوكيات الحركية المصاحبة إيجابياً للاتصال.

(١) De Beaugrand, R- Dressler, W. : An Introduction To Textlinguistics . Longman London-New York (1983) p. 35.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

- ٢- النص في الأصل هو النص المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنه يتلبس بصورة الآخر على التوسع؛ إذ يطلق النص على المنطوق، كما يطلق الخطاب على المكتوب؛ كالخطاب الروائي.
- ٤- يتميز الخطاب عادةً بالطول؛ وذلك أنه في جوهره حوار أو مبادلة كلامية. أما النص فيقتصر حتى يكون كلمة مفردة (مثل: "سكوت") ويطول حتى يصبح مدونة كاملة (مثل: "رسالة الفجران").
- ٥- يرتبط ميل الخطاب عادةً إلى الطول والامتداد والحوارية بتمكينه من التعبير عن وجهات النظر والمواقف المختلفة. إذا اتخذنا من خطاب الرواية مثلاً رأينا أن دراسة الخطاب تجري ضمن كل مظاهر الرواية التي تتصل بها مفاهيم مثل "الحوار" و"وجهة النظر" و"الموقف" و"رؤية العالم" و"نبرة الخطاب" و"اعتقادات المؤلف"، وأنواع الأحكام التي يصدرها، وشبكة العلاقات التواصلية بين المؤلف والشخص والقرارئ الضمني... الخ.



الفصل الأول
الكفاية اللغوية
والكفاية الاتصالية

١- توطئة :

عرفت النظرية اللغوية طائفة من الشائعات المفهومية التي ارتبطت بنظريات ومناهج في الفكر اللغوي والتي تطول بها القائمة^(١). كان فرديناند دوسوسير F.de Saussure قد ميز. كما هو معلوم . بين اللغة *Langue* والكلام *Parole* . اللغة عنده مخزن مملوء بأعضاء من مجتمع معين عبر استعمالهم النشط للكلام. ليست اللغة وظيفة أو عملاً للمتكلم ، بل هي إنتاج تتمه بطريقة مجهولة^(٢). أما الكلام فهو الجانب الأدائي التنفيذي. والأداء فردي دائماً ، والفردي سيده الدائم^(٣). وقد بنى دوسوسير على ذلك مقولته بأن اللغة اجتماعية والكلام فردي ، وأن اللغة أساسية والكلام ثانوي^(٤).

وفي عام ١٩٧٥ عاد نواك تشومسكي N. Chomsky إلى التمييز بين النظام الذي يصنع الإطار اللغوي للمجتمع والنشاط الذي يتحرك مع الأفراد في تعاملاتهم داخل هذا الإطار . عرفت اللغة عنده بالكفاية *Competence* وقبول الكلام بالأداء *Performance* . الكفاية عنده تعني معرفة المتكلم بلغته ، والأداء ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة. نمنى هنا ببحث مشكل الكفاية في النظرية اللغوية. كان شأن مفهوم الكفاية التشومسكية شأن النظرية التحويلية ذاتها. بينما الرأي عند سامبسون *Sampson* في النظرية التحويلية أنها كانت تطورا مشنوما في علم اللسانيات^(٥)، ترى ميلسكا إفيشش أنها دخلت بالنحو الحديث أهم مراحل

(١) من بين هذه القائمة نذكر مثلا :

النظام العام *Langue* / الاستعمال الفردي *Use*، والجمل *Sentence* / المنطوق *Utterance*، الحدث القول / *Locutionary* الحدث الإلهامي *illocutionary act*، علم الدلالة *Semantics* / أصولية *Pragmatics* . يرى بركله *Brekke* أن نهاية اللغة / الكلام التي تربطت بدوسوسير ، كانت قد عرفت . على نحو حتمي على الأقل . في أصل الدم من دوسوسير . مثل: علم اللغة *Sprachwissenschaft* الذي ميز له صاحبه جيهلبرت *Gebelhart* (١٩٠١) بين اللغة والكلام ، لم يربط النظام اللغوي والكلام المنطوق .

انظر في تفصيل ذلك :

Brekke, Herbert : Semantik, Uni / Taschenbuecher, 2 Verb. Auflage Wilhelm Fink Verlag- Muenchen (1972) s.50.

(٢) دوسوسير ، فردينان: أصول في علم اللغة العام ، ترجمة دكتور أحمد نعيم الكواحين ، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية (١٩٨٥) ص ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦ ..

(٤) المرجع نفسه ص ٣٧

(٥) سامبسون ، جفري : مدارس اللسانيات : التسلط والتطور ، ترجمة دكتور محمد زيد كبة ، النشر العلمي والطابع - جامعة الملك سعود - الرياض (١٩٩٧) ص ١٧١ .

تطوره، وأن صدور كتاب تشومسكي « البنى النحوية Syntactic Structures » في عام ١٩٥٧م كان أهم الأحداث اللسانية في السنوات الأخيرة^(١).

والحق أن مفهوم الكفاءة قد شغل اللغويين المعاصرين منذ أن ادخله تشومسكي إلى الآن. يبدو هذا فيما أدى إليه من جدل ونقاش ومحاولات تعديل وإعادة صياغة، كما يبدو فيما خلفه من كفايات أخرى وفيما أثاره من أفكار ومفاهيم جديدة بين مناهج لغوية مختلفة.

فضلا عن الكفاءة الاتصالية التي تقف - على نحو ما سنرى - موقف الند الصريح لكفاءة تشومسكي اللغوية، صار مفهوم الكفاءة مفهوما مشرا في كثير من التراكم؛ فهناك ما يسمى الكفاءة التفاعلية interaktionale Kompetenz، وهي - في تعريف أوكساز Oksear - قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية وغير اللغوية متكلا ومستمعا، وفاق مواقفها وتبعا لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية. وينبغي البحث في الكفاءة التفاعلية على أساس القانون التالي :

«من يقول ماذا في أي قناة لمن بأي تأثير؟»

وينبغي في عملية التفاعل تحقيق التوافق التداولي والسميائي والمحافظة عليه، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية^(٢).

وقد كان لرواد الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية) عناية خاصة باختبار الكفاءة التفاعلية في التفاعلات اللغوية؛ مثل شيكوريك Cicourel. يرى شيكوريك أن الصغار يدرسون الوضع Status الذي يكون عليه البالغون في إنجازهم التفاعلات الاجتماعية، على رغم ما يكون لها من خواص موقعية. إنهم يستخدمون - في هذه الحالة - التويمات اللغوية، ويمرطون الضوابط المعيارية، ويراعونها، ويؤدون أدوارهم الكلامية أداء مناسباً، وينصتون، ويقاطعون، ويستهلون مخاطبات وينهونها على نحو مناسب، وينتهي لهم تمثيل الوجه الصحيح، والسلوك الجسدي المناسب، ونبرة الصوت المناسبة^(٣).

(١) إلينز، ملكا: الحملات الست للسن - ترجمة دكتور سعد صليح، ودكتور: رند كامل فهد، المجلس الأعلى للغة - القاهرة (١٩٩٦م) ص ٣٨٠.

(٢) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Woerterbuch 2, Quelle U. Meyer Heidelberg, 6. Auflage. Wiesbaden (1994) S. 476.

(٣) Lewandowski, op. Cit., S. 476.

كذلك يشير كل من هاينمن Heinemann وفينيجر Viehweger، إلى إطار عرضهما استراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، إلى ما يسمى بالكفاءة الموضوعية Sachkompetenz. وهي قدرة المؤلف - في تصميمه نصا كبيرا - على تحديد ما لديه ليقوله، وما يبين أن يصل إليه عند طوائف بعينها من القراء. ويحتاج ذلك - كما يذكران - إلى نفس طول واستراتيجية ممددة الأمد. ومن ثم، جملا الكفاءة الموضوعية والكفاءة الاتصالية فروضا ضرورية لكتابة النصوص الكبرى^(١).

وفي نظرية إنتاج النص وتلقاه يذكر سوينسكي Sowinski نوعين آخرين من الكفاءة، هما الكفاءة النصية Textkompetenz، والكفاءة الدلالية Semantische Kompetenz.

يعني الأول ببحث اكتساب اللغة اكتسابا لغويا نفسها، وملاحظة القدرة على تشكيل النص عند الطفل، وملاحظة تطور الجمل المكونة من أكثر من كلمة واحدة عند الطفل الصغير إلى عامه الثالث^(٢).

ولا تعني الكفاءة النصية عند دويجراند التمييز فقط بين النص واللائص، بل يتضمن مفهوم الكفاءة النصية طائفة من المعارف والإجراءات، مثل: معرفة رصيد البدائل Options في النظم الافتراضية، ومعرفة قيود النظام الخاصة بانتقاء البدائل أو تلافئها، ومعرفة المعتقدات والمعلومات الشائعة في المجموعة الاتصالية أو المجتمع عن العالم الحقيقي، ومعرفة أنواع النصوص، وإجراءات استخدام النظم الافتراضية عند تفعيلها actualization، وإجراءات إنتاج النصوص، وإجراءات استقبال النصوص، وإجراءات المحافظة على النصية... إلخ^(٣).

أما الكفاءة الدلالية، فهي تمكن مستمع النص وقارئه من عمليات التجريد أو استنباط المعنى Abstraktionen والتي تتيح له تقديم معلومات مناسبة أخرى من معرفته على أساس موضوع معروف من قبل. ومما يؤدي إلى تنمية القدرات اللغوية، لا سيما تنمية الكفاءة النصية، استقاء الموضوع من قدر من

(١) Heinemann, Wolfgang - Viehweger, Dieter: Textlinguistik, Eine Einführung, Max Niemeyer Verlag Tübingen (1991) S. 251.

(٢) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einführung, Max Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart-Berlin-Köln-Mann (1983) S.58

(٣) دويجراند، ديتر: النص والحطاب والإجراء، ترجمة دكتور لام حسان، عالم الكتب - القاهرة (١٩٨٤) ص ١١٠ - ١١١

المعلومات المنظمة تنظيها نصيا في إطار تلقي النص ومن استنباط الموضوع استنباطا ضمنيا في إطار إنتاجه^(١).

من ناحية أخرى، تنطلق النظرية اللغوية النفسية المعاصرة من ضرورة الزعم بأن مستخدم اللغة لديه معرفة بنائية ضمنية *implicit structural knowledge*، وهدفها تشخيص مثل هذه المعرفة المسماة بالكفاية اللغوية. ينبغي للنظرية اللغوية النفسية الكاملة أيضا، أن تبين كيفية دخول هذه المعرفة في طور الاستعمال، فيما سمى بالأداء اللغوي^(٢). ويمكن القول بأن نشوء علم النفس اللغوي مدين لنظرية تشومسكي اللغوية؛ إذ عني فيه بابتكار نماذج للسلوك اللغوي مبنية على نظريته في الكفاية والأداء. ويرى مارك ريشل Marc Richelle أن تشومسكي قد أضفى أهمية أساسية على موضوع اكتساب اللغة في إطار النظرية العامة للغة، وأنه قد جدد الكيفية التي يطرح بها مشكل اكتساب اللغة^(٣). وعلى رغم ما أثاره نموذج الكفاية الذي اقترحه تشومسكي نموذجا للأداء من مشكلات، فإن مزيته التي لا يجادل فيها، هي أنه نبه علماء النفس إلى ما يتصف به الإنتاج اللغوي من تمقد بالغ.

والحق أن النظرية اللغوية النفسية ذاتها قد أبدت شهنا ظاهرا من الفطنة إلى تفاعل أنماط مختلفة من المعرفة في المواقف الاتصالية الفعلية متجاوزة بذلك حدود المعرفة عند تشومسكي. يقول سلوبين Slobin مثلا: «في الاتصال الفعلي تتفاعل أنماط عدة من المعرفة: المعرفة بالصوتيات، والنحو، وعلم الدلالة، والتداولية، والأعراف الاجتماعية، والعالم الفيزيقي، والشخصية... إلخ»^(٤).

(١) Sowinski, op. Cit., S. 95

راجع ليكر Eco بن ترحمن من كفاية دلالية :

- يسمى الأولى للفرد: إنه تصنيف الجرد والفرس الأوكري للفرقة.
- يسمى الأخرى موسوعة، وهي تصنيف الفطال للفرس والفراشي الذي يملك مجتمع عربيا، لرحمة مسرنية مية. وعمل النظرية الأخيرة هي التي يتبعها ليكر؛ لأنها هي الدلالية في نظره على تشيير كفاية مضمينة في كل ناطقتها الحية. راجع في تفصيل تلك القسمة التي وضعها محمد مصمم في صدر ترجمته كتاب مايكل وبنات: دلالات الشعر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فسطاط (١٩٩٧) ص LXXV.

(٢) Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, 2. edition USA (1979) p. 12.

(٣) ريشل، مارك: اكتساب اللغة، ترجمة دكتور كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط ١ (١٩٨٤ - ١٩٨٥) ص ١١، ١٢.

(٤) Slobin, op. Cit., p. 12.

وفي ربع القرن الأخير نشطت حركة تحليل الأبنية اللغوية للنصوص والأساليب الأدبية في إطار المنهج التحليلي التوليدي متخذة من نموذج الكفاية اللغوية قاعدة لمعرفة ما يملكه المتكلم الأصلي من بنية لغته.

وقد عني هنا بظواهر عدة، من أهمها :

- (أ) تعيين درجات الصحة النحوية المختلفة.
- (ب) الاهتمام بتأمل ظاهرة التعميد التركيبية.
- (ج) الاهتمام بمسألة العلاقة بين المقبولة والصحة.
- (د) الاهتمام بمسألة العلاقة بين البنى غير النحوية وأنواع محددة من التمايز المجازية.

وفي المسألة الأخيرة مثلاً يلاحظ ثورن Thorn ما يلي :

- (أ) أن الجمل غير النحوية ungrammatical ترد في الشعر أكثر مما ترد في النثر كثيراً.

- (ب) أن هذه الجمل المنحرفة تشكل عنصراً أساسياً في استجابتنا للشعر.
- (ج) على رغم معرفتنا بانحراف هذه الجمل المنحرفة ، فقد يحدث ألا نشعر بأنها منحرفة عن سياق القصيدة.

- (د) أن الصبغ غير المعيارية معيارية في سياق القصيدة^(١).

كذلك كان لمفهوم الكفاية اللغوية الذي أدخله تشومسكي أثره الواضح في حرص نظرية الحدث اللغوي على تأكيد افكار بعضها. يرى فاندرهفكن Vanderweken مثلاً أن المناطقة وفلاسفة اللغة من نوى الاتجاه المنطقي- مثل سكارناب ومونتاج وكابلان - قد مالوا إلى اختزال كفاية المتكلم اللغوية في قدرته على فهم شروط صدق القضايا التي تعبر عنها منطوقات الجمل في السياقات المتنوعة الممكنة التي يستعمل فيها لغته، وأنهم تجاهلوا المظاهر الإنجازية الأخرى لمعنى الجملة. نتج عن هذا عجزهم عن إعطاء اهتمام كاف للاختلافات في المعنى التي تقع بين جمل من أنماط تركيبية مختلفة، نحو :

(١) راجع لي تفصيل ذلك: ثورن، ج. ب. القواعد التوليدية والتحليل الأسري. في: اللغة والطب الأصلي، صرعة مقالات معها وترجمها دكتور سعيد الداني، المركز الثقافي العربي - بيروت ط ٢ (١٩٩٣م) ص ٢٥-٩١.

♦ جون سوف يفعل هذا.

♦ من فضلك، يا جون، افعل هذا !

♦ لو يفعل جون هذا !

هذه الأنماط التركيبية التي تعبّر عن القضايا ذاتها بالنظر إلى سياقات المنطوق الممكنة ذاتها، ولكنها تستخدم لأداء أحداث إنجازية ذات قوى مختلفة. في منهج فاندرفيكن لا تتفصل الكفاية اللغوية عن الأداء، كما هي الحال في مدرسة تشومسكي. على العكس من ذلك، تلوّل كفاية المتكلم اللغوية بأنها قدرته على أداء أحداث لغوية وفهمها في السياقات الممكنة المتنوعة التي يستعمل فيها لفته⁽¹⁾.

هكذا كانت الكفاية التشومسكية المادة الأولية لألوان شتى من الكفايات، ناسبت تفاوت الاتجاهات والاهتمامات، وارتبط بعضها بالمتكلم، وبعضها بالمستمع (أو القارئ)، وبعضها الآخر بعملية التفاعل اللغوي ذاتها بين هذين الطرفين.

٢ - الكفاية اللغوية :

(١) مفهوم الكفاية اللغوية :

يميز تشومسكي بين ما يعرفه متكلم لفة ما معرفة ضمنية، وهو ما يسميه بكفايته his Competence وما يفعله بهذه المعرفة وهو ما يسميه أداءه his Performance⁽²⁾. المعرفة التي تكمن في مقدرة الشخص على استعمال لفته، هي إذن معرفة ضمنية فقط.

أما النحاة، فيحتاجون - كما يقول هدلمستون Huddleston - إلى معرفة واعية بمعرفة المتكلم/ المستمع الضمنية⁽³⁾. كان تشومسكي يشخص النحو التوليدي للغة بأنه وصف صريح للكفاية الذاتية لدى المتكلم أو المستمع المثالي. ويذهب أن قدرة المتكلم على استعمال لفته تتضمن قدرته على إنتاج

(١) Vandervoren, Denial: Meaning and Speech Acts, Vol. 1 : Principles of Language Use, Cambridge Uni. Press New York (1990) pp. 10-11 .

(٢) Chomsky, Noam: Topics in the theory of Generative Grammar, in: Current Trends in linguistics (ed. Thomas A. Sebeok) 3- The Hague - Paris (1966) p.3.

(٣) Huddleston, Rodney: An Introduction to English Transformational Syntax. Longman. London (1979) p.1.

منطوقات جديدة وفهمها: أي منطوقات لم يتكلم بها من قبل ولم يسمعها^(١). ويشرح ليفاندوفسكي الكفاية قائلا : «الكفاية نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلا عقليا، والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره: إذ ترتبط الأصوات بالدلالات وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية، التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها، كما تضم الأحكام عن حسن المسبك الشكلي والدلالي، ومرجعية التعبيرات، والتماثل الدلالي، والتعند الدلالي، ودرجة الانحراف»^(٢).

يكتمل وضوح مفهوم الكفاية اللغوية بالوقوف على النقاط المهمة التالية في نظرية تشومسكي النحوية :

١- أن اللغة مجموعة (متاهية أو غير متاهية) من الجمل ، كل جملة منها متاهية الطول ومكونة من مجموعة متاهية من العناصر. واللغات الطبيعية جميعها في صورها المنطوقة أو المكتوبة هي لغات بهذا المعنى؛ وذلك أن كل لغة طبيعية تمتلك عدداً متاهياً من الوحدات الصوتية (أو الحروف) على رغم وجود جمل عدة غير متاهية.

٢- الهدف الرئيس في التحليل اللغوي للغة هو التمييز بين السلاسل النحوية التي تمثل جمل اللغة والسلاسل غير النحوية التي ليست بجمل اللغة، ثم دراسة أبنية السلاسل النحوية.

٣- نحو اللغة إذن هو الجهاز الذي يولد جميع السلاسل النحوية للغة ولا يولد السلاسل غير النحوية. وتختبر صلاحية النحو المقترح للغة بالوقوف على حقيقة تكون السلاسل التي يولدها سلاسل نحوية حقاً أم لا؛ أي إن كانت سلاسل مقبولة عند المتكلم الأصلي native speaker.

٤- تفترض في المتكلم الأصلي معرفة حسنة intuitive knowledge بالجمل النحوية للغة، وينبغي للنحو القيام بمهمة إنتاج تلك الجمل على نحو فعال ومضئ. وتفترض هنا أيضاً معرفة جزئية بما يمد جملاً وبما لا يمد (أي الجمل Sentences واللاجمل Non-Sentences).

(١) المرجع السابق ص ١.

(٢) Lewandowski, op. Cit., S.570.

٥- النحو مرآة سلوك المتكلم الذي يستطيع - على أساس تجربته - أنحددة باللفظ - أن ينتج أو أن يفهم عددا غير محدد من الجمل الجديدة، وكل تفسير لفكرة النحوية في اللغة grammaticallness : أي شكل تشخيص للنحوية في اللغة في حدود المنطوقات اللغوية الملاحظة، يعد تفسيراً لوجه رئيس من وجوه السلوك اللغوي.

٦- لا تحدد فكرة النحوية من خلال المعنى أو الدلالة، تتساوى الجملتان في خلوهما من المعنى، ولكن متكلم اللغة يعرف أن إحداهما فقط هي الصحيحة نحويًا. ويمثل تشومسكي على ذلك بالجملتين التاليتين :

- Colorless green ideas sleep furiously.
- Furiously sleep ideas green Colorless.

فهما مشتركتان في خلوهما من المعنى، ولكن الأولى منهما نحوية. يخلص تشومسكي من مناقشة مثل هذه الجمل إلى أن البحث عن تحديد دلالي للصحة النحوية سيكون عديم النفع^(١).

٧- نحو اللغة هو بالضرورة نظرية اللغة. وتعتمد كل نظرية علمية على عدد متناه من الملاحظات، وتبحث عن ارتباطها بالظواهر الملاحظة، وتتباين بظواهر جديدة عن طريق إنشاء قوانين عامة في حدود أبنية افتراضية. ويعتمد نحو اللغة على مدونة أصلية Corpus من المنطوقات (الملاحظات). وهو يحتوي على قوانين نحوية محددة بحدود الوحدات الصوتية الخاصة والمبارات وغيرها بهذه اللغة (أبنية افتراضية hypothetical constructs). تعبر هذه القوانين عن العلاقات البنائية بين الجمل المكونة للمدونة والعدد غير المتناهي من الجمل التي يولدها النحو من هذه المدونة (التوقعات). النظرية الصحيحة للغة هي تطوير المعايير التي تحكم انتقاء نحوها الصحيح^(٢).

اللغة عند تشومسكي إذن طائفة من الجمل، ولكنها الجمل الصحيحة نحويًا فحسب والنظرية اللغوية نظرية للجمل الصحيحة نحويًا. ويعتمد متكلم اللغة الأصلي في تمييزه بين الجمل الصحيحة نحويًا والجمل غير الصحيحة على معرفته الحدسية. هذه المعرفة تمكنه أيضا من إنتاج عدد غير متناه من

(١) Chomsky, Noam: Syntactic Structures, Mouton - The Hague - Paris, 8. th. Printing (1969) pp. 13-15.

(٢) المرجع نفسه ص ١٩ .

الجملة الجديدة وفهمها. هي مصدر المعلومات في تحديد فكرة النحوية، وليس المعنى أو الدلالة. يضيف هدملستون، أحد ممثلي المنهج التحليلي، فكرة مهمة، هي أن تحديد اللغة لا يكون من خلال المنطوقات المحتملة.

ويمثل على ذلك فيما يلي :

(1) I was hoping that you - would you tell him the news for me?

(2) I was hoping that you would tell him the news for me .

فالبنية النحوية للمنطوق الأول غير مكتملة مقارنة بالمنطوق الثاني. وعدم الاستكمال ظاهرة شائعة تماما في الكلام التقائي. ومن هنا، يجعل المنطوق الأول منطوقا محتملا potential utterance ، يمكن أن يقع. ومتكلم الإنجليزية يمي (1) مختلف في حالته عن (2).

وينبغي للوصف الذي يناسب معرفة المتكلم/المستمع بالإنجليزية، ينبغي له أن يميز عن هذا الاختلاف في الحالة. ولما كانت المنطوقات من كلا النمطين يمكن أن تقع، فلا يمكن أن تشخص الاختلافات في الحالة في حدود فكرة احتمالية الوقوع Potentiality of Occurrence وأن (2) وليس (1) ينتمي إلى مجموعة الجمل حسنة السبك Wellformed Sentences في الإنجليزية^(١).

يعتبرنا مما سبق الانتهاء إلى أن « الجملة Sentence » مفهوم ينتمي إلى نظرية الأداء. يمثل المنطوق في (2) علاقة مباشرة وبسيطة (نسبياً) بين المنطوق والجملة، بيد أنه لا توجد جملة أو سلسلة من الجمل تناظر المنطوق في (1). ليست كل المنطوقات منطوقات جمل. وهذه علة مهمة للاحتفاظ بالتمايز النظري بين المفاهيم. حينما ينطق متكلم بالمنطوق في (2)، فلا يؤخذ هذا على أنه دليل على أن معرفته بالإنجليزية معرفة غير تامة. الأخرى أن نسلم كما يقول هدملستون. بأن استعمال المتكلم لفته قد لا يعكس على نحو مباشر معرفته بهذه اللغة (2).

وغنى عن البيان أن نحو اللغة ذاته يفسح مجالاً لتراكيب جديدة غير متناهية. ولعل قدرة المتكلم على توليد الجمل الجديدة وفهمها. وحسنه عن بنية العبارات والجملة، وحسنه عن التفاوت بين درجات حسن السبك للجملة الواحدة، مما يتيح لنا القول بأن مفهوم الكفاية عند تشومسكي لا يحاذي محاذاة تامة مفهوم اللغة عند دوسوسير، وذلك أن اللغة عند دوسوسير ليست. كما المحنا سابقاً. إلا مغزنا ونظاما نحويًا يوجد بالقوة في كل عقل.

(١) Huddleston, Op. Cit, P. 2

(ب) الكفاية والأداء :

الكفاية معرفة ضمنية باللغة. والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة. الكفاية معرفة مكتسبة، والأداء فعل كلامي متحقق. يعني هذا أن الأداء هو طريق الوصول إلى الكفاية: فالكفاية لا تدرك إلا من أفعال الأداء اللغوي. من ثم عدت الكفاية بناء افتراضيا مثاليا، في الوقت الذي يكون فيه الأداء ناتجا لغويا واقميا. أثار هذا التمييز مشكلا عويصا بين علماء اللغة وعلماء علم اللغة النفسي، هو مشكل تحديد ماهية الوقائع التي ينتمي أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد الكفاية والواقعات التي يجب استبعادها، من حيث إنها واقعات غير مناسبة. يقول مارك ريشل: «لقد حل علماء اللغة بوجه عام هذه المشكلة بالرجوع إلى حدس الأشخاص الناطقين، وبالاعتماد على أنفسهم عند الاقتضاء بوصفهم عينات ممثلة للجماعة اللغوية»^(١).

تثير الكفاية في علاقتها بالأداء إشكاليات عدة، نوجزها - من خلال ما لاحظته العلماء بعد تشومسكي - فيما يلي :

١- يؤدي الفصل بين الكفاية والأداء إلى النظر إلى الكفاية على أنها اللغة الطبيعية في صيغتها المثالية، والنظر إلى الأداء على أنه الحقيقة البالية التي تحوى الآثار الجانبية الفسيولوجية وغيرها من الأشياء التي لا يتصل بعضها ببعض^(٢).

٢- ليس كل ما يبيحه معيار الصحة النحوية مقبولا عند الأداء. تكون العبارة صحيحة نحويا، ولكن أحدا لا ينطق بها ولا يفهمها في الاستعمال العادي. إن جملة نحو: «أكل الفار الذي قتله الهر الذي طارده الكلب الجبن» تمد جزئا من اللغة عند كل من ينحو منحى تشومسكي، لأن قواعد اللغة تجهزها. ولكن متن اللغة لا يعرف مثل هذه الجملة. يرجع مارك ريشل ذلك إلى أن بعض القيود التي ترتبط بالأداء تحظر استعمال مثل هذه العبارات، مثل قيود الذاكرة، والتعقد المنطقي الذي يستحيل حله... إلخ^(٣).

(١) كتاب اللغة ص ٣٦

(٢) Halliday, M. A. K: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation Of Language and Meaning, Open Uni. London (1993) p. 38

(٣) كتاب اللغة ص ٣٨

٢- استبعد تشومسكي عند إنشاء نظريته النحوية عوامل مثل محدودية الذاكرة، والمدول عن خطة الكلام أثناء التكلم، كما تجاهل الأخطاء^(١). يثير هذا تساؤلا عن مدى جعل الأداء الفعلي (على رغم ما يمرض من عوارض، وعلى رغم تفاوته عند المتكلم الواحد من مناسبة إلى أخرى) عيارا للحكم على الكفاية التي عدت دائما طريقة مثالية للعمل وفقا للقوانين. أبتظر إلى تلك العوامل والعوارض مستقلة عن الكفاية اللغوية، أم يمتد بما تحمله من مضامين عن معرفة المتكلم أو المستمع بلفته؟ يقول ريشل: «المعلوم أن الطفل يتلفظ ببعض المبارات غير الأصولية (أي غير المطابقة لقوانين النحو). وحين يتلفظ الراشد بمثل هذه العبارات، فإن عالم اللغة يستعملها بسهولة بوصفها أحداثا طارئة من الأداء ولا تندرج بالتالي في قواعد النحو»^(٢).

إن معيار الصحة النحوية ليس معيارا مطلقا. وكثيرا ما يجري تحديد بنية المنطوق الأساسية من خلال وحدات الخطاب الكبرى، سواء أكانت مقابلة أم مقامة. ولم يكن غريبا مع مثل تلك الإشكاليات أن تصدف نظرية تحليل الخطاب عن مفهوم الكفاية وأن تراه مفهوما غير مساعد في حلها^(٣).

(ج) نقد الكفاية اللغوية :

تأور علماء علم اللغة الاجتماعي وعلماء النص ومحللو الخطاب مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي ومن نحا منحاه بالنقد من جهات مختلفة. يمكن أن نوجز أهم ما أخذ على الكفاية فيما يلي :

١- تقابل ثنائية الكفاية/الأداء بين ما يعرفه المتكلم وما يؤديه، في الوقت الذي لا حاجة فيه إلى استظهار ما يعرفه المتكلم؛ وذلك أن خلفية ما يؤديه ذلك على ما يمكنه أن يؤدي: أي دليل على الممكن الذي هو موضوعي Objective، لا الكفاية التي هي ذاتية Subjective^(٤).

(١) النص والخطاب والإجراء ص ١٠٨.

(٢) كتاب اللغة ص ٢٨.

(٣) Coulthard, Malcolm-Montgomery, Martin : Studies in Discourse Analysis, Routledge-London and New York (1989) PP. 28-83.

(٤) Halliday, op. Cit., pp. 34-38.

نظرية بمبادئ نظرية أو نظريات أخرى. فهم الكفاية في إطار النظرية التحويلية التوليدية لا يجعل الاعتبار السباقية التداولية امرا واردا؛ وذلك أن تحليل الأبنية النحوية للجمال في ذاتها (وليس من خلال المعنى أو الدلالة) المبدأ الذي يُسهر الفكر التحليلي التوليدي عند تشومسكي ومدرسته. وكان تشومسكي نفسه يدرك أن «معرفة الإنسان اللغوية: أي نظام القواعد المستمع داخل ذهن الإنسان، هي فقط عامل واحد من عوامل كثيرة تقرر كيف تستخدم أو تفهم عبارة ما في موقف معين»^(١).

كان تشومسكي قد درس الرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا. وقد صبغت هذه الدراسة فكره اللغوي، وساعدته على تطوير فرضية «الكليات النحوية» (Syntactic Universals) التي ناظرت «الكليات الصوتية الوظيفية» عند رومان ياكوبسون Roman Jakobson أحد مؤسسي اللسانيات الوظيفية في مدرسة براغ. كان جوهر فرضية تشومسكي أن التراكيب اللغوية متشابهة بين شتى اللغات، وأن كل لغة تعرف عددا غير متناه من الجمل، على رغم تلاهي العلامات اللغوية فيها. من أجل ذلك، استقرت عناية تشومسكي على نشاط العقل البشري في إنشاء أعداد غير متناهية من الجمل في أنماط مختلفة، صارفا النظر عن ارتباط هذا النشاط وتلك الأنماط بسياقاتها الاتصالية الفعلية. وهذا ممكن النقص في نظرية تشومسكي في الكفاية اللغوية. هي نظرية جزئية أو ناقصة؛ وذلك أنها انصرفت إلى البنى التركيبية والجوانب الشكلية من اللغة، حتى شغلت عن المحيطات التلفيفية الاجتماعية التي تقع فيها تلك البنى وعن الجوانب الإنسانية التي تشكل صيغ التفاعلات اللغوية اليومية. ويلاحظ المرء أن بعض الجمل التي وصفت في التحليل النحوي عند تشومسكي بأنها خاطئة نحويا، إنما هي بالأحرى جمل لم يملك قائلوها أن يهيئوا لها مقاماتها المناسبة والتي تجعل لها معنى. ومن أدلة الحكم على نظريته في الكفاية بالنقصان، أنها لم تجعل محلا في حساباتها للجمل المحتملة المقبولة في الأداء؛ فالمتكلمون لا يقصرون أدايم اللغوي على جمل مكتملة تحدها حدود النحو وقوانينه النموذجية، بل قد يصدرون أيضا

منطوقات جمل ناقصة من حيث البني النحوية، ككاملة في وظائفها الاتصالية التداولية.

في نظرية تشومسكي في الكفائية، يبدو لنا الفصل واضحاً بين النحو ومبادئ العلوم الإنسانية، فضلاً عن وضوح الفصل بين النحو وعلم الدلالة من مبادئ العلوم اللغوية ذاتها. ونحن مع ستويس Stubbe في أن الفصل بين المبادئ وفروع المبادئ يفيد في غالب الأحوال؛ وذلك أنه يتيح درس طائفة مهمة من الظواهر التي يضرب عنها الصنف^(١). ولكن النظرة المترابطة إلى اللغة، ينبغي لها أن تأخذ في الحسبان استعمال اللغة استعمالاً يومياً في خطاب متصل.

(د) إعادة صياغة الكفائية :

يمكن القول بأن بعضاً من المآخذ السابقة تعد توجيهات إلى إعادة صياغة كفائية تشومسكي اللغوية. ولعل أهم محاولات إعادة الصياغة الموسومة محاولة هيربرت برسكله Herbert Brekle وهانز بولر Hans Buehler .

سمت محاولة برسكله إلى بيان العلاقة بين الكفائية والأداء وبين ثلاثية دو سوسير: الكلام Parole / اللغة Language / شكلية اللغة faculte de langue في إطار الأبعاد السيميائية الثلاثة: النحو، والدلالة، والتداولية. إنها محاولة لإعادة الصيغة في ضوء ما يقدمه علم الدلالة من مكونات دلالية للكفائية اللغوية العامة، وما تقدمه التداولية لها من مبادئ؛ مثل اشتراك المتكلم والمستمع في الأدوار الاجتماعية وفي سياقات التعامل Handlungskontexte^(٢).

أما هانز بولر وزملاؤه، فينطلقون من تحديد موضوعات علم اللغة الكبير في :

- ١- اللغة في نظامها .
- ٢- اللغة في وظيفتها الاجتماعية .
- ومن هنا كانت العناية بأمريين اثنين:
- ١- فحص المفهومين: الكفائية/الأداء فحصاً نقدياً، وتمريفهما تعريفاً جديداً في المسائل اللغوية الاجتماعية.

(١) Stubbs, Michael: Discourse Analysis. Basil Blackwell-Oxford (1989) p 11.

(٢) Brekle, op. Cit., SS. 124-130

٢- تعيين الوضع النموذجي لكل من المتكلم والمستمع: لعمل نموذج للبنائية اللغوية والنحو التحليلي التوليدي وعلم الدلالة والتداولية^(١).
المتكلم أو المستمع النموذجي في منهج النحو التحليلي التوليدي، لا يملك أي علامات فيزيائية، ولا أي علامات اجتماعية: كالتربية والتعليم والوظيفة، والملاقات الاجتماعية، والجماعة التي ينتمي إليها.
دعا هذا بولر وزملاءه إلى العودة إلى «نمذجة» المتكلم والمستمع، ومحاولة تقديم تعريف جديد للعلاقة بين الكفاية والأداء. ينبغي للمتكلم أو المستمع «النمذج» أن يتمتع بالقدرة على حيازة النصوص محكمة الجمل، والقدرة على تأليف التعبيرات وإنتاجها ووضعها في مواقفها الاجتماعية.
يعني هذا أن المناهج وطرق الإجراء في بحث اللغة في نظامها، لا تستطيع أن تصف قدرات المتكلم أو المستمع، أو أن توضحها على نحو تام، هذه القدرات التي تعد في علم اللغة الاجتماعي ذات أهمية معروفة. يبين بولر وزملاءه ذلك بالتمثيل بمحاولتين لا اعتذار متكلم بعينه في مواقف اتصالية اجتماعية متفاوتة :

(١) السيد من يعتذر إلى زوجته عن سوء مزاجه :

« قطني ... لا تتزعجي ... معذرة ... من فضلك ... يوسفني هذا ... لم أكن أقصد هذا ... ».

(٢) السيد من يعتذر في مناقشة علنية إلى شريكه في المحادثة غريب نسبياً:
« أرجوكم يا سيد من أن تهدوا بالآ، أؤكد لكم أنني أسف أسفا بالفا على تصرفي ... ».

يريد هانز بولر بهذا أن يبين أن النوعيات المتفاوتة للتعامل اللغوي، لا تكاد تتضح عن طريق الوصف اللغوي الشكلي؛ فالفرق في تفسير السيد من اعتذاره بين (١) و (٢)، يأتي من الموقفة الاجتماعية المتفاوتة للنص، ومن درجة الألفة بين المشاركين، ومن علانية الموقف، ومن التوافق الخطابي المتفاوت "Rodekonstellation"

(١) Buehler, Hans, et. al., : Sprache 2, Eine Einführung in die moderne Linguistik. Fischer Taschenbuch Verlag-Frankfurt (1973) S 180 >

(٢) المرجع السنن ص ١٨١-١٨٢

التحقق	الافتراضي												
<table border="1"> <tr> <td colspan="2">الاستعمال اللغوي (الأداء)</td></tr> <tr> <td>الجماعي</td><td>الفردية</td></tr> </table>	الاستعمال اللغوي (الأداء)		الجماعي	الفردية	<table border="1"> <tr> <td colspan="2">التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية)</td></tr> <tr> <td>الجماعية</td><td>الفردية</td></tr> </table> <table border="1"> <tr> <td colspan="2">الملكية اللغوية (الشفرة)</td></tr> <tr> <td>الجماعية</td><td>الفردية</td></tr> </table>	التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية)		الجماعية	الفردية	الملكية اللغوية (الشفرة)		الجماعية	الفردية
الاستعمال اللغوي (الأداء)													
الجماعي	الفردية												
التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية)													
الجماعية	الفردية												
الملكية اللغوية (الشفرة)													
الجماعية	الفردية												

نتأش الشائبة المفهومية: الكفاية/الأداء. في هذا الجدول بالتعبير عنها بالمفهومين: الافتراضي/ المتحقق. وتفه الكفاية هنا بأنها قدرة المتكلم أو المستمع على التفسير وعلى فك التشفير، وبأنها تحقق الشفرة Kode أو الملكية اللغوية Sprachbesitz هي إذن القدرة على الاختيار أو الانتقاء من مخزون العلامات اللغوية وما يربط بينها من قواعد لإنتاج أبنية لغوية. هذه القدرة هي ما نمنه تماما عن الكفاية النحوية الخالصة^(١). أما استدعاء المتكلم أو المستمع كفايته النحوية، فهو ما يعرف بالأداء، الأداء الذي يرتبط بمساافات عرؤية وموقفية، كما يرتبط بمكونات اجتماعية ونفسية: أي بما أسماء بولر باسم التوافق الخطابي Redekonstellation.

لماذا لم تقبل البحوث اللغوية الاجتماعية التفرع إلى الكفاية والأداء؟ يرجع ذلك إلى أن ارتباط مناسبة العملية الاتصالية وفهمها وتفسيرها بالسبك النحوي ارتباط جزئي فحسب؛ وذلك أن هناك أشياء أخرى ينبغي أن ترتبط بها؛ هي المكونات الموقفية والاجتماعية والنفسية.

في محاولتي اعتذار السهد من المسابقتين، لم يمكن الحكم بمناسبة سلوكه اللغوي أو عدم مناسبة مرتبطا بجودة السبك أو بردامته. فكانت جعل الاعتذار صعبة بحكم فهمنا العلاقات الاجتماعية بين السهد من

(١) المرجع نفسه ص ١٨٢.

ومخاطبيه، ومن سمات الموقف^(١).

في هذه الحال، يدخل بولر وزملاؤه المفهوم: كفاية السلوك الاتصالي اللغوي Verbal Kommunikative Verhaltenskompetenz. ويغير الجدول السابق

حيثنذ إلى الشكل التالي :

المتعلق	الافتراضي
الأفعال الاتصالية اللغوية	الكفاءة السلوكية الاتصالية اللغوية
الجماعية	الجماعية
الفردية	الفردية
	الملكية اللغوية (الشفرة)
	الجماعية
	الفردية

نفهم الكفاءة السلوكية الاتصالية اللغوية من مقدرة المتكلم أو المستمع التي تمارس عملها في التوافق الخطابى على نحوي لغوي؛ أي فهمها لغوياً^(٢).

(هـ) الكفاية اللغوية والملكية اللسانية :

كان ابن خلدون - وإن لم يكن من اللغويين المحترفين - قد سبق إلى مفهوم «الملكية اللسانية» الذي نراه صالحاً لأن يكون المقابل العربي لمفهوم الكفاية عند تشومسكى. التفت ابن خلدون إلى جل الأفكار المهمة في نظرية تشومسكى في الكفاية، بل زاد بعضها من الأفكار التي اتصلت بالواقع اللغوي في المجتمع العربي. ويمكن أن نميط اللثام عن ذلك من خلال النقاط الجوهرية التالية :

١- الملكية اللسانية عند ابن خلدون تعني أيضاً المعرفة التي يكتسبها متكلم اللغة السليقي عن لفته كلاماً وفهماً؛ فالحروف والحركات والهيئات - أي الأوضاع - لم يتكلفها العرب؛ إنما هي ملكة في

(١) المرجع السابق ص ١٨١

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥

السنتهم ، يأخذها الآخر عن الأول^(١) . وتكتسب اللفة عنده بالطرق التالية :

(أ) السمع : وهو أبو الملصكات للسانية^(٢) .

(ب) والتعليم : ووجه حفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم^(٣) .

(ج) وكثرة الحفظ : وذلك أن حصول ملكة اللسان العربي ، إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله النوال الذي نسجوا عليه تراكيبيهم ، فينسخ هو عليه ، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ منهم وخالف عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم^(٤) . وكثرة الحفظ تزيد صاحب الملكة رسوخاً وقوة^(٥) . ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه^(٦) .

(د) والممارسة : فالملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه^(٧) .

وللتكرار أثره في ترسيخ الملكة : والملصكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال : لأن الفعل يقع أولاً ، وتعود فيه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالاً . ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار ، فتكون ملكة : أي صفة راسخة^(٨) . ويشرح ابن خلدون هذه المراحل بقوله : « فالتكلم من العرب حين كانت ملكته اللفة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام آل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تمبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع العربي استعمال المفردات في معانيها ، فيلقنها أولاً ، ثم يسمع التراكيب بعدها ، فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن عبد) : المقدمة ، مراجعة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ، د . ت ١٤١٦ هـ .

(٢) المرجع السابق ١٤١٦ هـ .

(٣) المرجع نفسه ٥٥٩/١ وقرن ٥٥٨/١ .

(٤) المرجع نفسه ٥٦١/١ .

(٥) المرجع نفسه ٥٥٩/١ .

(٦) المرجع نفسه ٥٥٣/١ .

(٧) المرجع نفسه ٥٦٢/١ .

(٨) المرجع نفسه ٥٥٤/١ .

لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كآدهم^(١).

لوقوع الفعل اللساني ← صفة للذات لتكرار الصفة ← حال أو صفة غير راسخة لزيادة تكرارا ← ملكة أو صفة راسخة.

الملكة إذن مكتسبة. والصواب للعرب في لفهم إعرابا وبلاغة لم يكن أمرا طبيعيا. لم تكن العرب تتلق بالطبع، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت ورسخت، فظهرت كأنها جيلة وطبع^(٢).

٢- كان هدف الدراسة اللغوية عند تشومسكي هو دراسة كفاية المتكلم أو المستمع السليق، وكذلك يرى ابن خلدون أن اللغات كلها ملكات، وأن اللغات وملكاتها ليست مجانا^(٣).

٣- كان تشومسكي يرى اللغة طائفة من الجمل الصحيحة نحويا، كما كان يرى أن نحو اللغة هو نظرية اللغة. وهذه الأهمية للنحو تعظم أيضا في جمل ابن خلدون الأهم المقدم من علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والأدب) هو النحو: «إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر.. علم النحو أهم من اللغة؛ إذ في جهله الإخلال بالفهم جملة وليست كذلك اللغة^(٤). والحق أن اصطلاح «اللغة» عند ابن خلدون في مثل الكلام السابق ليس هو اصطلاح «اللغة» الذي نعرفه في العصر الحديث غير موقوف على المفردات، إنما كان العرب يطلقونه على «المفردات». وقد استقر عند علمائنا القدماء أن جهل بمض مفردات اللغة لا يقدح في العالم، إذ لا يحيط باللغة إلا «نبي» كما قالوا، أما جهل جانب واحد من جوانب النحو فتقيصة من النقائص الكبرى.

٤- لم يكن منطلق تشومسكي تأمل الرموز اللغوية المفردة، ولا تجمع الرموز اللغوية، ولكنه كان إنتاج الجمل والجهاز القاعدي الذي يرتبط

(١) المرجع ض ١/ ٥٥٥-٥٥٥.

(٢) المرجع ض ١/ ٥٦٢.

(٣) المرجع ض ١/ ٥٥٧.

(٤) المرجع ض ١/ ٥١٥.

به. لقد قصد تشومسكي بالكفاية اللغوية الجهاز القاعدي النحوي في دماغ متكلم سليق وامتلاكه قواعد توليد التراكييب التي يحصلها من اكتسابه الأول للغة. وكذلك كانت نظرة ابن خلدون إلى الملكة: فتمام الملكة أو نقصانها ليس بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكييب^(١).

ويميز ابن خلدون هنا بين التراكييب الراجعة إلى الملكة اللسانية والقوانين المطردة المستتبطة من كلام العرب بالقوانين إنما تمهد علما باللسان، ولا تمهد حصول الملكة^(٢). قوانين الملكة علم بكيفية لا نفس كيفية. فالبصير بالخطاطة علما غير المحكم للمكتبة عملاً. وكذلك العلم بقوانين الإعراب، فهو علم بكيفية العمل، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه، أو ذى مودته، أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن^(٣).

٥- الملكة متغيرة، ومن عوامل تغيرها العوامل الخارجية: اجتماعية وتاريخية وغيرها. يضرب ابن خلدون مثالا على ذلك بالذي حصل للعرب بما ألقى إليها السمع من مخالقات المستعربين: « ففسدت بما ألقى إليها مما يغايروا لجنوحها إليه باعتياد السمع »^(٤). حينما خالط العرب المعجم، حصلت لهم ملكة ممزجة من الملكة الأولى التي كانت لهم ومن الملكة الثانية للمعجم، « فعلى مقدار ما يسمعون من المعجم، ويربون عليه، يعمدون عن الملكة الأولى »^(٥).

٦- جعل تشومسكي الحدس مصدراً للمعلومات واستقاء القواعد والأداة الأهم في التمييز بين الجملة الصحيحة نحويًا والجملة غير الصحيحة. وفي كلام ابن خلدون ما يثبت فطنته إلى دور الحدس في ذلك أيضاً، مثل قوله :

(١) للقدمة ١/ ٥٥١

(٢) المرجع السابق ١/ ٥٦٢

(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٠

(٤) المرجع نفسه ١/ ٥١٦

(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥٨

(١) « فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ... وإن سمع تركبها غير جارٍ على ذلك المنحى معجاً، ونبا عنه سمحه بأدنى فكر، بل ويغير فكر، إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة^(١)».

(ب) أو قوله: « ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه: لأنه لا يمتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومعجاً وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما يمجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبهانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم^(٢)».

٧- إذا كان بعض اللغويين قد أخذوا على تشومسكي إهماله الاعتبارات السياقية في تفسير التراكيب وإهماله التفاعل الذي يجب مراعاته بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية، فإن فطنة ابن خلدون إلى حقيقة الواقعة اللغوية الاتصالية، قد هدته إلى وجوب توفر عوامل أخرى مع قدرته على إنتاج التراكيب وفهمها: مثل سلامة الطبع ومراعاة التطبيق، ومقتضيات الأحوال - أو أحوال المتخاطبين أو الفاعلين^(٣) من تمام الإفادة عند ابن خلدون، بل يراها مما يجعل الكلام من جنس كلام العرب: « فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة^(٤)». وينبغي عند ابن خلدون « التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام^(٥)». ومن ذلك مثلاً تؤكد الإسناد:

(١) المرجع السابق ١/٦٦

(٢) المرجع نفسه ١/٦٦ - ٦٣

(٣) المرجع السابق ١/٦٠٠

(٤) المرجع نفسه ١/٦٠٠

(٥) المرجع نفسه ١/٦٠١

المقال	حال الفعل اللساني	المقام (حال المتخاطبين)
زيد قائم	عار عن التوكيد	إفادة خالي الذهن
إن زيدا قائم	مؤكد بإن	إفادة المتردد
إن زيدا لقائم	مؤكد بإن واللام	إفادة المنكر

فهذه متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب^(١).

الملكية اللسانية إذن معرفة المتكلم المكتسبة بلفته. هي صفة راسخة للمتكلم تحصل بتكرار الأفعال الكلامية وتحصل بالتعلم والممارسة. وليس تمام الملكية أو نقصانها بالنظر إلى المفردات ؛ فالملكة التامة في التركيب ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال. ولنا - والأمر على ما رأينا - أن نستنتج حقيقة مهمة؛ هي أن الملكية اللسانية عند ابن خلدون أوسع من أن تقتصر على الملكية النحوية؛ لأنها تتسع للإفادة والإبلاغ ، حتى تقارب الكفاية الاتصالية التي يراعى فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وربما لا نجاوز الصواب إذا جعلنا مفهوم « الذوق » عند ابن خلدون مضاميا لمفهوم الكفاية الاتصالية عند المحدثين من رواد المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي، على نحو ما سنرى.

الذوق هو الملكية عندما ترسخ وتستقر^(٢). والذوق حصول ملكة البلاغة للسان^(٣). ولا يبلغ المتكلم الفاية من إفادة مقصوده إلا بتلك المطابقة التي تقتضيها ملكة البلاغة للسان. والمطابقة إنما تكون بين أفعال اللسان وسياقات الاتصال.

٣ - الكفاية الاتصالية ؛

الكفاية اللغوية - في موقعها من ساحة الخطاب - نموذج لمعرفة المتكلم بلفته، وليست نموذجا لمعرفة كيف يقيم اتصالا لغويا حقيقيا مع الآخرين، يلائم فيه بين اللغة التي يعمرها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال. يعني هذا التسليم المبني بكون الكفاية اللغوية قاعدة الاتصال اللغوي بين الناس. المستمع الذي لا يعرف العربية مثلا ستظل المنطوقات عنده معطلة الوظيفة؛

(١) المرجع نفسه ١/ ٥٥١.

(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٣.

(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٦.

لأنها محض رضاء أو ضوصاء لا تعني شيئا ، مهما وفر لها المتكلم من قرائن تداولية . والمتكلم بالعربية الذي تموزه أوليات نظم الجملة بالكيفيات المقررة في نحوها سيظل عاجزا عن أن ينشئ مع مستمعه اتصالا نافعا ، مهما أظهر من قدرة على فقه السياق غير اللغوي ، ومهما احتال على ذلك بوسائل غير لغوية . تبدو المشكلة هنا في كون مركز الكفاية عند تشومسكي البنية الشكلية للغة الطبيعية ، على حين أن التذكير في أثر القرائن الاتصالية التداولية مما ينبني له أن يحتل مع تلك البنية ذلك المركز .

كان لابد من خفض درجة المثالية في كفاية تشومسكي لمصلحة متطلبات الموقف الاتصالي الاجتماعي المتغيرة . ينبني في هذه الحال أن ينظر إلى الصحة النحوية في مواضع تلك المتطلبات . صارت العقيدة الفكرية المهيمنة عند محلي الخطاب هي أن مفهوم الصحة النحوية ليس له مقابل مباشر ، وهذا ما نجده مثلا عند كالثاردCoulthard ومونتجمريMontgomery⁽¹⁾ . كان لابد من عجز نموذج الكفاية اللغوية في النظرية التحويلية التوليدية عن الوفاء بتشخيص العملية الاتصالية الطبيعية ، من حيث إنه جعل همه الفعل اللغوي المعزول عن سياقه . كان لابد من تغير التوجهات والمنظورات إلى سياق الاتصال . نرى شيئا من ذلك في مثل قول فولرمت Volmert : « عندما تدخل العلامات اللغوية في استخدام لغوي طبيعى ، تكون قد دخلت في سياق اتصالي . وفي السياق تظهر الدلالات الممكنة ، كما أن الوجود المحتمل لما يشار إليه من أشياء يجسم المراد . في الموقف الاتصالي ، لا تستخدم العلامات اللغوية منزلة ، ولكنها تتعلق بعلامات أخرى . يستطيع المرء أن يكشف في المعجم عن معاني الكلمات المفردة ، ولا يمكنه ذلك في معرفة معاني العبارات والجملة والنصوص .

إن معنى الخطاب الحقيقي يتميز تميزا جوهريا عن المعنى المعجمي والمعنى النظامي للكلمة : ففي الخطاب تعين معاني الكلمات من خلال السياق الموقفى تعينا موكدا : أي يتعدد تنوعها الدلالي . إن مقصد المتكلم الاتصالي ، وقدرته اللغوية ، ومعرفته ونظرتة إلى العالم ، تؤثر في اختياره

(1) Coulthard-Montgomery. Op Cit., p. 82

اللفظي الذي هو دائما انتقاء من الإمكانيات التي يتيحها النظام اللغوي^(١).
إن وضع العلامات اللغوية في تفاعل اجتماعي، يعني استخدامها
استخداما لغويا طبيعيا. في هذا التفاعل تميز المعاني الوظيفية للتمييزات
اللغوية تميزا تاما، بما تراعى فيه وتتوفر له من قواعد تداولية؛ أي "ك"
القواعد الجماعية لاستخدام تلك التمييزات استخداما عمليا. في الإنجليزية،
تعني الإجابة « Thank you » عن السؤال:

Would you like a cup of tea ?

تعني الإيجاب، ولكن المكس هو الصحيح في كل من الألمانية
والمرية. Danke في الألمانية و« شكرا » في المرية، تميزان - في الإجابة عن
عرض مماثل - النفي. هذا هو المعنى الوظيفي التداولي الذي تكتسبه مثل
تلك المفردات والمبارات في محيط التفاعلات اللغوية الاجتماعية اليومية
العملية.

لقد ارتاب علماء علم اللغة الاجتماعي في أفكار مثل كفاية المتكلمين
الأصليين Competence of native speakers وانتقاد أي قبول ضمنى لجماعة
لغوية متجانسة^(٢).

وسكان لما استجد - منذ الستينيات - في فروع علم الاجتماع ، مثل علم
الاجتماع النفسي، والأنثروبولوجيا، والإثنوجرافيا، ونحوها أثر مباشر في
تطبيق المنهج الاجتماعي ومعطياته المستمدة من تلك الفروع، في النظر إلى
الاستعمال اللغوي على ضوء المواقف الاتصالية الاجتماعية الفعلية يقول
فلان ديهك^(٣) Van Dijk: « وجد علماء علم اللغة الاجتماعي تأييدا وحثا - في هذا
المنهج الاجتماعي - على الاشتغال بالصورة الطبيعية لاستخدام اللغة. لقد
وجدوا أن الحديث اليومي هو الاستعمال الأول والجوهري في السياق
الاجتماعي^(٤) ».

(١) Volmert, Johannes (Hrsg.): Grundkurs Sprachwissenschaft. Wilhelm Fink Verlag-Muenchen (1995) S. 169.

(٢) Van Dijk. Teun A.: Dialogue as Discourse and Interaction, in Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis. Vol. 3 (Discourse and Dialogue) - Academic Press- London (1989) pp. 1-11, p. 7.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦.

صارت دراسة اللغة في الموقف الاتصالي اقفا يجاوز بنية النظام إلى قيمه ووظائفه التداولية. صارت القوانين التي تحكم كلام الأفراد الاجتماعيين من ذوى الكفاية أعظم مما قيد به مذهب تشومسكى عن كفاية المتكلمين المثالية في معرفة قوانين النحو وتطبيقها.

(1) مفهوم الكفاية الاتصالية :

الكفاية الاتصالية Communicative Competence هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللغوية في النظرية النحوية عند تشومسكى ومن نسج على منواله. بنى ديل هايمز Dell Hymes نظريته في الكفاية الاتصالية على أساس ما لاحظته من ضيق شديد في مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكى. لا ينبغي - من وجهة نظر هايمز - أن يقف هدف النظرية اللغوية عند وصف كفاية المتكلم المثالية ووصف معرفته بالصحة النحوية. وجد هايمز أن علم اللغة ينبغي له أن يعنى نفسه بالكفاية الاتصالية. والكفاية الاتصالية عنده تعني مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة، لا بجمال نحوي⁽²⁾.

صار هذا المفهوم شعارا على برنامج، بل على المنظور الاجتماعي الوظيفي إلى اللغة، وقاد إلى تحديدات مفهومية مختلفة ، وإن ظل جوهر النظرية. يمد فوندرليش Wunderlich من مؤسسي نظرية الفعل الاتصالي المعنى المركزي في الكفاية الاتصالية هو الكفاية اللغوية الفردية. وتبدو الكفاية الاتصالية عنده قدرة فاعلة من الناحية اللغوية في نظام من التوقعات الاجتماعية والضبط الاجتماعي. ويعني هذا أداء المواقف الخطابية، والنطق بالاهتمامات، وإعادة تحديد العلاقات الاجتماعية⁽³⁾.

ويعرف بيننتج Buening الكفاية الاتصالية بالقدرة الإنسانية الشاملة على فهم الموقف الاتصالي بين أطراف الاتصال في إطار عوامل أخرى؛ كالزمان، والمكان، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات الخاصة بين أطراف

(1) Hymes, Dell: Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking. In: Ardener, E. (ed.) : Social Anthropology and Linguistics. Association of Social Anthropologists Monography 10, Tavistock-London (1971) pp 47-93, p. 48.

(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.

الاتصال (أي الأدوار والأدوار المتوقعة)، ومقاصد هذه الأطراف، والقدرة على الفعل، وأداة الاتصال الموظفة لبلوغ الأهداف (الاستراتيجيات البلاغية: die rhetorischen Strategien). يضرب بينتج على ذلك المثال التوضيحي التالي:

السيدة من ضيف في مطعم (الدور «سيدة» ينتج عن الإطار الاجتماعي. أما الدور «ضيف» فينتج عن إطار مؤسسي). هي تتوقع أن يأتي رجل لإزائها، يقوم على خدمتها في أدب (الدور المتوقع). وفقاً للآراء العامة، ينبغي للنادل أن يبادر بالاعتذار. هذا يعني أنه يريد أن ينجز فعلاً اتصالياً. وهدفه هو أن يطابق الدور المنتظر منه: أي أن يكون في الخدمة، مستعداً. أما وسائله، فهي:

♦ الانحناء (علامة على الطاعة، وافتتاحاً للفعل الاتصالي).

♦ إفصاحه اللغوي عما يطلب أكمله. وهو إفصاح يناسب الإطار المؤسسي (المطعم) وتوزيع الأدوار (نادل - ضيف).

في تأمل الكفاية الاتصالية هنا، ينبغي أن نعرف أن الاتصال طريق يقود إلى تغييرات وإلى علاقات بين أطراف الاتصال في جميع المراحل والمجالات المذكورة، كما يقود إلى تغييرات في الأوضاع التي يتحدث عنها الإنسان - من حيث المضمون - بمساعدة الوسائل الاتصالية، لاسيما الرموز اللغوية. من أجل ذلك، بحثت الكفاية الاتصالية على أنها القدرة على الفعل الرمزي بين الناس (القدرة على التفاعل الرمزي في إطار نظريات التفاعل)⁽¹⁾.

والكفاية الاتصالية عند باكس Beacke هي القدرة على إنتاج أشكال متباينة من السلوك (اللغوي). ولا تستهدف هذه القدرة النقد والتفسير على نحو منطقي نزاعي فحسب، بل تستهدف أيضاً تأمين ما هو قائم موجود⁽²⁾.

ويرمز هابرماس Habermas فكرة صدور الأبنية اللغوية عن مواقف الخطاب الممكنة، وأن هذه الأبنية في خدمة الموقفية التداولية للتعبيرات اللغوية، وأن هذه الأبنية ترد إلى ما يسميه بالعموميات أو الكليات التداولية Pragmatische Universalien في كل موقف خطابي⁽³⁾.

(1) Boecking, op. cit., cit., SS. 236-238.

(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.

(3) المرجع السابق ص 63.

ويعرف ديتمار Dittmar الكفاية الاتصالية بأنها قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفها ومعياريها: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية^(١).

وتعني الكفاية الاتصالية عند سالزمان Salzman المعرفة بما يكون مناسباً أو غير مناسب لما يقال في سياق ثقلي اجتماعي بعينه^(٢).

وتبدو المناسبة محور تعريف ليهانندوفسكي أيضاً: فالكفاية الاتصالية عنده هي كفاية الاستخدام اللغوي، وهي القدرة على استخدام اللغة. ولا تتضمن الكفاية الاتصالية المعرفة النحوية فحسب، بل تضم إليها أيضاً معرفة المناسبة الاجتماعية والموقفية للأحداث اللغوية^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن علاقة الموازنة بين الرموز اللغوية ومركباتها وبين سياق الاتصال هي جوهر التمريرات المختلفة للكفاية الاتصالية. وينبغي وضع هذا المفهوم في إطار مفهوم أوسع سكه هايمز هو «إثنوجرافيا الكلام Ethnography of Speaking» (١٩٦٢) من أجل وضع برنامج نظري لتحليل الواقعيات الاتصالية في محيطها الثقلي تحليلًا وظيفيًا (أي مرتبطًا بالسياق) وديناميًا (أي مرتبطًا بالعملية الاتصالية)^(٤). وكان هايمز قد جعلً للوصف الإثنوجرافي مكونات اتصالية عدة، من أهمها: المشاركون في الاتصال، والموقف الاتصالي، وصيغة الاتصال، والحدث اللغوي، والموضوع، ووظيفة التفاعل. وتصلح هذه المكونات لأن تكون إطاراً وصفياً للبحوث في الكفاية الاتصالية للمتكلمين في إطار علم اللغة الاجتماعي^(٥).

هذا، ويكتسب أفراد الجماعة الأصليون الكفاية الاتصالية اللغوية الاجتماعية في بطنه وفي غير وعي. إنهم يكتسبون معرفة بالنظام اللغوي

(١) Dittmar, op. cit., p. 162.

(٢) Salzman, Zdzenek: Language, Culture and Society: An Introduction to linguistic Anthropology, Westview Press-Oxford (1993) p. 271.

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 563.

(٤) انظر لي فصل ذلك: محمد عبد (دكتور): الممارسة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال، دار الفكر العربي (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ص ٥٥-٦٩.

(٥) راجع لي ذلك:

Arens, Hans et al.: Handbuch der Linguistik: Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft, Nymphenburger Verlagshandlung (1987) S. 116

المناسب، وإن لم يموا بالضرورة بالمعايير التي تقود سلوكهم اللغوي الاجتماعي. أما الوافدون إلى الجماعة: كالباحثين اللغويين الاجتماعيين، فإنهم أسرع في اكتشاف تلك المعايير وهم أقوى وعياً بها^(١). ولا يجوز النظر إلى الكفاية الاتصالية على أنها تلقيح متأخر أو زرع في مزارع الطفل؛ فعلى العكس من ذلك، أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لاكتساب القواعد الإنجليزية أن الأولاد يطورون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع. وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكانى (Arawakan) من تشيلي قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها، اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استهامي هو، من جانب المستمع، إهانة للمتكلم^(٢).

(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية :

لم يأت تشومسكي بالكفاية اللغوية على وجهها من منظور المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي. بالكفاية اللغوية من منظور هذا المنهج أوسع من أن تقتصر على اختيار الألفاظ وحسن سبك الجمل. الكفاية اللغوية من وجهة نظر أصحاب نظرية الكفاية الاتصالية في أن يناسب الاختيار الموقف الاتصالي والمقصد الاتصالي. هذا هو المقياس؛ ليست الأحكام عن حسن الصياغة الشكلية والدلالية أحكاماً ثابتة ومطلقة، ولكنها أحكام ولادة المواقف الاتصالية الاجتماعية المتغيرة.

وينطلق تحليل الأحداث اللغوية تحليلاً موقفها من أسس نظرية عدة، لتوجز فيما يلي :

- ١- لا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات النحو الوصفية إلا بعلم الدلالة، ولا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات علم الدلالة إلا بالتداولية.
- ٢- يحول اختزال مجال اللغة في الوصف الشكلي الثابت دون عمل التصورات الإجرائية للاتصال برمته.

(١) Fishman, J. A: The sociology of language, in: pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context: Selected Readings, Penguin Books- England (1990) pp. 45-58, p. 49.

(٢) غارملدي، حرايت. الساتة الاجتماعية، عربيّة دكتور خليل أحمد خليل، دار الطليعة - بيروت ط (١٩٩٠م) ص ١٠١.

- ٢- لا تفهم اللغة إلا في سياق السلوك الاجتماعي^(١).
- وكان غوندرليش (١٩٧٠) قد قيد إشكاليات سبباً تأثيرها في النظرية اللغوية ككفاية المتكلم النحوية التي أغطت الاعتبارات التداولية :
- ١- تثبت النتائج الراهنة للبحث اللغوي النفسي، أن ما يحدث في ذهن المتكلم عند صوغه منطوقاته، يفوق الصورة البسيطة التي رسمها الطراز النحوي التوليدي.
- ٢- يتعلم الناس القوانين اللغوية مرتبطة بالمواقف والسمات.
- ٣- يكتسب المتكلمون القدرة على خلق مواقف لغوية تفاعلية جديدة كاملة.
- ٤- لا يمكن أن تفسر مقولات الشخص والزمان والمكان التي هي من أطر الاتصال القائم على الحادثة في ظروف معينة؛ لا يمكن أن تفسر تفسيراً ذا معنى إلا بالرجوع إلى ملازمات الموقف الكلامي.
- ٥- عندما لا يطابق الكلام القواعد، فإن هذا لا ينال من حقيقة استقاء فهم المعاني من المواقف.
- ٦- كثيراً ما لا يستتبع تفسير معنى المنطوق تفسيراً صحيحاً من بنيت النحوية (كان تفسر الأحداث اللغوية بأنها التماسات أو تحضيات .. أو غيرها عن طريق السياق).
- ٧- من كفاية المتكلم التداولية أمثال منطوقاته لمقاصده الكامنة، وإدراك ما فيها من مغالطات، وطرحها إذا اقتضت الضرورة^(٢).
- يكشف تتبع النظرية اللغوية الاجتماعية عن قيامها في جانب منها على النظرية اللغوية: الفونولوجية والنحوية، وقيامها في جانب آخر على نظرية اللغة في المواقف التي ترتبط فيها العناصر اللغوية بعوامل خارجة عن نطاق اللغة، وهي عوامل يفرضها السياق الموقف.

(1) Dittmar, Norbert: Sociolinguistics: A Critical Survey of Theories and Application. Athenäum Verlag GMB, Frankfurt (1976) p. 161.

(2) Wunderlich, D.: Die Rolle der Pragmatik in der Linguistik. in : Der Deutschunterricht 22 (4) (1970) SS. 5-41, SS. 12-18.

غير. Dittmar, Op. cit. P. 161.

في نظرية الكفاية الاتصالية عولجت المكونات اللغوية التي تعينها المواقف والأدوار. الحقيقة المقررة هنا أن كل كلام في تفاعل لغوي يحتل محيطه الفيزيائي، كما يحتل موقعه في سياق لغوي خاص، ويقيد بمحور بعينه، ويعتمد على الملابس النفسية المهمة (المقاصد و التوجهات) وعلى السمات الاجتماعية التي يتسم بها أولئك الذين يشغلون جانباً من المحاطبة (وضعهم في عملية الإنتاج، وأدوارهم). ويعني هذا وجود عوامل خارجة عن نطلق اللفظ، تسهم في تنظيم عمليات التفاعل تنظيمياً لغوياً^(١).

لن الوجه في الكفاية الاتصالية أن الجانبين: النحوي والنفسي ليسا إلا بعض الجوانب التي ينبغي لهذا المفهوم أن يغطيها. يبين هذا المنظور أن حكم تشومسكي على المنطوقات بحسب الصحة النحوية أو المقبولة (وهما موازيتان لكل من الكفاية والأداء) كان حكماً مبسطاً للغاية، وذلك أن المنطوقات لم تكن صحيحة نحوياً أو مقبولة فحسب، بل ينبغي لها أيضاً أن تقوم بمدى نجاحها ومناسبتها للسياق، وبالطريقة التي تكون بها مؤثرة بما هي أفعال، وبما تؤدي إليه من نتائج^(٢).

من بين المكونات الضرورية في كل اتصال: الحديث اللغوي عند إرفين. ترهب Ervin-Tripp والشفرة عند ديل هايمز. كل منهما مكون واحد فقط، يربط وجوده وتعين هيئته بمكونات العملية الاتصالية الأخرى، كالمشاركين، وقناة الاتصال، والواقعة الاتصالية ذاتها بأنواعها وملامحها المميزة على الجملة. إلخ^(٣).

أخزلت هذه المكونات الضرورية في المعرفة اللغوية الشكلية في قوانين التركيب الجملي من أجل ذلك، كان منظور هايمز وزملائه إلى الكفاية أوسع، لأنه ضم كفاية الشفرة وكفاية مستخدميه. وهي ليست راسدة على منصوب بعينه، بل تتغير وتتوسع مع الأوضاع والمواقف التي يخوضها

(١) انظر لي فصل ذلك: المرجع السابق ص ١٦١

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٣

(٣) راجع لي ذلك:

المشاركين. الكفاية اللغوية عند الأشخاص مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهات Encounters على مستويات نظر مختلفة. كذلك يراها هايمز⁽¹⁾. وكذلك تجعل إرفين - ترب تلك المكونات متغيرات تعدد تنويعات الأسلوب واختلافه عند المتكلم⁽²⁾.

وتستند الكفاية الاتصالية عند هايمز على ثلاثة مفاهيم جزئية

١- مفهوم المخزون اللغوي عند المتكلم (أي القدر من الكلام والأساليب المحددة تحديدا سياقيا).

٢- مفهوم العادات اللغوية أو الروتين اللغوي (أي تنظيم الحكي تنظيمًا يوميًا متصلًا، وتنظيم التفاعلات اللغوية ... إلخ).

٣- المحيط الاجتماعي للسلوك اللغوي (أي استعمال التنويعات اللغوية استعمالًا محددًا تحديدا سياقيا) (مكالنوع أ ب محيط الأسرة ، والتنوع ب ب بعض المؤسسات ... إلخ).

تقاس الكفاية الاتصالية (أو الكفاية اللغوية الاجتماعية) - ب ضوء هذه المفاهيم الثلاثة - بمقاس ذي مدين اثنين، حيث تدرج الأبعاد الأربعة (المفاهيم من ١ - ٣) على نحو رأسي وفقا لدرجات التحكم اللغوي الثلاث (التقيد ، المرونة ، التنوع). ويمكن - من هذا البعد - الإشارة إلى ثلاث درجات مختلفة للكفاية الاتصالية :

١- الكفاية الصغرى Minimal Competence: يعرف المتكلمون بمادة كلامية ما ب محيط اجتماعي ما ، من غير تغيير ب المخزون أو الشفرة (مقيد restricted).

٢- الكفاية المتوسطة Average Competence: يتحكم المتكلمون ب مجموعة من العادات الكلامية ليست واسعة ولا قليلة. وهم يمتادون هذه العادات ب مجال محدد من مجالات المحيطات الاجتماعية المختلفة .

(١) Hymes, Dell: Models of the Interaction of Language and Social Life, in: John J. Gumperz and Dell: Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 35 - 71, P. 53.
(٢) انظر في تفصيل ذلك :

Ervin-Tripp, S.: Sociolinguistics, in: L. Berkowitz (ed.): Advances in Experimental Social Psychology 4, New York (1969) pp. 91- 165, pp. 121-139.

ويفيرون . تبع ذلك مخزونهم اللغوي (مرن Flexible).

٢- الكفاية الكبرى Maximal Competence : يغير المتكلمون عاداتهم اللغوية في محيطات اجتماعية عدة ، ويفيرون مخزونهم اللغوي في سعة ويصر (متنوع Versatile)^(١).

في ضوء مفهوم « المخزون اللغوي » حاول فوندرليش الربط بين السلوك الكلامي وسلوك الدور ، في نموذج الذي أطلق عليه اسم « الشفرة الكلامية » هي نظام لاستراتيجيات البلاغة والتأويل « The speech code as a system of strategies of rhetoric and hermeneutic » . عرض في هذا النموذج لأبنية التنوع التي تقيد بشروط اجتماعية مادية وبالأبنية العليا (كالمعايير الأيديولوجية ، ونظم القيمة ، وطرق تناول الأشياء... الخ) . ويجعل فوندرليش البلاغة والتأويل من وظائف سلوك الدور . والتأويل عنده يعني الافتراضات التي يضمها المتكلمون في مجرى الاتصال^(٢).

(ج) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة :

عند اكتساب اللغة لا يتعلم الطفل الجمل فحسب ، ولكنه يتعلم أيضا قواعد استعمالها في سياقات اجتماعية ثقافية . وقد نظر في حقل تعليم اللغات إلى الكفاية الاتصالية من حيث هي قدرة مركبة من القدرات الفرعية التي حددها ليفاندوفسكي فيما يلي :

١- استنباط المعلومات وإعادة إنتاجها .

٢- فهم مواقف الكلام بحسب ما تتميز به من درجة العلانية والشكلية والبلهية الحركية .

٣- الإسهام في الكلام ومعرفة إمكانيات الأدوار الاجتماعية .

٤- تقويم تأثيرات الوسائل اللغوية والأحداث الكلامية .

٥- فهم متطلبات المشاركين في الاتصال ومشكلاتهم .

٦- التعبير الناجح سواء أكان تعبيراً لغوياً أم غير لغوي ، وفقاً لمتطلبات المتكلم واهتماماته^(٣).

(١) Dittmar, Op. cit., pp. 163-164.

(٢) انظر في فصل ذلك : Wunderlich, op. cit., p. 319.

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 564.

٦- يتفاعل متعلمو اللغة مع متكلم اللغة المنشودة في الكشف عن نماذج اللغة في الأعراف الاجتماعية والثقافية والخطابية، التي تجعل الخطاب موافقا لمواجة تداولية *Pragmatically appropriate*. وإذا لم يستخدم المتعلم اللغة على نحو مناسب تداوليا، فإنه سيقع في خطر ظهوره في مظهر غير المتعاون، على الأقل^(١).

يعد المنهج الاتصالي أحدث مناهج تعليم اللغات. وقد استخدم هذا المنهج استخداما واسعا. ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (نحو اللغة) يتيح القدرة على استعمالها. تنهى التجارب الاتصالية هناك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تؤكد صيغ اللغة (أي البنية النحوية الصحيحة والبنية الفونولوجية الصحيحة). يتميز هذا المنهج بالدروس الموجهة إلى مفاهيم مثل السؤال عن الأشياء، في سياقات اجتماعية مختلفة على نحو أقوى من تميزه بدروس عن صيغ الزمن الماضي، في جمل مختلفة. يرتبط هذا المنهج أيضا بمحاولات عرض مواد أقوى مناسبة لتعليم اللغة غير الأم تعلمها ذا غاية معينة (مثل تعليم الإنجليزية للأغراض الطبية أو تعليم اليابانية لرجال الأعمال)^(٢).

ولا تكون كفاية متعلم اللغة الثانية بحال كفاية تامة. يذكر هذا بفطنة ابن خلدون إلى ما أسماء بـ «الملكة الناقصة المخدوشة». وهي كذلك عنده إذا سبقتها ملكة أخرى في الحل؛ كالملكة التي تحصل للعجمي بمدرسة اللسان العربي^(٣).

(د) المعايير النحوية والكفاية الاتصالية :

رأينا أن كفاية المتكلم/المستمع النحوية ليست إلا مكونا واحدا فقط من المكونات التي تمكنه من الاتصال، وأن الكفاية الاتصالية أوسع من أن تقتصر على الكفاية اللغوية أو النحوية. إن الكفاية الاتصالية للمتكلم/المستمع في فعل وسيلته اللغوية وتوافق خطابه مع السلوك اللغوي المتزوج

(١) Harlig, K.B. et al., : Developing Pragmatic Awareness, in : ELT Journal, Vol., 45, 1 January (1991) Oxford Uni. Press, p 4

(٢) Yule, George: The Study of Language, An Introduction, Cambridge Uni Press (1996) p 154 .

والمطابق في ارتباطه بالمكونات الاجتماعية والموقفية والنفسية لسياق اتصالي اجتماعي بعينه. من أجل ذلك، يتوقع نشوب صراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية. يمكن أن نجد ذلك مثلاً في متوالية السؤال/ الإجابة. تكون الإجابة عن السؤال صحيحة نحويًا ولكنها غير مألوفة، أو هي منحرفة عن حدود قواعد الخطاب المعتادة :

أ : ما هذا ؟

ب : هذا {
إنه كرسي

— أ : أين الآلة الكاتبة ؟

ب : الآلة الكاتبة في الدولاب.

من الأمور الملحوظة في وصف بنية التفاعل اللغوي أن حدوث المتكلمين بمتواليات الوحدات التفاعلية السائفة أضعف من حدوثهم بمتواليات الوحدات النحوية التي تسمح بها القواعد. يرجع كالكثارد Couthard ومونتجمري Montgomery ذلك إلى أن ما بذل من جهد في دراسة بنية التفاعل ضئيل نسبياً^(١). وعلى رغم صحة هذه المقولة في ذاتها، فهي ليست محددة سبب ذلك. يرجع السبب الجوهرى - فيما نرى - إلى تشابه مكونات الكفاية الاتصالية وتعقد العلاقات فيما بينها. العوامل والاعتبارات التداولية ليست مما يتاح لجميع المتكلمين باللغة مجاناً. يعمم النحو قواعد اللغة مما ييسر الحدس بالصحة أو المقبولية، ولكن قواعد الاتصال مما تحتاج إلى ما أسماه ابن خلدون بالدوق، أو ما أسماه بولر بالتوافق الخطابي. ولا يتاح للمتكلم السليق شيء من ذلك إلا بطول التجربة والخبرة بمتطلبات العمليات الاتصالية المتنوعة.

... كان من أخطر ما وجه إلى الكفاية اللغوية من انتقادات، أن يكون الخطوط متمتعة بصحة النحوية، ولكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي عن أن يبلغ وظيفته. من ثم، أخذت الكفاية الاتصالية على عاتقها النظرة الوظيفية؛ أي كيفية تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات

(١) Couthard L. Montgomery. op. cit, p. 82

تدوين. فقال: فلما عذر حذف هذه "حروف هلقوة المعرفة بالموضع".
 "خروج عن الأصل فيما سبق مقاسر بمعانيير اتصالية تداولية. ويظهر ذلك
 أن نظرية "الكفاية" الاتصالية تبدو للبحث النحوي العربي حبيبا جاء على
 فائقة. وأنها مما ينبغي له أن يعضّ عليه بالتواجد حتى لا يذهب في السمهي!
 (هـ) الكفاية الاتصالية والفصل اللغوي التداولي :

تقاس قوة الكفاية الاتصالية بالوعي التداولي الذي يتميز به المتكلم
 والذي يجعل منطوقة ناجعا في سياقه الاتصالي. من مظاهر هذه القوة أن يمي
 المتكلم أن إعلامه الشيء بفتة ليس مثل إعلامه له بعد التنبية عليه والتقدمة
 له. قال عبد القاهر الذي اعتمدنا كلامه هنا مثلا على ما نريد: ".....لأن
 ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام. في التأكيد والإحكام".^(١) في الوعد
 والضمان يحسن أن يقال: "أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر؛
 وذلك. كما يقول عبد القاهر. أن من شأن من تعدد وتضمن له أن يمترضه
 الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التوكيد".^(٢)

ومن مظاهر هذه القوة أيضا نوع الربط الذي يختاره المتكلم لمنطوقاته في
 سياقاتها الاتصالية الخاصة. يمي المتكلم هنا بكيفية استقبال المخاطب
 للمنطوقات، حتى يختار للربط فيما بينها الربط المنطقي مثلا. من ذلك أن
 يدعى المتكلم على المخاطب ظنا لم يظنه، ولكن يراد التهكم به. يمكن
 أن تضرب مثلا على ذلك قول حجل بن نضلة :

جاء شقيق عارضا رمحه لنّ بني عمك فيهم رماح
 قال عبد القاهر في تأويل البيت: فيقول : إن مجيئه هكذا مُدلا بنفسه
 وشجاعته قد وضع رمحه عَرَضاً، دليل على إعجاب شديد ، وعلى اعتقاد
 منه أنه لا يقوم له أحد، حتى كان ليس مع أحد منا رمح يدفعه به، وكاننا
 كلنا عزل. وإذا كان كذلك، وجب إذا قيل إنها جواب سائل، أن يشترط فيه
 أن يكون للسائل ظن في المستؤل عنه على خلاف ما أنت تجيبه به. فاما أن
 يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلاه".^(٣)

(١) المرجع ص ٢٨١.

(٢) دلائل الإحصاء ص ١٠٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٣.

فء ضوء مبادئ نظرية الكفافة الاتصالية (التداولية) نهضت محاولات عدة لاستشراف آفاق جديدة فء البءء اللغوى المعاصر. نل من أهمها أفق اءءبار المناسبة الوظيفية والوظفئة للمنطوقات الصمءة نحوىا. لوءظ أن المنطوق فتمع بءمن السبك، ومع هذا فبدو ملتبسا وظففا أو نافرا سفاقفا. وقف باءئون على هذا المشكل، من أبرزهم رون واىء Ron White أجرى واىء دراسة تطبفئة للكشف عن هذا المشكل فء علاقته باءءءام «من فضلك» عند الناطقفن بالإنءلءزة من الفاءاففن. كان من أهدافه الكبرى ءءفء قوائن الأحداث الكلامفة الفف تطبق فء الاتصال بفن الثقافات. فمكن لنا أن نعرض الأفكار الجوهرفة والنءائج المهمة لدراسءه ففما فلى :

١- تم ظاهرة الءاءب جمفع الثقافات واللغات؛ ولكن التفسفر عنها فءخذ طرقا شئى؛ مما أوحى إلى بعضهم أن تعلم الءاءب وثفق العرف باءكءساب اللغة الأم.

٢- من مشككلات الاتصال بفن الثقافات، أن ءول أعراف الءاءب فء لغة إلى لغة أءرى. ولا فءلق هذا المشكل بأسباب لفوفة، إنما فءلق بالأءرى بأسباب لفوفة ءءاولفة؛ كان فءعمل المتكلم صفة لفوفة لا فوافق مقصءه، ففءملط الأمر على المسءمع. فإن كان الاختلاط وقءفا ءف الضرر، وإن ءككرر وطال أمءه كانت نءائجه أءطر. ففءو الأمر مءءفا مع الاتصال بفن الثقافات؛ ففا القوائن الفف تطبق فء التفسفر عندما فءترف مسءءم الإنءلءزة ففر الأصلف. عن ففر عمد. ءلأ لفوفا ءءاولفا^(١).

٣- ففو اسءعمال «من فضلك» علامة على الءاءب أكءر ءءاءا معا فءصور المرء. لوءظ أن معاولء الظهور بمظهرا كءر ءاءفا، ءقوء المتكلم (ففر الأصلف) إلى إقءام «من فضلك» فء ءطابه أناسا أرفع منه اءءماعفا. ءرءبط علة المشكل فء نظر واىء. بإقءام «من فضلك» على ما قصد به أن فكون عرضا Offer. بمءارة أءرى فءول المتكلمون ففر الأصلففن. ءون قصد. المرض (وهو ءاصل ما فكون عادة لمصلحة المسءمع) إلى الءماس (وهو ءاصل ما فكون عادة لمصلحة المتكلم).

(١) White, Ron Saying Please Pragmalinguistic Failure in English Interaction, EL T Journal, Vol 47/3-July (1993), Oxford Univ. Press (1993) pp. 193-202.

وهذا من انتهاك قوانين الحدث اللغوي^(١١)

١- العلامة المميزة بين ما يمكن أن يفسر بأنه حدث توجيهي وما يفهم على أنه التماس. هي استعمال «من فضلك». المعلم الذي يحاول أن يمارس عمله في غرفة المعلمين، سوف يوجه زملائه إلى أن يهدوا إذا قال :

♦ اخفضوا أصواتكم !

أما إذا استخدم أسلوب الاستفهام، كان منطوقه أدنى إلى أن يفسر بأنه التماس من أن يفسر بأنه توجيه (وإن كان طلبه إلى زملائه أن يخفضوا أصواتهم يناسب الحالين كليهما) :

♦ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم ؟

فيذا أضيف «من فضلك» زال اللبس عن وظيفة الالتماس في منطوق المتكلم :

♦ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم من فضلكم ؟

ومثل ذلك أن تضاف «من فضلك» إلى حدث أمري، فتجعل المنطوق التماساً لا توجيهاً :

♦ اخفضوا أصواتكم من فضلكم !

تستخدم «من فضلك» . كما تبين هذه الأمثلة . لتلطيف قوة المنطوق.

ويتفق وايت مع ستوبس Stubbs في أن الوظيفة الوحيدة لـ «من فضلك» هي أنها علامة على التأديب أو التلطف، وأنها تتعامل بالضرورة^(١٢).

يضع وايت قيداً على الحدث اللغوي الذي يمكن أن تقع معه «من

(١١) حدد جون سيرل (١٩٧٥) شروطاً لجعل الحدث اللغوي التماساً :

(أ) لغير المتكلم على قيد الفعل .
 (ب) رغبة المتكلم في أن يؤدي المتكلم الفعل .
 (ج) تلبية المتكلم الفعل .
 (د) رغبة في الفعل .
 (هـ) سبب تلبية الفعل
 رابع وايت ص ١٩١

(١٢) يقول ستوبس : «لها صفة وضعية» ، وذلك لأن وظيفتها الوحيدة هي أنها علامة على التأديب أو التلطف وليست

«أي خاصية موضوعية» . «من ليست هي أي شيء» ، ولذا كانت متباعدة خالفة الطريقة إلى حد بعيد»
 Stubbs, Michael Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis Of Natural Lan-guage, Basil Blackwell, Oxford (1989) p. 72

فضلك. هي تقع مع جملة ثقيل أن تقسّر بأنها التماس. و لا تقع مع منطوقات تقبل أن تقسّر بأنها تبليغات أو وعود أو عروض أو دعوات أو تهديدات^(١).

٥ - يظهر الفصل اللغوي التداولي فيما انتهى إليه وايت، في دراسته التطبيقية في أشكال عدة، هي :

(١) أن يستخدم المتكلم «من فضلك» التي للالتماس في منطوقات يعطى فيها توجيهات إلى المستمع، نحو :

من فضلك، خذ المنفذ الغربي ثم در يميناً. من فضلك انزل أسفل كويري السكة الحديدية في وصف كيفية الوصول إلى مطعم بعينه). هنا لا يلتزم المتكلم من المستمع أن يتخذ المنفذ الغربي ولا أن ينزل أسفل الكويري، بل يعطي توجيهاته إلى المستمع، حتى يفعل هذا. الإبلاغ هنا لمنفعة المستمع لا المتكلم. وهنا تحدد قدرة المستمع على أداء الفعل باستقبال المستمع توجيهات المتكلم.

المتكلم	
صيغة المنطوق	الوظيفة المقصودة
التماس: «من فضلك خذ المخرج الغربي»	إعطاء توجيهات
المستمع	
الصيغة المتوقعة	الوظيفة المفترضة
أمر: «خذ المخرج الغربي»	إعطاء توجيهات

الوظائف المقصودة والوظائف المفترضة

يلحظ وايت - ونشاركه ملحوظته - أن المتكلم باستعماله «من فضلك» يوقع المستمع في حيص بيص؛ وذلك أن صيغة المنطوق السطحية هي صيغة الالتماس، ولكن الوظيفة المفترضة هي إعطاء توجيهات. من هنا يستقبل المستمع رسالة محرّفة Garbled Message.

(١) White, op. cit., p. 195.

يعبر المستمع بالطبع أن المتكلم مؤدب، ولكن هذا الوعي ذاته لن يمنع المستمع من الشعور - سوما ما - بعدم الراحة؛ لأن ورود «من فضلك» مع الأمر، يستحضر أحد الشروط التي تحكم الالتماس، وهو رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل، ولأن المتكلم - في هذه الحالة - يقود المستمع من أجل ذلك، يبدو التوتر الناتج عن استعمال «من فضلك» أبلغ أهمية. وبناء على ذلك، يعد المتكلم فاشلاً فشلاً لغوياً تداولياً؛ لأنه خلق توتراً فيما كان مقصوداً به أن يكون حدثاً ودياً friendly act؛ وهو تقديم توجيهات إلى كيفية الوصول إلى مطعم قريب من منزل المستمع. وقد نتج التوتر عن الفشل في تحقيق المطابقة بين الصيغة والوظيفة، مما أدى إلى مشكلة اتصالية.

أما متكلم اللغة الأصلي native، فسوف يستعمل الأمر مستغنياً عن «من فضلك».

(ب) وقد ينشأ الفشل اللغوي التداولي من وضع «من فضلك» في منطوق لا يقبل أن يفسر بأنه توصية أو التماس، كقول المتكلم :

♦ تتقعد عملية التخزين في المقار الجديد ، من فضلك !

ونرى هذا في موقف اتصالي يتساوى فيه المتكلم والمستمع في المكانة من ناحية ويظهر فيه المستمع من ناحية أخرى رغبته في أن يؤدي هذا الفعل الفعياً. يجد المستمع آنذاك في التماس المتكلم هجوماً زائفاً؛ لأن أداء الفعل كان من برنامجه، ولم يمكن جزأ من رغبة متضمنة في التماس المتكلم. في هذه الحال، ينشأ توتر عن سوء استعمال «من فضلك»، ويؤدي إلى مشكلة اتصالية وإلى فشل لغوي تداولي.

في مثل هذا الموقف يقول ابن اللغة شيئاً نحو :

♦ إذن ، لا تنس أن تتقعد عملية التخزين.

(ج) وفي موقف اتصالي آخر، كان المتكلم أقل منزلة من المستمع، وكانا غادرا المكتب إلى السوق يشتريان بعض الأغراض المنزلية. وفي العودة إلى المكتب، فكر المتكلم في أن يشتري بعض الأشياء لمكتبه . فقال للمستمع :

♦ سأشتري بعض الأشياء من هنا. من فضلك عد أنت إلى المكتب !
يجعل رون وايت منطوق المتكلم ملحوظة خاطئة؛ وذلك أن المتكلم افترض أن المستمع يرغب (أو يختار) أن يؤدي الفعل المطلوب. أسى هنا مراعاة الوضع Status الذي يفصل بين المستمع والمتكلم؛ فالمتكلم ليس من مكانة توهله لأن يعبر عن رغبته، أو أن يفرض هذه الرغبة على المستمع في أداء فعل بعينه. إنه في مكانة عرض اقتراح بأن يكون الإذن للمستمع أن يعود إلى مكتبه، وأن يشتري هو بعض الأشياء. يتوقع هنا أن يكون نهج المتكلم السليق بالإنجليزية هو استعمال الأمر مستفنيا عن «من فضلك» :

♦ لا تقعد نفسك بي !

♦ لا تزعج نفسك بانتظاري !

يضع هذا الأمر المستمع - لا المتكلم - في وضع المستفيد. أما الالتماس، فهو - كما علمنا - لمصلحة المتكلم من حيث إنه حقا المستفيد.

وإذا كان قصد المتكلم بأداء الفعل إلى مصلحة المستمع أعظم من قصده إلى مصلحته، وأن يكون متعاوناً معه، فإن إبانته عن مقصده لم تبلغ الوضوح. من ثم كانت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي.

(د) في هذه الحالة يُعرض المتكلم الموقف الاتصالي للبس؛ وذلك بأن يلتبس من المستمع أداء فعل أعرب المستمع عن رغبته في أن يؤديه من قبل :

المستمع إلى المتكلم : يمكنني أن آخذ هذه الآلة إلى الدور الأرضي

المتكلم إلى المستمع : بل. من فضلك خذها إلى الدور الأرضي

يعطي التماس المتكلم انطباعاً بأنه أساء التحكم على معرفة المستمع بالعالم وعلى ذكائه. يرى وايت أن ما رغب المتكلم في أدائه، كان من أجل إثبات قدرة المستمع على أن يأخذ الآلة إلى الدور الأرضي. ويتوقع هنا أن يقول المتكلم الأصلي :

♦ بلى، يمكنك أن تأخذها إلى الدور الأرضي.

♦ بلى، هذه الآلة تنزل إلى الدور الأرضي.

♦ بلى، يمكنك.

إن استعمال المتكلم الأمر في صيغة «من فضلك» قد عرض الموقف للبس لا الإيضاح. من ثم عُدَّت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي^(١١).
(هـ) لم يكن الموقف الاتصالي السابق موقفاً علنياً؛ لأنه ضم شخصين اثنين فقط ولم تكن هناك أطراف أخرى. في هذا الموقف يبدو الفشل اللغوي التداولي في هيئة ارتباك. يقدم المتكلم - وهو رئيس الجلسة - ضيفه في مؤتمر أو في حلقة بحث قائلاً:

♦ الأستاذ س، من فضلك ابدأ كلامك!

يبدو الفشل اللغوي التداولي هنا في التماس المقدم من ضيفه أن يبدأ كلامه في الوقت الذي لا يصلح فيه مع مثل هذا الحدث اللغوي أن يكون التماساً أو إصدار تعليمات. إنه حدث دعوة؛ لأن المتكلم يدعو ضيفه - على نحو رسمي - إلى أن يأخذ دوره ليس الاكتماس ولا إصدار تعليم الحدث اللغوي المناسب لأداء هذه الوظيفة. هذا نوع من فقدان المناسبة Inappropriateness. يرجع هذا إلى استعمال «من فضلك» في حدث دعوة؛ أي استعمالها في حدث لا يمكن أن تستعمل فيه. يتوقع في مثل هذا الموقف، أن يقول المتكلم المقدم شيئاً نحو:

♦ الآن أود أن أدعو الأستاذ س ليعتدنا عن ...

♦ والآن بعظيم السرور أدعو الأستاذ س إلى أن يبدأ كلامه عن ...

♦ الأستاذ س، يسمحني سعادة بالغة أن نمتثل حلقة البحث ببحثكم عن أساء المتكلم المقدم استعمال «من فضلك»؛ لأنه لم يحقق الموازنة بين مقصده وتأثير كلاماته. وإذا كان يرى في استعماله «من فضلك» نوع تاديب، فإن المستمعين يرون في ذلك نوع تكلف أو مصانعة^(١٢).

لم يكن استعمال «من فضلك» فيما سبق موائماً أنواع الأحداث اللغوية في تلك المواقف الاتصالية.

(١١) ليرجع لسان ص ١٩٨.

(١٢) ليرجع لسان ص ١٩٩.

لم يحقق المتكلم الموازنة بين مقصده وصوغ منطوقه. فكان أداء الفعل المشار إليه في منطوق المتكلم لصلحة المستمع لا المتكلم، على رغم أن المنطوق الذي يأخذ صيغة الالتماس، تعود الصلحة فيه إلى المتكلم. وإذا كان المستمع قادراً - في تلك المواقف - على تفسير مقصد المتكلم وأنه قصد أداء فعل بعينه، فإنه لا يمكن تجاهل أثر فقدان الموازنة في خلق شعور التوتر والاضطراب في نفس المستمع، وربما أدى إلى سخطه وتكدير صفو علاقته الخطابية بالمتكلم.

ينبغي ما تقدم إلى حقيقة جوهرية: هي وجوب العناية بالاستعمال الاتصالي للصيغة اللغوية، لا الوقوف عند الصيغة في ذاتها. لا يكفي هنا مثلاً أن نعلم المتعلمين أن من فضلك علامة تأدب، أو أن أفعلًا مثل «يمكن» ويفدرو ونحوها مما يستخدم لتخفيف المعنى، أو أن هناك عبارات موروثة ليسط العلاقات الاجتماعية في مناسبات خاصة. ليست لهذه المعرفة اللغوية في ذاتها أهمية، وإنما ينبغي أن تختبر من خلال المقام. ويتضمن الأخذ بالمقام Contextualization إدراك الشروط التي تستخدم فيها مثل تلك التلمييزات لبناء التفاعل وتنظيمه وتوجيهه.

(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإنشاد :

رأينا أن الكفاية الاتصالية هي القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يوائم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال. ولا تبني الكفاية الاتصالية على أساس مكونات المعرفة النحوية فحسب، ولكنها تبني أيضاً على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية. ويكتسب الناس آليات تمكن من تحقيق قوانين الخطاب، ويجرون على منحنى أعراف تصنع خلفيات سلوكهم اللغوي. من ثم، عد الخروج على ذلك كله فشلاً لغوياً تداولياً.

من أعراف الخطاب في المجتمع العربي مثلاً، ألا تخاطب الملوك بأسمائهم أعزاً لها؛ يقول ابن جني: «وذلك أن أصغر الناس قدراً قد يخاطب أكبر الملوك محلاً بالكفاف من غير احتشام منه، ولا إنكار عليه. وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير: قد خاطبت ذلك الرجل، واشترت تينك

الفرسيين، ونطرت إلى ذئك الفلامين، فيخاطب صاحب الأكبر بالكاف، وليس الكلام شعرا فتحتمل له جراءة الخطاب فيه، كقولهِ: لقينا بك الأسد، وسألنا منك البحر، وأنت السيد القادر، ونحو ذلك وعلة جواز ذلك عندي أنه إنما لم يخاطب الملوك بأسمائها إعظاما لها؛ إذ كان الاسم دليل المعنى، وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذلك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجاهوا وتجانفوا عن ابتدال أسمائهم التي هي شواهدهم، وأدلة عليهم، إلى الكناية بلفظ القبيّة، فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوه، ونسأله حرس الله ملهه، ونحو ذلك، وتحاموا: إن رأيت، ونحن نسألك، لما ذكرناه^(١).

تشهد مصادر نقد الشعر العربية على أن نقاد الشعر العربي، قد فطنوا إلى اعتبارات ومعايير اتصالية تداولية مهمة، ينبغي للخطاب الشعري - لاسيما في مواقف الإنشاد العلنية - أن يراعيها، وإلا سقط الشاعر ضحية فشله اللغوي الاتصالي الاجتماعي مهما كانت كفايته اللغوية الخالصة. من علل حسن الشعر وقبول الفهم إياه عند ابن طباطبا (ت ٢٢٢هـ): «موافقته للحال التي يعد معناه لها؛ كالممدح في حال المفاخرة، وحضور من يكتب بإنشاده من الأعداء، ومن يسرّبه من الأولياء»^(٢). ويبدو مبحث (مفتح الشعر) عنده مثالا دالا على سبق نقاد العرب المتقدمين إلى الوعي بدور المعايير الاتصالية التداولية في تقويم الوظائف الاجتماعية والجمالية للخطاب الشعري وما قاله ابن طباطبا ترك صداه بين النقاد ومؤرخي الأدب بعده، فنقلوا عنه، وجمّلوا ملحوظاته من محددات التمايز في صناعة الشعر. من هؤلاء مثلا أبو عبد الله المرزباني (ت ٤٨١هـ)^(٣) وأبو هلال العسكري (ت بعد عام ٤٠٠هـ)^(٤). يذكر هؤلاء الثلاثة: ابن طباطبا والمرزباني وأبو هلال العسكري طائفة

(١) الخصص، تحقيق محمد علي النحل ١٨٨/٢.

(٢) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد أحمد): معيار الشعر، شرح وتعليق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٦٢.

(٣) نظير المروزي (أبو عبد الله محمد بن عمار بن موسى) الموضح، تحقيق علي محمد الحايي، دار الفكر العربي - القاهرة، د ت ٢٠١٢ وما بعدها.

(٤) نظير العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله)، كتاب الصائين، تحقيق علي محمد الحايي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية - بيروت (١٤٠٠هـ - ١٩٨٦) ص ٤٣١ وما بعدها.

من مطالع قصائد الدح ونحوها. هذه المطالع التي لم يحتز فيها أصحابها مما يستجنى من الكلام والمخاطبات. ويمكن أن نعيد تصنيف تلك المطالع في إطار ما ترتبط به من عوامل الموقف الاتصالي، على النحو التالي :

١- مراعاة مكان الاتصال :

والمكان هنا بمعنى الاجتماع الاجتماعي لا الإقليمي. نغنى هنا الأماكن الاجتماعية: كالمكتب؛ والشارع، والبلاط الملكي، ونحوها. ينبغي لنا هنا أن نعرف إن كان المكان اختير اختياراً عشوائياً أو اختياراً عن قصد، وإن كان محايداً أم خاصاً، وما قد يرتبط بذلك من أهميته الاجتماعية عند أطراف الموقف الاتصالي وعلاقته بموضوع الكلام.

من ذلك مثلاً ما يروى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه، وجمع الناس من أهله وأصحابه. وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج، وجعل سريرته في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة المنقاه، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة. وفي الإيوان أسرة ابنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رثبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم^(١).

في مثل هذا المكان وملابساته يقبل أن تطرح موضوعات بعينها في كميّات خاصة، كما ينبغي تجنب الكلام في موضوعات أخرى مهما أوتى المتكلم من علم بالملل. في هذه الحال لا يليق أن يجمل إسحاق بن إبراهيم مطلع قصيدته هكذا :

يا دار غيّرك الهلّس فمحاك يا لهيت شمري ما الذي أهلك؟

عندما ينشد مثل هذا المطلع في مكان هذه صفته، لن يكون تفاعل الحضور معه إلا أن تطير المعتصم، وتفاخر الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك^(٢). قال أبو محمد أحد من شهد

(١) المرجع السابق ١٣٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٢ .

اليوم: «هأقمتنا يوماً هذا». وانصرفنا. فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المتصمم إلى سر من رأى. وخرب القصر^(١) وكذلك كانت وجوه التفاعل مع مبادئ قصائد أخرى: كابتداء قول الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال وموالي وهل تردّ موالى
دمنة قفزة تماورها الصب ف بريحين من صبا وشمال
وقول أبي نواس:

أرى البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنسى لم أخلك ودادى
فقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي قوله. وتعلّط منه. فلما انتهى أبو نواس إلى قوله:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتُم بنى برمك من رائحين وغادى
استحكم تطيره. يقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة^(٢).
٢- مراعاة حال المخاطب:

وذلك لا بكل ما له بالخطاب علاقة: ككاسمه أو اسم أحد من أهله، وعمره وخلقه وخلقته وعمله، والوضع الذي يكون عليه المخاطب: جسمانياً كان أم نفسياً أم عقلياً. من الأمثلة على ذلك ما روى أن أوطاة بن سُهَيْب المرمى دخل على عبد الملك بن مروان، وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة وقال بعضهم ثلاثون ومائة سنة، فقال له عبد الملك: ما بقى من شعرك يا ابن سُهَيْب؟ فقال: والله ما أشرب، ولا أطرب، ولا أغضب، ولا يجن الشعر إلا على مثل هذه الحال. وقال بعضهم: إلا مع إحدى هذه الخلال - وإنى على ذلك للذي أقول:

رايت المرء تأكله الليالي كما كسل الأرض ساقطة
وما تبغى المنية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها مستكبر حتى توفى نذرها باهى الوليد

وسكان أوطاة يكنى أبا الوليد، فارتاع عبد الملك، وسكان أيضاً يكنى بابى الوليد، واشتد عليه، وتغير وجهه، وظن أنه يمنية. فقال: لا ترع يا أمير المؤمنين! إنى لم أعنك وإنما عنيت نفسي: أنا أبو الوليد. فقال عبد الملك:

(١) المرجع لسائر ص ١٢١

(٢) حاشيئة ص ١٢٦ - ١٢٧ وفرد نصائح ص ١٣١

وإياي والله لتوفين بي بذرها^(١). وفي عيار الشعر: «فقال له عبد الملك: ما تقول
تسكتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين. وكان عبد الملك يسكني
أبا الوليد أيضا، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن
مات^(٢)». ودخل المصور العنزي على زياد، فقال له زياد: أنشدنا. فقال: من؟
من؟ قال: من شعر الأعشى. فأرتج عليه إلا قوله:

رحلت سمية غداة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدالها ؟

قال المصور العنزي: فقطب زياد، وعرفت ما وقعت فيه^(٣). وما وقع فيه
العنزي أنه أنشد زيادا بيتا كان فيه اسم أمه «سمية»، على رغم أنه من شعر
غيره (وعن أبي نصر أحمد بن حاتم، قال: بلغني أن الفرزدق دخل على عبد
الملك ابن مروان، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال:
ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة. قال: ثم دخل عليه جرير بعد
ذلك، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: ثم من؟
قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة. فأحب عبد الملك أن يراء لقولهما،
فوجه إليه، فجن به. فقال: أنشدني أجود شعرك، فأنشده:

ما بال عينك منها الماء مكانه من كل مفرقة سرى

قال: وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء. قال: فغضب عليه ونفاه. فقيل
له: ويحك! إنما دهاك عنده قولك:

ما بال عينك منها الماء ينمى

فأقلب كلامك. قال: فصبر حتى دخل الثانية. فقيل له: أنشده، فأنشد:

ما بال عيني منها الماء ينمى

حتى أتى على آخرها، فأجازته وأكرمته^(٤).

وأحسب أن الكلام - على رغم قلبه - مازال يلح في موقف اتصاله
إنشادي عني إلى علة المندوح. وربما كانت الزيادة عن قلب الكلام من وضع
الرواة. وعن محمد بن يزيد النحوي قال: حدثت في إسناد متصل أن أبا النجم
المجالي أنشد هشاما:

(١) الموضع من ٢٠٥

(٢) ميل قسمر من ١٢٨

(٣) الموضع من ٣٠٢

(٤) الموضع من ٣٠٣-٣٠٤

والشمس قد صارت كشمس الأحول

وزهب عنه الروي في الفكر في عين هشام . فأغضبه فأمر به فطرد^(١).

٣- العلاقة بين أطراف الاتصال :

وهي تضم عناصر عدة مثل درجة التعارف وتوزيع الأدوار أو الأدوار المتوقعة. المهنة والمكانة من أهم المحددات الاجتماعية للمشاركين في عملية الإنتاج اللغوي. تعين هذه المحددات حقوقهم وواجباتهم وامتيازاتهم ويرى ديتمار Dittmar أن محددات اجتماعية مثل الاحترام ، أو الألفة ، أو الكراهية ، أو غيرها مما يشخص العلاقة بين المتكلمين ، تعد عوامل حاسمة في تحديد السلوك اللغوي (صبيغ التأديب ، واستعمال اللغة المعيارية في مقابل اللهجة)^(٢). ومن طريف ما يذكره سالزمان Salzmann أن النوق اللغوي عند الجاويين يجعل الجملة الواحدة تسمح في ستة مستويات كلامية مختلفة وفقا للعلاقة الاجتماعية بين المتكلمين ووفقا لعوامل أخرى ترتبط بمن يأخذ جانباً في الحوار^(٣). لم تراع جوانب هذه العلاقة في بعض حالات إنشاد الشعراء ممدوحهم؛ من ذلك ما يرويه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي، قال: لما أنشد جرير عبد الملك :

أصبحو بل فؤادك غير صاح

قال: بل فؤادك يا ابن اللغناء^(٤). معلوم أن مواقف الإنشاد ليست مواقف الصالية حقيقية على النحو الذي تتبادل فيه الأطراف الرأي والحوار. وعلى رغم ذلك وقع الشاعر في خطر غفلته عن تحري ما يلزم الخطاب به في موقف إنشادي علني؛ لأن خطابه سينصرف إلى ممدوحه وإن كان في أصله من خطاب الشاعر نفسه. هذا ما نجده في الحالات السابقة، كما نجده في مثل إنشاد الأخطل عبد الملك :

خف القطلين فراحوا منك أو بكروا

(١) المرجع ص ٢٠١

(٢) Dittmar, op. cit., p 165.

(٣) Salzmann, op. cit. p 181

(٤) المرجع ص ٢٠١

قال عبد الملك: بل منك. لا أتم لك. وتطير عبد الملك من قوله. معاد فقال:
...فراحوا اليوم أو بكرؤا^(١).

ومن ذلك أيضا إنشاد البحري أبا سعيد محمد بن يوسف الثوري قصيدته التي أولها :

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حيّ تزم أباعره
فقال له أبو سعيد: الويل لك والحرب^(٢).

ينبغي للوضع فيما سبق أن يبدو هكذا: شاعر (مادح/ملك) (ممدوح). ويبدو الدور هكذا: (شاعر) ضيف / (ملك) مضيف. الشاعر هو الذي يؤمر به أن يأتي إلى بلاط الملك، ينشده ويمدحه. ووفقا للأعراف المتبعة، ينبغي للشاعر أن يتحلى بالكياسة والأدب. وينبغي أن يحقق لهدفه مزنة أن يطابق سلوكه اللغوي الدور المنتظر منه. أما الوسائل، فربما كانت الانحناءة، أو الاستئذان في الإنشاد، أو هما معا علامات على افتتاح مثل هذا الموقف الاتصالي الإنشادي. ويعقب هذا التعبير اللغوي الذي يناسب الإطار المؤسسي (بلاط الملك) ويناسب توزيع الأدوار (شاعر - ملك).

ومن القوانين اللغوية الاجتماعية التي صارت نمطية في المناهج الأنثروبولوجية، ما يسمى بقوانين التناوب Alternation rules التي تضم - مع أشياء أخرى - مشخصات العلاقة بين المتكلم والمخاطب؛ كمعلاقات الدور والعمر والقرابة. ومن خواص الموقف أن يكون وديا أو رسميا أو غير رسمي ولا تسمح نظم الخطاب اللغوية الاجتماعية مثلا، بأن يوجه المتكلم الشاعر إلى المستمع الملك سؤالا، على نحو ما رأينا في مطلعي ذي الرمة وجريز؛ وذلك أن السؤال - كما يلحظ لافوف Labov - يفسر على أنه التماس للإخبار، الذي يمكن هو الآخر أن يفسر على أنه مطالبة أو مناهضة 'Challenge'^(٣).

تتخذ المواقف الاتصالية الإنشادية السابقة صورة شاعر يمدح وملك يستجيد فهجيز، أو لا يستجيد فلا يجيز. بيد أنها لا تخلو من دلالة على أن

(١) المرح هلن ص ٢٠٢

(٢) مبر النشر ص ١٢٧

(٣) Labov, W., The Study of Language in its Social Context, Snadrum Generale 23

(1) (19970) pp. 30-38, p.83

الشراء أصحاب المطالع المعبية اتصاليا ، لم يراعوا عند إنشائها - على رغم تقديمهم في الطبقة - الفرق الجوهرية بين جماليات فعل النظم التي تحكمها الكفاية اللغوية وجماليات فعل تحول المنظوم إلى خطاب، تلك التي ينبغي للكفاية الاتصالية أن تكون المسؤولة الحقيقية عنها. تعامل هؤلاء الشراء فيما أنشدوا من مطالع بين أيدي الملوك ومن في الحضرة، مع اللغة المحكومة بنظامها، ولم يتعاملوا مع اللغة في وظيفتها الاجتماعية المحكومة بـ استراتيجيات التفاعل من ثم، ظهورا جميعا وقد ذهبت عنهم كفايتهم الاتصالية على رغم ما عرضوا جميعا من كفاية لغوية.

لقد فات الشراء المذكورين المعرفة بأعراف الاتصال. والعرف أملك، كما يقول عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٢هـ)^(١). والأعراف متغيرة موقفها وتاريخها. وهذه فرصة لعمل الذوق. وأحسب أن بيتا في المدح كقول الشاعر :

أنت كالكلب في حفاظك للمهـ
مد وكالتيس في قراع الخطوب

مما لا يرضاه لنفسه في عصرنا ملك يذوق الكلام، مهما كانت الغاية فيه والمقصد! هكذا يظهر المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي تحولا من النظر إلى اللغة بالمنهج العقلاني الذي انحاز إلى وضع نظريات في السكليات اللغوية المجردة التي تحكمها البنية العقلية الموروثة عند الإنسان، مهما تصير اللغة في ضوء حقائق أخرى غير لغوية، إلى النظر إليها في وضعها الواقعي الاستعمالي الذي تتكيف فيه المنطوقات مع وظائفها السباقية الاجتماعية الثقافية الطبيعية. إنه - بالأحرى - تحول منهجي يعكس - فيما نحسب - تحولا أعمق في النظر إلى وظيفة اللسانيات ذاتها على النحو الذي نراه في مثل إشارة دو بوجراند إلى أنه ينبغي للسانيات إذا لم تتلاش بسبب عزلتها من حيث هي حقل للبحث ... أن تصبح علما محوريا للخطاب والاتصال^(٢).

إذا كانت الكفاية اللغوية باللغة، فإن الكفاية الاتصالية طرف منها بالغة وطرفها الآخر - في الوقت نفسه - بسياق الاتصال الذي تستعمل فيه.



(١) الحادي (أحد لفظ من مصر) حرارة أول. - لحظ وشرح عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي.

الطبعة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٣م) ٣٣ / ٦٦

(٢) النص والخطب والإجراء ، ص ٧١

الفصل الثاني
حبك النص
منظورات من التراث العربي

١ - توطئة :

يميز هارتمان Hartmann - في نشأة علم لغة النص - بين سبع مراحل من التطور وضعت معالمه، هي: علم البلاغة وعلم الأسلوب والتأويل والسميائية، وتحليل المضمون، ونظرية أفعال الكلام، والبلاغة الجديدة. أما علم البلاغة - من بينها - فقد تجلت أهميته في تعامله مع اللغة من حيث هي خطاب فعلي، وفي تشكيله أنماط الاتصال المؤثر ومعايره^(١).

في علم البلاغة العربي، تقع مناطق شاسعة للعناية بطرق الإبلاغ المؤثر، فضلاً عن العناية بمعايير البنية المثلى للنص وصناعته. ولكن تظل بين العلمين وجوه للمفارقة. بينما علم البلاغة الغربي كان أول العلوم التي أسهمت في تأسيس هذا العلم اللغوي النصي، لم يطور علم البلاغة العربي علماً جديداً.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصية الحيك Coherence، وتسمى من وراء ذلك إلى استقصاء المبادئ والتصورات التي يمكن لها أن تتخذ مرتكزات لتحليل النص العربي تحليلاً مناسباً، لا يغفل عن خواصه ومعايره البنائية والاتصالية، من حيث إن النص - في المقام الأول - إنتاج بيئته الاجتماعية والحضرية، وهو - في الوقت نفسه - يدل عليها ويمارس فيها وظائفه.

وأحسب أن علم لغة النص وتحليل الخطاب هما أفضل نقطة يلتقي عندها علم البلاغة وعلم اللغة أحدهما بالآخر. من ثم، تأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة على طريق توثيق الصلات بين علم البلاغة وعلم اللغة توثيقاً يفيد منه كلا العلمين؛ وذلك بأن يدفع علم البلاغة علم اللغة إلى تجاوز حدوده التقليدية التي تقتنع بوصف الأنماط البنائية المفردة الصغرى للغة وتحليلها، إلى علم الاتصال والتداولية ونحوها، وبأن يدفع علم اللغة علم البلاغة إلى تجاوز إطاره التقليدي نظاماً من القواعد والمعايير عما يجب في الكلام وما لا يجب، إلى معالجة إشكاليات نصية مهمة من منظور لغوي، مثل: تخطيط النص، واستراتيجيات الإنتاج، واستراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، واختلاف

(١) Hartmann, R. R. K.: Contrastive Textology - Comparative Discourse. Julius Groos Verlag Heidelberg (1980), pp. 10 - 13

نبي النصوص: اختلاف مناتها: ومعرفة صكيفيات تدرج المصمون النصي. ومعرفة نبي النص الصكفية وغيرها. لهذه المحاولة في البلاغة العربية الآن نظائر في البلاغة الأوروبية. أضرب مثالا على ذلك محاولة رولان بارت ROLAND BARTHE في كتابه "قراءة جديدة للبلاغة القديمة" الذي بناء على أساس مصطلحات بنوية وسيميائية⁽¹⁾.

وتتخذ هذه الدراسة من فحوص مفهوم الحيك ومرادفاته في تبصرات التراث العربي وسيلة لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية وتوثيق الصلات بينها في تحليل الخطاب، بعد أن ثبت أن قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، وأنها - كما يقول دكتور تمام حسان - لا تقرب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة⁽²⁾. في هذه التوطئة، ينبغي لنا - قبل الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم في الحيك وتحليلها - أن نعرف: ما الحيك؟ وما موقعه بين معايير النصية؟ وما أهم المفاهيم الأخرى التي ترتبط به عند تحليل بنيتها؟.

كان من أهم ما تمخضت عنه النظرية اللغوية المعاصرة علم لغة النص. وكان من إسهامات علم لغة النص المهمة تحليل ما عرف بمعايير النصية NORMS of Textuality. ومعايير النصية هي المكونات التي تجعل النص كلا موحداً متماسكاً دالاً، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة. هذه المكونات هي: السبك Cohesion والحيك Coherence والقصد Intentionality والقبول Acceptability ورعاية الموقف Situationality، والتناص Intertextuality والإعلامية Informativity.

تتكامل المكونات السبعة السابقة في تحقيق الطبيعة النصية للنص. كانت هذه المكونات الفكرة المركزية في عمل رائد في مجال علم لغة النص: وهو عمل دويوجراند De Beaugrande ودرسler Dressler المسمى: (مدخل إلى علم لغة النص: An Introduction to text linguistics).

في علم اللغة المعاصر جعل الشرط الجوهري للنص أن يكون كلا

(1) ترجمه كتابه معاً في: "نص: مفهوم وأهم" - ١٩٩١.

(2) في: حسان: "مفهوم النص: دراسة لغوية" - ١٩٩١.

موجداً منتظماً في وحدة دلالية، لا تجميعاً محضاً بين جمل يعوزها الترابط الدلالي. سواء في ذلك أن يكون نصاً منطوقاً أم مكتوباً، قصيراً أم طويلاً من أجل ذلك نظر إلى النص بوصفه تصميمياً للمعاني على مستوى أعلى⁽¹⁾. وفي ضوء ذلك أيضاً عرف النص عند هاليداى ورفية حسن بأنه وحدة من التنظيم الدلالي الموقفى: أي أنه استمرارية معنوية أو انتظام للمعاني في السياق، تشيده علاقة الحيك الدلالية⁽²⁾.

يكون السبك والحيك - من بين المعايير السبعة بوجه خاص - ثنائية مفهومية في حقل علم لغة النص وتحليل الخطاب. يربط السبك بين عناصر سطح النص، ويحكم الحيك بين عالمه النصي: أي أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التي تتكون النص بعضها مع بعض وصنع المعنى. السبك والحيك - كما يقرر دويجوراند ودرسلر - أوضح معايير النصية، وإن كانا لا يمكن لهما أن يقدموا فواصل مطلقة بين النصوص وغير النصوص في الاتصال الفعلي⁽³⁾. يجعل علماء لغة النص للحيك أهمية خاصة. الحيك عند كلاوس برنكر Klaus Brinker هو المفهوم النواة في تعريف النص، وهو يقع عنده في مركز علم لغة النص الموجه إلى النظام اللغوي⁽⁴⁾.

ويرى كل من هاينمن Heinemann وفيغيجر Viehweger أن وحدة النص Texteinheitlichkeit لا تقاس بظواهر سطحية؛ ولكنها تقاس بالبحث عنها في البنية الدلالية الأسس Semantische Basisstruktur التي تكشف عنها المسائل الدلالية الكبرى للابنية المركبة والحيك النصي⁽⁵⁾.

يرجع المفهوم Coherence في الإنجليزية أو Kohärenz في الألمانية إلى

(1) Halliday, M. A. K. Language as Social Semiotic. Edward Arnold London (1993) p.137

(2) Halliday, M. A. K. - Hasan Ruqaily: Cohesion in English. Longman, London - New York (1983) p. 25

(3) De Beaugrande, R. - A. / Dressler, W. U. Introduction to Text - Linguistics. Longman, London - New York, (1983) p. 113.

(4) Brinker, Klaus Textbegriff in der heutigen Linguistik in: Studien zur Texttheorie und zur deutschen Grammatik. Dusseldorf (1973) SS 9-41, S.13

(5) Heinemann, W. - Viehweger, D.: Textlinguistik. Eine Einführung. Max Niemeyer Verlag (1991) S 49

العمل اللاتيني Gohaerentia. وهو مستعار من علم الحكيمياء. عرف هذا اليوم في علم اللغة النصي وتحليل الخطاب حدودا عدة. يحده سوفنسكي Sowiński بقوله: "يقضى للجمل والمنطوقات بأنها محبوسة، إذا اتصلت بمضامينات فيها ببعض، في إطار نصي أو موقف اتصالي، اتصالا لا يشعر معه القارئ أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"⁽¹⁾ ويحده ليفانوي Lewandowski بقوله: "ليس الحيك محض خاصة من خواص النص، بل هو أيضا حصة اعتبارات معرفية (بنائية) عند المستمعين أو القراء".

الحيك حصة تعمل دلالي Bedeutungsaktualisierung، ينهض على ترابط ضروري بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أنها شبكة دلالية مختزنة، يتناولها النص غالبا على شكل الشكل؛ فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحيك الضروري أو يتفهمه⁽²⁾.

ويلخص ليفانوفسكي زوايا النظر إلى الحيك في علم اللغة النصي فيما يلي:

- ١- الحيك من حيث هو الشرط اللغوي لفهم السبك فهم أعمق.
- الحيك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو ما يسمى بالارتباط المرجعي أو الإشاري Referentiell.
- ٢- الحيك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتصالي الاجتماعي.
- ٣- الحيك من حيث هو إجراء ومن حيث هو حصة التلقي الابتكاري البناء⁽³⁾.

تدل الحدود السابقة مع غيرها على أن الحيك في جوهره تنظيم مضمون النص تنظيمًا دلاليًا منطقيًا. تسلسل المعاني والمفاهيم والقضايا على نحو منطقي مترابط هو أس حيك النص. والنص الذي يوصف بأنه لا معنى له، هو

(1) Sowiński, Bernhard: Textlinguistik, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart - Berlin - Köln - Mainz (1983) S. 83.

(2) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Wörterbuch, Quelle u. Meuer, 6 Auflage, Heidelberg - Wiesbaden (1994) S. 546.

(3) Lewandowski, op. cit, SS. 546-47.

النص الذي لا يستطيع مستقبلوه أن يمشروا فيه علي مثل هذا التسلسل. إذا كانت وسائل السبك هي الإحالة Reference، والاستبدال Substitution والحذف Ellipsis، والوصل Conjunction، والسبك المعجمي Lexical Cohesion فإن وسائل الحبكة - فيما ذكره دويجراند - تشتمل علي ما يلي :

العناصر المنطقية: كالمسببية، والمعموم، والخصوص class inclusion.

١- معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، والموضوعات، والمواقف.

٢- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. ويدعم الحبكة (عند المترجم الاتعاض) بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم^(١).

تعييد بالحبكة إلى نظرية النص شبكة من المفاهيم النظرية التي تمكن من تحليل بنيته تحليلًا متكاملًا. من أهم هذه المفاهيم :

١- مفهوم "الحبكة الطولي أو المتدرج Linear or Sequential Coherence" إلى مقابل مفهوم "الحبكة الشامل أو الكلّي Global or Overall Coherence". ينتج الحبكة الطولي بين ما تعبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا. هذا النوع من القضايا Propositions هو الذي ينتج عنه ما يسمى ببني النص الصغرى. أما البني الدلالية الأشمل والتي لا تشخص تشخيصاً مباشراً عن طريق العلاقات بين قضايا مفردة ، بل تشخص إلى حدود ما تجريه علي تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهي البني التي تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلّيّة التي تكون ما يسمى ببني النص الكبرى^(٢).

٢- مفهوم "علاقات الحبكة Coherence Relations"، ونذكر لها الأنواع التالية:

(١) وحدة المرجع Referential Identity، وهو يمثل إحدى علاقات الحبكة بين الذوات وخلاصته أن الموضوعات وحدات إلى قضايا مختلفة، يمكن أن يكون لها الذات نفسها، والقيمة ذاتها. ويمكن أن يشار إلى الذات الواحدة

(١) دويجراند - روبرت : نص الخطاب والإجراء ، ترجمة د . عام حسان . عالم الكتب - القاهرة : (١٩٩٨) ط ١ ص ١٠٣

(٢) Van Dijk, Teun, A: Text and Context, Longman - London - New York (1980) p.95.

بواسطة ما يسمى بقوانين الاستدلال Rules of Inference، أو القوانين والإجراءات التي تحدد على مستوى التداولية، أو أن تحدد بواسطة النظرية المعرفية^(١).

ويرتبط مفهوم "الحلقات المفقودة" عند فان دايلك بمفهومين آخرين عند "ودوسون Widdowson": أحدهما "أعراف الحيك Conventions of Coherence" والآخر ما يسميه بالرابطة الإنجازية Illocutionary Link. خلاصة المفهوم الأول أننا نربط ما يقال بما نعرف، وأن قدرنا من القدرة على الاستدلال يزول إلى تقاليد وأعراف مرتبطة بنوع الخطاب. نحن نتعلم مثلا أن المكاتبات الإدارية ذات صيغة بعينها، وأن الممثلين يكتبون تقاريرهم على نحو بعينه، وهكذا يصون الخطاب محبوبا على قدر إدراكنا إياه من حيث هو تمثيل لاستعمال لغوي عادي، وهو محبوبك على قدر قبولنا الأحداث الإنجازية بوصفها خاضعة للأعراف السائدة في هذا النوع أو ذاك من أنواع الخطاب. يخلص "ودوسون" إلى القول "بأن الحيك يقاس بمدى خضوع حالة بعينها من حالات الاستعمال اللغوي للمعرفة المشتركة بالأعراف وبكيفية ارتباط الأحداث الإنجازية لتكوين وحدات أكبر من الخطاب، من أنواع مختلفة. إذا قابلتنا قطعة من اللغة، أمكننا الحكم بكيفية حيكها وصفا، أو تقريراً تقنيا، أو مذكرة قانونية... الخ"^(٢).

أما المفهوم الثاني، فهو ما يسميه ودوسون باسم "الرابطة الإنجازية" Illocutionary Link في بيان هذا المفهوم يضرب مثلا بالمبادلة الكلامية التالية:

١ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : جئت لتوى !

نجعل لما سبق معني بتركيز انتباهنا على الأفعال الإنجازية التي استخدمت القضايا الإنجازية. نحن نصنع موقفا في عقولنا، يزودنا برباطة إنجازية بين المتطوقين. وينبغي لنا أن نتخيل موقفا يشهد - على سبيل المثال - نوع شغب أحاط برجال الشرطة، وشد انتباه المارة. إنه جمع متزاحم، يسأل

(١) Text and Context, op. cit., p. 9

(٢) Widdowson, H. G. Teaching Language as Communication. Oxford Univ Press (1994) p. 44

فيه المشاهد (أ) المشاهد الآخر (ب) عما حدث بمسّر منطوق (ب) الآن على أنه كشف عن محزه عن الإجابة عن سؤال (أ) إنه لا يقدر على أن يعدنا بالمعلومة المطلوبة: لأنه حضر لتوه. يمكننا - إذ ذاك - أن نأتي بالرابطة القضية المنقودة على النحو التالي :

١ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : (لا أعرف ما فعله رجال الشرطة لأنني) جئت لتوي (١).

يريد ودوسون أن يصل من هذا إلى الأمرين التاليين :

١ - يوجد السبك حيثما توجد علاقة قضية Propositional Relationship

بين الجمل- السبك إذن علاقة صريحة بين قضايا تمر عنها الجمل.

٢ - يوجد الحبك حيثما توجد علاقة بين الأفعال الإنجازية التي تتجزأ للقضايا (والتي لا يرتبط بعضها ببعض دائماً ارتباطاً صريحاً).

في ضوء ما سبق، نرى تلك المبادلة مبادلة محبوبكة غير مسبوكة. أما المبادلتان التاليتان - في مقابل ذلك - فهما مسبوكتان محبوبكتان :

١ / ١ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : ألقي القبض على المتظاهرين.

١ / ٢ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : ألقي الظالمون القبض على المتظاهرين

ولكن المبادلة رقم ١ أقوى تماسكاً من رقم ٢؛ وذلك لتطابق المرجع بين أ و ب، في الوقت الذي قوبل فيه "رجال الشرطة" في رقم ٢ ب "الظالمون" في الإجابة. "الظالمون" في الإجابة إحالة إلى متقدم، مما يسمح بتأسيس رابطة دلالية بين "رجال الشرطة" و "الظالمون".

على أي حال، نرى في المبادلتين الأخيرتين علامات شكلية تساعد على اكتشاف الرابطة القضية بين أ و ب في كل منهما. بينما الصلات واقعة عبر الجمل في المبادلتين الأخيرتين. لا نرى صلة بين أ و ب في المبادلة الأولى. بناء على ما سبق، يمكننا القول بأننا نستطيع الاستدلال على الأفعال الإنجازية من الروابط القضية التي أشير إليها إشارة صريحة. وفي حال الحبك

سنطبع الاستدلال على الروابط القصوية الصميمة من خلال تفسير الأفعال الإنجازية^(١).

تدور المفاهيم الثلاثة الأخيرة "الحلقات المفقودة" و "أعراف الحيك" و "الرابعة الإنجازية" حول أثر الاعتبارات التداولية في وسم الخطاب بالحيك وإن غاب عنه السبك. تبدو الاعتبارات التداولية في "الاستدلال" على نحو ما رأينا تبدو أيضا في العلاقة بين المنطوق ووظيفته في سياق بعينه، فكان يخرج المنطوق "هناك شخص بالباب" عن وظيفة الإخبار إلى التحذير أو طلب فتح الباب، في مبادلة مثل :

أ : هناك شخص بالباب.

ب : أنا مشغول

أ : طيب

تكون المنطوقات الثلاثة خطاباً محبوباً، إذا نظرنا إليها من حيث هي أفعال إنجازية. يساعد هذا الفهم للعلاقات بين المنطوقات على تزويد المبادلة السابقة بالروابط القصوية المفقودة والتي تعيد إليها خاصية السبك :

أ : هناك شخص بالباب (هل يمكن أن تفتحه؟).

ب : (لا، لا يمكنني أن أفتحه، ف) أنا مشغول

أ : طيب (سأفتحه أنا).

قدم علماء اللغة الاجتماعيون - في عنايتهم بمظهر التفاعل الاجتماعي من استعمال اللغة - وصفا مفيدا في هذا المجال للكيفية التي تترايط بها المنطوقات. يرهن Labov على أن هناك ما يسمى بـ "قوانين التفسير" التي تربط ما يقال بما يفعل على أساس هذه القوانين الاجتماعية - لا اللغوية - تقسم بعض السلاسل الحوارية بأنها محبوبكة. معرفة الحيك أو عدم الحيك في السلاسل الحوارية لا يعتمد - عند لايف - على العلاقة بين المنطوقات، ولكنه يعتمد على العلاقة بين الأفعال Actions التي تؤديها المنطوقات^(٢).

(١) Teaching Language, op cit pp 2F - 29

(٢) Brown, Gillian - Yule, George Discourse Analysis, Cambridge U'n. - press (1984) p. 226

مختص من المفاهيم الثلاثة الأخيرة إلى المسائل المهمة التالية
الحلقات المفقودة قصصاً ثم يصرح بها الخطاب، وتكثف حسماً بها
لديها في توفير الحيك للخطاب. ونحن نصل إلى تلك الحلقات عن طريق
الاستدلال أو معرفتنا بالعالم.

يخضع معيار الحيك للمعرفة المشتركة بكيفية ارتباط الأفعال الإنجارية
بعضها ببعض والأعراف السائدة في جنس بعينه من أجناس الخطاب :
كان يكون تقريراً أو مذكرة أو مكانية إدارية . . الخ.
ينتهي للخطاب أن يكون مسبوكاً مسبوكاً، ولكنه قد يكون
مضبوكاً غير مسبوك. إذا وجدت علاقة قسوية بين الجمل كان
الخطاب مسبوكاً، وإذا وجدت علاقة بين الأفعال الإنجارية كان
مضبوكاً.

- الحيك عند أصحاب نظرية أفعال الكلام وعلماء اللغة الاجتماعيين
علاقة بين الأفعال وليس علاقة بين المنطوقات وهذا ما يستتبع حقا من
المبادلات الكلامية الطبيعية.

- الحيك عند القدماء : إشارات عامة :

دل القدماء على " النص " بأشكاله التي يتبدى فيها تحقيقه؛ كالقصيدة
والخطبة والرسالة ونحوها، ولم يألوا - في تطيراتهم - جمع تلك التحققات
مفهوم " النص " البنائي. بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين قد أتيح
لهم - على رغم ذلك - أن يلاحظوا لتلك التحققات مقومات " نصية " جوهرية
المشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها من مقومات نصية بنائية جوهرية
خاصة؛ مثل تلك التي تفرق بين قصيدة ورسالة، أو بين رسالة وخطبة . . الخ.
كان الحيك من أهم تلك المقومات النصية المشتركة التي وقف عليها
اللسانيون البلاغيون منذ القرن الثالث الهجري. فضلا عن مفهوم الحيك نرى
في مصادر التراث البلاغي مفاهيم أخرى ارتبطت بسياقاتها اللغوية في الدلالة
على ما يدل عليه الحيك أو على شيء مما يدل عليه؛ كالاتصال، والامتزاج،
والانتماء، والاتحام، والتلاحم، والاتساق، والاتلاف، والافتراق، والارتباط،
واللامعة، والمناسبة، والتناسب وغيرها لعل الالتحام أقرب هذه المفاهيم إلى
معنى الحيك المجمع؛ فالحيك شد وإحكام. ولعل الالتحام والتناسب
الاتساق أدس إلى مجال اختصاص الحيك المعنوي وأنها عن الالتباس

الإشارة إلى حيزية في كلام ابن نوحاً تمكس وعمر مستجر النصوص أنفسهم بأن إنتاج النص قدرة على التصديق، يظهرها المتكلم تجاه الملامات والظروف التي يشج فيها نصاً، والتي يحاول فيها أن يجعل هذا النص مفهوماً، من خلال التخطيط وتسلسل المعلومات على نحو منطقي.

(ب) وقد ذم ابن قتيبة (ت ٢٦٧هـ) التكلف في الشعر، وجعل من التكلف في الشعر عنده أن ترى البهت مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لافقه^(١). تخصيص الكلام عن الشعر هنا راجع إلى الجنس الذي يقوم عليه عمل ابن قتيبة فحسبه وما ذكره هنا عن الشعر يسرى على شتى أجناس القول بالطبع؛ إذ لا تصور مجاورة حقيقية بين المنطوقات من غير أن تتحقق بينها علاقة دلالية ما.

(ج) وقال ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ): "وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبضه، فيلازم بينها لتنظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدا وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه، ... ويتفقد كل مصراع: هل يشاكل ما قبله؛ فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه"^(٢).

انتظام المعاني واتصال الكلام في إشارة ابن طباطبا السابقة أمور ينبغي لها أن تقم في ضوء مبدأ الاستمرارية المعنوية التي توفر للخطاب حبساً طويلاً هو نواة أبيته الصغرى، كما توفر له حبساً كلياً هو نواة أبيته الكبرى اتصال الكلام وانتظام المعاني يؤيدان بالضرورة إلى المشاكسة بين أجزاء القول. لما كانت المشكلة مما يحوج إلى دقة نظر ولطف فهم، فقد غاب عن قراء الكلام ما لم ينب عن أصحابه. في ضوء مبدأ الانتظام المعنوي والاتصال الكلامي يمكن أن ننظر إلى ما وقع فيه الخلل من الشعر بين الرواة نظراً مشابهة بين "نص الشاعر" و"نص الراوي". ربما كان الكلام في "نص الراوي" متشاكلاً، ولكنه في "نص الشاعر" أشكل وأدخل في استواء

(١) نص قتيبة (ابن محمد الدهري) شعر ولشعر ٥٥ بيروت (١٩٦١ م) ١١٤-١١٥

(٢) ابن خلدون (ابن محمد بن أحمد) طب الشعر، تحقيق الدكتور عبد الحليم بن محمد، مكتبة جامعة القاهرة، د ٢٠٩

نسخ. يذكر ابن طباطبا أن البيتين التاليين قد رويَا لأمريء القيس هكذا :

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أبطن كعابها ذات خلخال

ولم أسبأ النقي الروي ولم أقل لخلي لي كرى كرى بعد إجمال

هكذا الرواية . قال ابن طباطبا : * وهما بيتان حسان . ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر ، كان أشكل وأدخل في استواء النسخ ، فكان يروى :

كأنني لم أركب جواداً ، ولم أقل لخلي لي كرى كرى بعد إجمال

ولم أسبأ النقي الروي للذة ولم أبطن كعابها ذات خلخال^(١)

يقضي مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام أن يكون نص الشاعر هو المتمتع بالمشاكلة؛ وذلك أن ركوب جواده في المصراع الأول يشاكله أمر خيله بالكر في المصراع الثاني. الكلام هكذا متصل، والمعاني هكذا منتظمة. وهذا مادي ولطف على الراوي، فلم يفتن إليه في نص روايته. نص الشاعر ونص الراوي مقابلة بين نص مسبوك محبوبك ونص مسبوك فحسب. ويذكر ابن طباطبا آياتاً أخرى رويت وقد خلت من المشاكلة، من ذلك قول طرفة :

ولست بحلال التلاع مغافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

قال ابن طباطبا : * فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول *^(٢). ينبغي للكلام بعد الاستدراك ب (لكن) أن يأخذ بسبب بما قبله. الأخرى - في التعليق - أن يقابل المثبت بعد (لكن) النفي قبلها، لم يقع هذا في البيت في مثل هذه الرواية فسد السبك والحبك جميعاً، ومن ثم خلت من المشاكلة.

(د) وقال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) : * ينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أولاً بآخره، ومطابقاً هاديه لمجزئه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتناثر أطرافه، وتكون الكلمة منه موضوعة مع اختها، ومقرونة بلفظها . ومثال

(١) ص ١٠٩ - ١٠٠

(٢) ص ١٠٩

في ذلك من الحلال الثلاثة الأخير، غير المشاعير الثلاثة، فقال أخت عمرو بن

فأقسم يا عمرو لو نبهالك إذا نبها منك داء عضنالا
إذا نبها لنبث عريضة مقيتاً مفهداً نفوساً ومالا
وغرق تجاوزت مجهولة بوجناء حرف تشكى الكلام
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلال

فجعلت الشمس بالنهار، والهلال بالليل وقالت: مقيتاً مفهداً، ثم فسرت
قالت: نفوساً ومالا^(١).

في كلام أبي هلال ما يفيد وعيه بتناسق حقول الدلالة بين أجزاء
الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب
مبكراً، وهي علاقة التفسير، تفسير المجلد، ومازلنا نرى في إشارته إلى اشتباه
في الكلام بآخره، ومطابقة هوائيه لأعجازه ما يحميها بمبدأ انتظام انماني
اتصال الكلام عند ابن طباطبا.

حمل أبو هلال - في نصه السابق - الاشتباه والمطابقة وتلازم الأحزاء
موراً واجبة في صنعة الكلام. في موضع آخر، أوجب أبو هلال في صنعة
الكلام شروطاً يجعلها في:

❖ تخير الألفاظ على ما يوجب التمام الكلام.

❖ أن يكون موقع الكلام في الإطناب والإيجاز البين بموقعه، وأحق
بالمقام والحال^(٢).

الشرط الأول من أحسن نموت الكلام.

والثاني يجعل الكلام جامعاً الحسن.

أما الشرط الثالث، فهو:

(١) العسكري (أو هلال الخضر) من عبد الله بن سهل، كتاب تصانيفه، تحقيق طه محمد الحارثي ومحمد أبي
تفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١ (١٣٩١ هـ - ١٩٥٢ م)، ص ١٢١ - ١٢٢، ولغزى شكري
أحمد وأصبح ويبره حرق الأرض لحيمة وأعمالاً لواسطة الوعد، نسخة تشبهت وحرف من
إلى نسخة ذهب

(٢) كتاب حذير، ص ١٢١

عبد الحسين بن وهب (ت ٣٣٧ هـ) قد أضاف "حسن النظام" إلى حد البلاغة قال: "وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها. وذكر الجاحظ كثيراً مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها. وحدها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان... وزدنا حسن النظام؛ لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتى على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصيير كل واحدة مع ما يشاكلها، فلا يقع ذلك موقعه".^(١)

ويضرب ابن وهب على المشاكلة مثلاً في قوله: "أين من سمي واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبني وشيد"؟ - فأتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه، ولم يقل: "أين من سمي ونجد، وزخرف وشيد، وبني وعدد". ولو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً، ومن قائله مستقيماً، وكان مع ذلك فاسد النظم، فبيح التاليف".^(٢)

لعل كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المعنوية يؤكد مقولة لفيانوفسكى أن الحبك شرط لفوي يسهم في فهم السبك فهما أعمق. إذا كانت العلاقة بين "بني وشيد" علاقة المشاكلة بين عنصري عبارة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع آخر من عبارة أخرى. سوف يفهم السبك - على معنى جودة التاليف - إذا غاب الارتباط الدلالي بين المعطوف والمعطوف عليه. والتمييز في هذه الحال لا يكون بين كلام مفهم وآخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وآخر مفهم مسبولك محبوبك.

وكان ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) قد أطلق على مثال ابن وهب السابق اسم "المتناسب".^(٣) وفسره بإتباع كل لفظة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها.^(٤) ويقول أسامة بن منقذ (ت حوالي ٥٢٠ هـ): "وأما السبك فهو أن يتعلق بكلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير:

(١) ابن وهب (في شرح إسناع ابن زهير بن سنيان بن وهب الكوفي). لفرعاني وجزء الثاني، طبع في...
أحمد مطبوع في...
(٢) المرجع السابق ص ١٦١
(٣) ابن رشيق (في شرح إسناع ابن زهير بن سنيان بن وهب الكوفي). لفرعاني وجزء الثاني، طبع في...
(٤) ابن رشيق (في شرح إسناع ابن زهير بن سنيان بن وهب الكوفي). لفرعاني وجزء الثاني، طبع في...

يطعنهم ما ارتعوا، حتى إذا طعنوا ضارب، حتى إذا ما ضاربوا عتقا
ولهذا قال: خير الكلام المحبوك المبيوك الذي يأخذ بعضه برقاب
بعض^(١٢)

هذا النص من النصوص المهمة في تعريف السبك ولعل في كلام أسامة
وفي شاهده ما يرجع استنباط اشتغال السبك عنده على التعلق التحوي
والمعجمي معاً. والسبك المعجمي هو - كما نعرف - النوع الأخير من أنواع
السبك عند الهادي. ولعل في قوله خير الكلام المحبوك المبيوك ما ينبه
إلى وعيه بأثر معيارى الحبك والسبك بخاصة في صناعة الكلام أو النص،
فضلاً عما يمكن أن يلحح إليه تقديم الحبك من عناية واهتمام.

وتذكر ثنائية السبك والحبك عند أسامة بثنائية الجسم والروح عند ابن
طباطبا. إذا كان السبك جسم الكلام فالحبك روحه. الجسم اللفظ والروح
المعنى. اللفظ إتيان والمعنى إبداع. وواجب على صانع الكلام تحسين الجسم
وتحقيق الروح. يقول ابن طباطبا: "فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة
متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة مجتنباً لمحبة السامع له والنظر بمقله إليه...
فيحسنه جسماً ويحققه روحاً؛ أي يتقنه لفظاً ويبدعه معنى"^(١٣).

(و) ويمبر ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) عن فكرة المشاكلة عند أبي
هلال أو التماسب عند ابن رشيق، باسم "المواخاة بين المعاني". ولا شك أن
المشاكلة والتماسب والمواخاة عند هؤلاء جميعاً، إنما هي مظاهر للحبك في
مصطلح أسامة. ما معنى المواخاة بين المعاني عند ابن الأثير؟ يقول ابن الأثير:
أما المواخاة بين المعاني، فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي. مثاله
أن تذكر وصفاً من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتزم به. فإن ذكرته مع
ما يبعد منه كان ذلك قدحاً في الصناعة، وإن كان جائزاً. فمن ذلك قول
الكميت:

ألم هل ظمائن بالعلاء واقعة وإن تكامل فيها الدل والشنب

(١٢) ابن سعد (أسامة) - الطبع في عهد الشعر - لطف بن أحمد بن يحيى - د - حماد بن عبد الحميد - مؤسسة إبراهيم مصطفى
وزارة الثقافة والإرشاد القومي - د - ص ١٦٢

(١٣) ابن الأثير - معجم ص ١٠٣

عبر الفن يذكر مع الملح وما شبهه والنسب يصدر مع النفس وما شبه وهذا موضع يلفت فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مطلق الغلط؛ لأنه يحتاج إلى ثاقف ففكرة وحقق. بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الأجنبي منها^(١).

وقد عاب ابن الأثير على بعض الشعراء تباعدهم في القول وأنهم لا يراعون المواخاة بين المعاني. لاحظ ابن الأثير أن أبا نواس "يقع في ذلك كثيرا"^(٢) من ذلك مثلا قول أبي نواس في وصف الديك :

له اعتدال وانتصاب قد وجلسه يشبه وشى البرد

كأنه الهداب في القرنند محدوب الظهر ككريم الجد

قال ابن الأثير: " فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد، وهذا لا يناسب هذا؛ لأن الظهر من جملة الخلق، والجد من النسب. وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخره "^(٣). لم تطرد لأبي نواس القضية المذكورة في البيت. ولم يحسن أن يربط بين عناصرها؛ فافسد مبدأ انتظام المعنى الذي هو قوام الحبكة في نظرية النص المعاصرة والذي سبق إليه ابن طباطبغا في عبارته.

وقد نظر ابن الأثير - في موضع آخر - إلى ما أسماه بـ " الملامعة " و " المناسبة " من منظور مقابلة الجملة بالجملة. والمقابلة فن بديمي يقوم على علاقة دلالية بين المنطوقات هي علاقة " التقابل ". ضرب ابن الأثير على ذلك مثلا من الشعر قول أبي الطيب :

وقفت وما في الموت شك لواقف كائنك في جفن الردى وهو نائم

تصربك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثفرك باسم

قال ابن الأثير: " وقد أؤخذ على ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الأول آخر البيت الثاني وآخر البيت الثاني آخر البيت الأول لكان أولى.

(١) ابن الأثير (حب الفهم) مثل الشاعر نفسه وعلمه به د. محمد الخولي ود. محيى طهبة، دار جامعة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٨٣، نشط به وعودته في الأدب والنفس سيادة مستعصية في الثقافة

(٢) المرجع السابق ١٥١

(٣) المرجع نفسه ١٥٤. قد توضح أحمد من هذه المواخاة بين عناصر في شعر أبي نواس ١٥٤ - ١٥٦.

ولذلك حكاية، وهي أنه لما استشهد سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم". فلما بلغ إلى هذين البيتين قال: قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كعابيا ذات خلخال
ولم أسيا الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى ككرة بعد إجمال
فبيتك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس،
وكان ينبغي لك أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثفرك باسم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة كأنك في جفن الردى وهو

فقال المتنبى: إن صح أن الذي استترك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملة والحائك يعرف تفاصيله. وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السباحة بسبب الخمر للأضياف الشجاعة في منازلة الأعداء. وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول اتبعته بذكر الردى في آخره؛ ليكون أحسن تلاؤما. ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية، قلت: ووجهك وضاح وثفرك باسم؛ لأجمع بين الأضداد^(١).

والحق أن تأمل شعر أبي الطيب يدلنا على أن أحدا من الشعراء لم يبلغ في الجمع بين الأضداد مبلغه على الإطلاق. ولعله فنه الأول الذي يقود - مع فنون أخرى - إلى القول بتميزه بإحساس عال في رعاية الموقف. على أن الذي يعيننا هنا أن الحكاية السابقة تبرهن على أن ملاحظة الموازنة المعنوية بين المنطوقات والمفاهيم تحوج إلى تأمل وإرهاق فكري. وقد بلغ أمر الموازنة في إطار تقابل المعاني عند ابن الأثير مبلغا حدا به إلى أن يقول: "وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه تقا ولا أعظم فائدة"^(٢).

فضلا عما سبق، فإن أكثر ما استبطه البلاغيون من كلام العرب من

(١) انظر لسان ١٦٥/٣ - ١٦٦/١

(٢) المرجع السابق ١٦٥/٣

هو "بديع" المتعلقة بالمعنى. إنما تظهر علاقات دلالية مختلفة بين المنطوقات والمفاهيم، يتحقق عن طريقها الحيك. يدل التفرق وجمع المؤلف والمختلف على علاقة المقارنة، ويدل الرجوع والمقابلة والمعكس والتبديل على علاقة التقابل ويدل التفسير والتقسيم واللف والنشر على علاقة التسمية في هيئة: الإجمال - التفصيل، ويدل الاستشهاد والاحتجاج على علاقة منطقية في هيئة: الشرط - الجواب... الخ. سبق دكتور جميل عبد المجيد إلى محاولة ربط الفنون البديعية المنوية بالملاقات الدلالية التي تناسبها عند يوجين نايدا Eugene Nida في بحثه: "الملاقات الدلالية بين الأبنية النووية Semantic Relations between Nuclear Structures"⁽¹⁾.

ولكن فانه عدد غير قليل من تلك الفنون البديعية المنوية التي نرى لها اثرا مباشرا في تحقيق الحيك بين منطوقين أو أكثر: كالسلب والإيجاب، والاستشهاد والاحتجاج.

السلب والإيجاب أن تبني الكلام على نفس الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى أو الأمر به في جهة والنهي عنه في جهة، وما يجري مجرى ذلك: كقوله تعالى: **فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** (الإسراء: ٢٢) ومثاله من النثر قول الشعبي للحجاج: "لا تعجب من المخطيء كيف أخطأ، واعجب من المصيب كيف أصاب"⁽²⁾.

يظهر السلب والإيجاب علاقة دلالية ثنائية تقابلية. أما الاستشهاد والاحتجاج، فإن تأتي بمعنى ثم تؤكد به معنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته. من شواهد الشعرية عند أبي هلال قول الشاعر:

إنما يمشق المنايا من الأف حوام من كان عاشقا للمعال
وكذاك الرماح أول ما يك سره منهن في الحروب الموال⁽³⁾

(1) راجع حين هذا العهد الدكتور: الشيخ بن سلامة العربية والمسايات الصبية، الهيئة المصرية للدراسات للكتاب ١٩٩٥م ص ١١٣ وقد صفا

(2) كتاب الحجاج ص ١٠٥

(3) راجع ص ١٠٥

١ - حكم شعريه نسقه ونيد، تصادفة. انم وقفوا غيب في تعريه
 من شروط القول السبع وبه نيد م يبعي نوفره من معايير لغوية - ساسيه في
 مسنة الكلام

وقد عرص القدماء تلك المفاهيم من خلال نماذج استعمال لغوي حقيقي،
 وإن ظل شعر يخابهم - - - - - كلاما وقفوا على مفهوم - أكثر من هنون النثر
 لأخرى. ومهما يكن من أمر، فإن حيز التحليل لم يجاوز غالبا المنطوقين أو
 بيتين من الشعر. ولا تكتمل منظوراتهم إلا بما نراه أهم من ذلك؛ وهو ما
 عرضوه من آراء وتبصرات عن بنية النص من منظور الحبك الدلالي، فضلا
 عما كشفوا عنه من مظهر للحبك لا نرى مثيلا له في النظرية اللغوية
 المعاصرة؛ وهو الكشف عن العلاقات الدلالية بين النصين المتواليين في مدونة
 كبرى من منظور التناسب المنوي.

٣ - بنية النص من منظور الحبك :

كان باب "المبدأ والخروج والنهاية" - في إحدى تسمياته - حقا خصباً
 نمت فيه تصوراتهم عن مواصفات البناء الموضوعي النموذجي لنص محبوب
 دلالي، من حيث إن النص وحدة من اللغة في حال الاستعمال.

كان القدماء قد عرضوا لفكرة استقلال البيت في النص الشعري
 استقلالاً معنوياً. يفسر ابن الأثير مثلاً هذه الفكرة في ارتباطها بالنفس تفسيراً
 فيسولوجياً على النحو التالي: " لما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد
 بأكثر من مقدار عروضه وضربه، احتيج إلى أن يكون الفصل في المعنى "

(١)

ويشير ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) إلى استقلال البيت في النص بالإفادة مع
 رعاية مبدأ التناسب في الوقت عينه قائلاً: "ينفرد كل بيت منه بإفادته في
 تراكيبه حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله وعما بعده، وإذا أفرد
 كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء
 ذلك في البيت ما يستقل في إفادته، ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر
 كذلك..."

حقيقة الأمر هنا ينبغي لها أن تكون استقلال البيت عن غيره من حيث هو وحدة تركيبية ومعموية. لها كيانها الخاص، ولكنها الكيان الخاص الذي يتصل بما قبله وما بعده - داخل وحدة النص العامة أو وحدة المقطع من "نص على الأقل - اتصال الجزء بالكل يؤكد ذلك على مستوي النظر رؤية ابن خلدون نفسه القصيدة سلسلة متصلة تبني فيها المقاصد والمعاني على التماسك: "ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن تتأسب المقصود الثاني، ويبعد الكلام عن التافه"^(١).

في تحليل بنية النص من منظور الحيك (أو التماسك) وقف القدماء على الابتداء والتخلص والانتهاى من حيث هي مؤشرات بنائية خاصة في نسج النص الشعري والنثري جميعاً.

وقد زادوا على ذلك اختبار مدى رعاية التماسك بين وحدات النص المختلفة في هيئة المقاطع أو ما سمي بالفواصل، فضلاً عن رعاية التماسك بين أبيات الفصل الواحد.

وقد رأيت أن أفرد لمعيار التماسك عند حازم القرطاجني (ت ٦٨١هـ) منظوراً إليه من خلال بنية النص الشعري الكامل - جزءاً خاصاً من هذه الدراسة؛ وذلك أن آراءه ومنظوراته إلى ذلك المعيار يرتبط بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً، لاسيما أن الأمر عنده قد تجاوز الملاحظة والوصف العاجلين إلى التقنين والتأصيل النظري المتأني.

(١) بنية النص من منظور الحيك قبل حازم :

يمتدنا هنا أمران اثنان: أحدهما معرفة الشروط التي أوجب القدماء توفرها في شكل من الابتداء والتخلص والانتهاى، لاسيما ما يتصل منها بالنص. والأمر الآخر هو محاولة استخلاص المبادئ الجوهرية التي وجهت علاقة شكل من "الابتداء" والتخلص والانتهاى، بساتر أجزاء النص تحقيقاً للتوافق التماسك فيما بينه وإحدى العلاقات الشطئية التي تسمى وحدتها "الدلالية".

السؤال الآن : ما شروط المبدأ المستحسن عند القاء ٩. أشير إلى أن ما قرره القاء نصا لا يأتي على جميع الشروط التي رغبوا في توفيرها في المبدأ. إذا كانت تلك الشروط ملفوظة، فهناك شروط أخرى ملحوظة مما ضربه من أمثلة وشواهد ينبغي لها أن تؤخذ في الحسبان. يتيح لنا الأمر أن نصنف تلك الشروط جميعا على النحو التالي :

(الشروط الأولى) شرط الصياغة؛ ويقصد به حسن اختيار اللفظ وصحة السبك جميعا. وينبغي أن يضاف إلى شرط الصياغة اعتبارات أسلوبية أخرى: مثل تجنب الحشو، وتجنب المعاطلة ونحوهما.

(الشروط الثانية) الشرط المعنوي؛ ويقصد به وضوح المعنى، وارتباط المبدأ بما بعده ودلالته عليه في الوقت نفسه. وسوف نفصل ذلك.

(الشروط الثالثة) الشرط المقامي؛ ويقصد به - من خلال ملاحظاتهم المتفرقة - أمور عدة، نوجزها فيما يلي :

(أولا) رعاية حال المخاطب: فإذا خرج المبدأ عن ذلك المبدأ كان ممبيا. من أجل ذلك عيب مثلا مطلع قصيدة للبحر في مدح أبي الحسن عبد الملك بن صالح الهاشمي. وهو قوله :

فواد ملاه الحزن حتي تصدعا

وعينان قال الشوق؛ جودا ممأ ممأ ممأ

قال ضياء الدين بن الأثير: " وكذلك استقبح قول البحر في فواد ملاه... البيت ". فإن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع. وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح^(١).

لا شك أن المخاطب كان قد هيا نفسه في هذا الوقت أن يسمعه البحر ما يروقه وما تسر به نفسه ، فلم يراع البحر حاله ، وفاجأه بما يناسب الرثاء من كلام عن فواد حزين وعينين تجردان بالدمع . وكان ابن رشيق قد التفت إلى زمن الخطاب وحال المخاطب وجمل رعاية الأمرين من الفطنة والحدق ، يقول: " والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر في أحوال المخاطبين ، فيقصد معابهم ، ويميل إلي شهواتهم وإن خالفت شهوته ،

انتاسب إلى الإنباء عن المضمون وطبقة الشاطبة نلحظ ذلك من تأمل
الصدور التالية :

- أطال الله بقاء أمير المؤمنين (مخاطبة الأمراء).
- أما بعد، أحسن توفيقك، ونهج إلي الرشيد طريقك (يكتب به عن
الأمراء إلي من مرق عن الطاعة).
- سلام علي من اتبع الهدى وتجنب سبل الضلالة والهو (يستفتح به
عنهم إلي زعماء الروم).
- أمدك الله أيها الولي الأخص والخليل الأخص بالتقوى (يكتب به
عنهم إلي القضاة والفقهاء).

- كتابنا، أمدك الله بتقواه (يكتب به عنهم إلي سائر العمال).
- يابنى، ومن سلمه الله وأبقاه (يكتب به الأب إلي ولده).
- يا مولاي وجمال دنياي (يكتب به الولد إلي والده) ^(١).

ويرى أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢هـ) أن من الحق أن يشير المرسل
إلى تحميده إلى الفرض من الرسالة: " وإذا كان المرسل حاذقا أشار إلى
تحميده إلي ما جاء بالرسالة من أجله " ^(٢). والكلاعي علي رأي أبي الفتح ^(٣).
وقد جرى مجراهما ابن الأثير (ت ٦٢٧هـ). يرى ابن الأثير أن " المناسبة المعنوية "
من أؤكد أركان الكتابة. وقد أخذ علي أبي إسحق الصابي إخلاله كثيرا
بهذا الركن: وذلك أنه يأتي بتحميده إلى الكتاب من الكتب السلطانية، لا
تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب.

من أمثلة ابن الأثير علي ذلك ما كتبه أبو إسحق إلى ابتداء كتاب عن
فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها، وكان فتحا عظيما: " الحمد لله رب
العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العلي المجيد، الذي لا يوصف إلا
بسلب الصفات ولا ينمت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا انتهاء... الخ ". قال ابن
الأثير معقبا: " وهذه التحميده لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها. ولكنها

^(١) الكلاعي (أثر الفقه محمد بن عبد الله) بكه صفة الكلام حفظه وفده له د. محمد وصفي العدة عالم
الكتاب ط ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ص ٦٦

^(٢) المرجع السابق ص ٧٢

^(٣) المرجع نفسه ص ٧٦

عن جعفر بن محمد عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار

عن جعفر بن محمد عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار
عن جعفر بن محمد عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار
عن جعفر بن محمد عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار عن حماد بن عمار

وقوف ابن الأثير علي مثل النموذج السابق دليل علي ندرة وقوعه. كان
لعماد بن كبار المشنق رعاية المناسبة المعنوية بين الابتداء ومضمون
لرسالة وعلي شكل حال. فإن عناية أبي القاسم الكلاعي وابن الأثير بالنظر
في إنشاء الرسائل من منظور المناسبة المعنوية، دليل عملي بين علي وعيها
بخاصية العبك النصي. في مقابل نموذج أبي إسحق الصابي نرى نماذج عدة
عند الكلاعي وابن الأثير روعيت فيها المناسبة. من نماذج الكلاعي ابتداء
رسالة محمد بن عبد الله أبي جعفر المشهور بابن عبد كان (ت ٢٧٠هـ) جمع
فيها ذكر استقامة الحال بين أبي الحسن خمارويه (ت ٢٨٢هـ) وبين المتضد
أحمد بن طاحنة الخليفة العباسي (ت ٢٨٩هـ)، وهو قوله: "الحمد لله مقلب
القلوب، وعلام الفيوب، الجاعل بعد عسر يسرا، وبعد تحارب اجتماعاً".

٢ - التخلص :

هو التخلص والخروج والتوصل. قال ابن رشيق: "ومن الناس من يسمي
الخروج تخلصاً وتوسلاً".

لعل التخلص أسبق من غيره استخداماً. ولعل أقدم إشارة إلى التخلص ما
جاء في كلام ثمامة بن أشرس (ت ٢١٢هـ): "ما رأيت أحداً كان لا يتعبس
ولا يتوقف، ولا يتلجلج ولا يتعنح، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاء من بعد، ولا
يلتمس التخلص إلى معني قد تمس عليه طلبه، أشد اقتداراً ولا أقل
تكلفاً، من جعفر بن يحيى^(١)، وجعفر بن يحيى هذا، هو جعفر بن يحيى بن
خالد البرمكي، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد. ويستنتج من ربط
التخلص بالمتحدث عنه عموم التخلص في شكل كلام، وأنه ليس وقفاً على
الشعر. وإن عالجه أكثر القدماء من خلال نماذج شعرية.

أما اصطلاح "الخروج" فلعل أقدم إشارة ترجع إلى أبي العباس ثعلب

(١) ابن الأثير ١٠٠٠

(٢) ابن الأثير ١٠٠٠

(٣) ابن الأثير ١٠٠٠

ومما توصلوا به من الألفاظ في رد الجواب إلى غرض الكتاب :

♦ قولهم " ألقى " ، مثل : " إنه ألقى كتاب ككريم ، عنوانه جسيم ... " .

♦ أو " وصل " ، مثل : " وصل - وصل الله سمده ، وأهل مجده ١ - كتابه الكريم " .^(١)

ارتبط التخلص في الشعر بطراز القصيدة المركبة ، وهو الطراز الذي ألفه الذوق العربي ، ومن ثم كانت هيمنته في الشعر العربي القديم . وكان القدماء على صوت واحد في استحسان التوزيع في الأغراض في النص الشعري الواحد ، منذ أن قال الجاحظ " متي لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع " .^(٢)

أبرزت القصيدة المركبة في الجاهلية قوالب لقوية للتخلص من غرض إلى غرض ؛ نحو : " دع ذا " و " عد عن ذا " . وربما تركوا المعنى الأول ، وقالوا " وعيس " أو " وهوجاء " وما أشبه ذلك . وإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا : " إلى فلان " وأخذوا في مديحه . وربما تركوا المعنى الأول وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا مثل تلك القوالب ؛ وهو ما عرف باسم " الطفر " أو " الانقطاع " ، وهو ما ظل عند بعض المباسين كالمبصري^(٣) . غير أن الموازنة بين الشعر المباسي وما قبله ، من حيث استعمال الخروج ، تكشف عن صفة ما انتهى إليه ابن طباطبا وأبو هلال المسكري . لاحظ ابن طباطبا أن المباسين قد لطفوا القول في معنى التخلص إلى المعاني التي أرادوها^(٤) . وكذلك لاحظ أبو هلال أن الخروج المتصل بما قبله كان قتلًا قبل شمراء المصير المباسي ، ولكن المباسين قد أكثروا من الخروج المتصل^(٥) .

المسألة المهمة الآن : ما القانون الدلالي الذي يحكم التخلص تحقيقاً

لخاصية الحبكة التصني^٩ .

لعل ابن طباطبا خير من وضع يده على هذا القانون من القدماء قبل حازم .

(١) إحصاء صفة الكلام ص ٧٨ - ٧٩

(٢) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦

(٣) راجع المصنف ١ / ٢٣٩

(٤) صغر الشعر ص ١٨٩

(٥) كتاب الصائين ص ١٥٢ - ١٥١

ويمكن "ختصاره فيما يلي

- " أن يصل المتكلم كلامه صلة لطيفة " . ويبان ذلك عند ابن طباطبا في موضعين من عبارته يقول ابن طباطبا في الموضع الأول . وهو من باب " بناء القصيدة " : " ويسلك (يعني الشاعر) منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم : فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه - على تصرفه في فتونه - صلة لطيفة ، فيخلص من الغزل إلى المدح ، ومن المدح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماعة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيل والفتوح ... بالكلف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه " (١١) .

أما الموضع الثاني ، فيقول فيه : " ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفرافاً . . لا تتأقش في معانيها ، ولا وهي في مبانيتها ، ولا تكلف في نسجها ، تقتضي كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها " (١٢) .

من كلام ابن طباطبا في الموضعين السابقين يمكن أن نلاحظ ما يلي :

١- أن قياس فصول الشعر على فصول الرسائل ، يعني النظر إلى تعدد الأغراض بالقصيدة المركبة كمتعدد محاور الخطاب بالرسالة . ولكن الذي يبدو لنا أن تعدد محاور الخطاب بالرسالة من حميد إلى دعاء إلى أمر بفعل شيء . . الخ ، ليس كمتعدد في القصيدة المركبة ، التماسق بين المقاصد في الرسالة أشد قوة منه بين الأغراض في القصيدة المركبة . ولعل تقاليد النظم قد جعلت تعدد الأغراض على النحو الذي نعرفه أمراً مألوفاً بين المرسلين والمستقبلين جميعاً . من ناحية أخرى ، جعلت تلك التقاليد لتوالي الأغراض - في الوقت نفسه - نظاماً لا يخرج عنه الشاعر عادة (١٣) ، وهو نظام نرى له وجهاً

(١١) جمل الشعر ص ٩

(١٢) المرجع السابق ص ١١٢

(١٣) ما لا يخفى من خروج أي قام في قصيدة له وسط حسب أي مدح ، ثم حررت في ما كان فيه من حسب ، ثم رجعته إلى المدح ، ومع من الخروج بسبب "الثناء" ، ولكن من صلب فخرت مشهورة . ١- واضح .

(المجلد ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩)

من "لديته" حينئذ يوضّح "لثمة" لنداءه في ظروف العادية: "حول" رقيق تشبّه به "نفسه" لسماعه، أو حينئذ يخرج من مدحه إلى "استباحته" عدراً هيب وشى به الواشون... الخ. هذه وجوه للمناسبة، أفسحت لها تقاليد النظم عند العرب مجالاً للقبول. نرى كثيراً من الشعراء يخرجون في قصائدهم المركبة من الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف، ولكننا لم نسمع بشاعر خرج مثلاً من الافتخار إلى وصف الجنادب والحرايب. مازال هناك نظام يجعل بين توالي الأغراض وجوهاً للمناسبة.

ومهما يمكن من أمر، فإن قياس الشعر على الرسائل، يعني أن التخلص غير مرتبط بجنس أدبي دون غيره؛ هو عام في كل كلام، مادامت الحاجة فيه إلى أكثر من فصل: شعراً أو رسالة أو غيرهما. القصيدة في كلام ابن طباطبا إذا نموذج على شكل نص. المهم حسن التصرف ولطف الصلة بين أجزائه، حتى لا تؤدي إلى خطاب مفكك الأوصال مبني ومعني.

٢- يفهم محمد خطابي كلمة "المنني" في كلام ابن طباطبا على أنها تعني "الفرض" أو "الفن"؛ يقول: "على أن المنني هنا ينبغي أن يفهم في سياقه، إذ المقصود به، في نظرنا، الفرض أو الفن، مادام الحديث متمركزاً هنا على اتصال فصول القصيدة"^(١).

والحق أن ابن طباطبا نفسه قد ذكر - في نصه الأول - كلمة "فن" صراحة. وسياق كلامه كاملاً يجعل "المنني" عنده مقصوداً به الفرض أو الفرع من فروعه؛ وذلك أن التخلص من غزل إلى مديح تخلص من غرض إلى غرض، ولكن التخلص من وصف الديار والآثار إلى وصف الفياض والنوق هو تخلص من فرع لفرض الوصف إلى فرع آخر.

٣ - إذا كانت وظيفة التخلص الأولية وظيفة معنوية؛ هي حبك معني بمعني أو غرض بفرض، فقد لمح ابن طباطبا للتخلص وظيفة بناءية؛ هي أن يصل منطوق التخلص بين بيت وبيت. في ضوء ذلك نفهم كلامه عن دور التخلص في الحصول على قصيدة (وبالتالي أي نص) مفرغة إفراغاً، خال نسخها من التكلف، من ناحية أخرى، غاب كلامه عن قصيدة خال نسخها من التكلف، تقتضي كل كلمة منها ما بعدها، وتتعلق ما بعدها بها؛ إنما

(١) محمد خطابي: نشآت النص، مركز بحوث الأدبي، بيروت، ١٩٩١، ص ١١١.

قد ضلّاه عهد مه ن اخف التحصن لحققتي ليس في لطفه في ذاته
محبس، إنما يسمي لشاعر (وبالتالي شكل متكلم) أن يتلفظ في حمل ما
قبل التخلص مناسب معنويًا بما بعده بوجه من الوجوه.
وربما ناسب الشاعر بين ما قبل التخلص وما بعده، ولكن التخلص ذاته
يبدو معيبًا، من ذلك التخلص التالي في قول أبي الطيب :

ها ها نظري أو فظني بي ترى حرقا من لم يثق طرفا منها فقد والا
عل الأمير يرى ذلي فوشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا^(١)
قال ابن رشيق: " فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا "^(٢). قال أبو الملاء
المري (ت ٤١٩هـ) في شرحه: " وجه تشفعه إليها أن يصل جناحه بما يصل به
إلى المراد بها، ويحظى عندها لمكانه منها "^(٣). وفي تأويل أبي الملاء تلطيف
لا يستطيع ردا لإساءة أبي الطيب خطاب ممدوحه. وكان أبو الطيب زمن نظم
هذه القصيدة صبيًا)

وكذلك جمل القاضي الجرجاني من تخلصات أبي الطيب المستحكمة
قوله :

لو استطلعت ركبت الناس كلهم إلى سميد بن عبد الله بمرانا^(٤)
التخلص في الموضمين السابقين معيب في ذاته. وهو معيب في ذاته مقاميا؛
لأنه خرج عما يليق بخطاب الممدوحين. وإذا كان التخلص في الموضمين وصل
ما قبله بما بعده على سبيل الحيك بين معنيين أو غرضين انتقل الشاعر من
أحدهما إلى الآخر، فلم تكن - لليلة الماضية - صلة لطيفة.
٣ - الانتهاء :

أوجب أبو هلال العسكري في الانتهاء أو بيت الخاتمة أن يكون أجود
بيت في القصيدة؛ يقول: " فينفي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت
فيها، وأدخل في المعني الذي قصدت له في نظمها؛ كما فعل ابن الزيمري في

(١) المري (ال) شرح ديوان أبي الطيب لغزوف - مصر أحمد الحقي ومروعة دكتور عبد الحيد ديب. دار
لغزوف ص ١١٣٦ - ١١٣٧هـ - ١٩٩٧م - ١٩٩٨م وقوله "الأمير" أصل "الملك" ولكن بدل هذا

(٢) المصدر ١ ص ٢٢٨

(٣) شرح ديوان أبي الطيب ص ١٠٦

(٤) المصدر ص ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠ - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢ - ٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠ - ٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨ - ٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦ - ٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤ - ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢ - ٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠ - ٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨ - ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦ - ٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤ - ٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢ - ٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠ - ٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨ - ٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦ - ٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨ - ٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦ - ٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤ - ٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢ - ٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠ - ٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨ - ٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥ - ١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩ - ١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦ - ١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠ - ١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧ - ١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١ - ١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥ - ١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣ - ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠ - ١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧ - ١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤ - ١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١ - ١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨ - ١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥ - ١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢ - ١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩ - ١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦ - ١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣ - ١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠ - ١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧ - ١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤ - ١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١ - ١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨ - ١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥ - ١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢ - ١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩ - ١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ - ١٢٣٣ - ١٢٣٤ - ١٢٣٥ - ١٢٣٦ - ١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ - ١٢٤١ - ١٢٤٢ - ١٢٤٣ - ١٢٤٤ - ١٢٤٥ - ١٢٤٦ - ١٢٤٧ - ١٢٤٨ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠ - ١٢٥١ - ١٢٥٢ - ١٢٥٣ - ١٢٥٤ - ١٢٥٥ - ١٢٥٦ - ١٢٥٧ - ١٢٥٨ - ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦١ - ١٢٦٢ - ١٢٦٣ - ١٢٦٤ - ١٢٦٥ - ١٢٦٦ - ١٢٦٧ - ١٢٦٨ - ١٢٦٩ - ١٢٧٠ - ١٢٧١ - ١٢٧٢ - ١٢٧٣ - ١٢٧٤ - ١٢٧٥ - ١٢٧٦ - ١٢٧٧ - ١٢٧٨ - ١٢٧٩ - ١٢٨٠ - ١٢٨١ - ١٢٨٢ - ١٢٨٣ - ١٢٨٤ - ١٢٨٥ - ١٢٨٦ - ١٢٨٧ - ١٢٨٨ - ١٢٨٩ - ١٢٩٠ - ١٢٩١ - ١٢٩٢ - ١٢٩٣ - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ - ١٢٩٦ - ١٢٩٧ - ١٢٩٨ - ١٢٩٩ - ١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٢ - ١٣٠٣ - ١٣٠٤ - ١٣٠٥ - ١٣٠٦ - ١٣٠٧ - ١٣٠٨ - ١٣٠٩ - ١٣١٠ - ١٣١١ - ١٣١٢ - ١٣١٣ - ١٣١٤ - ١٣١٥ - ١٣١٦ - ١٣١٧ - ١٣١٨ - ١٣١٩ - ١٣٢٠ - ١٣٢١ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ - ١٣٢٤ - ١٣٢٥ - ١٣٢٦ - ١٣٢٧ - ١٣٢٨ - ١٣٢٩ - ١٣٣٠ - ١٣٣١ - ١٣٣٢ - ١٣٣٣ - ١٣٣٤ - ١٣٣٥ - ١٣٣٦ - ١٣٣٧ - ١٣٣٨ - ١٣٣٩ - ١٣٤٠ - ١٣٤١ - ١٣٤٢ - ١٣٤٣ - ١٣٤٤ - ١٣٤٥ - ١٣٤٦ - ١٣٤٧ - ١٣٤٨ - ١٣٤٩ - ١٣٥٠ - ١٣٥١ - ١٣٥٢ - ١٣٥٣ - ١٣٥٤ - ١٣٥٥ - ١٣٥٦ - ١٣٥٧ - ١٣٥٨ - ١٣٥٩ - ١٣٦٠ - ١٣٦١ - ١٣٦٢ - ١٣٦٣ - ١٣٦٤ - ١٣٦٥ - ١٣٦٦ - ١٣٦٧ - ١٣٦٨ - ١٣٦٩ - ١٣٧٠ - ١٣٧١ - ١٣٧٢ - ١٣٧٣ - ١٣٧٤ - ١٣٧٥ - ١٣٧٦ - ١٣٧٧ - ١٣٧٨ - ١٣٧٩ - ١٣٨٠ - ١٣٨١ - ١٣٨٢ - ١٣٨٣ - ١٣٨٤ - ١٣٨٥ - ١٣٨٦ - ١٣٨٧ - ١٣٨٨ - ١٣٨٩ - ١٣٩٠ - ١٣٩١ - ١٣٩٢ - ١٣٩٣ - ١٣٩٤ - ١٣٩٥ - ١٣٩٦ - ١٣٩٧ - ١٣٩٨ - ١٣٩٩ - ١٤٠٠ - ١٤٠١ - ١٤٠٢ - ١٤٠٣ - ١٤٠٤ - ١٤٠٥ - ١٤٠٦ - ١٤٠٧ - ١٤٠٨ - ١٤٠٩ - ١٤١٠ - ١٤١١ - ١٤١٢ - ١٤١٣ - ١٤١٤ - ١٤١٥ - ١٤١٦ - ١٤١٧ - ١٤١٨ - ١٤١٩ - ١٤٢٠ - ١٤٢١ - ١٤٢٢ - ١٤٢٣ - ١٤٢٤ - ١٤٢٥ - ١٤٢٦ - ١٤٢٧ - ١٤٢٨ - ١٤٢٩ - ١٤٣٠ - ١٤٣١ - ١٤٣٢ - ١٤٣٣ - ١٤٣٤ - ١٤٣٥ - ١٤٣٦ - ١٤٣٧ - ١٤٣٨ - ١٤٣٩ - ١٤٤٠ - ١٤٤١ - ١٤٤٢ - ١٤٤٣ - ١٤٤٤ - ١٤٤٥ - ١٤٤٦ - ١٤٤٧ - ١٤٤٨ - ١٤٤٩ -

منه من غير أن يكون له معنى في ذاته، بل هو معنى في سياق ما.

لأنه نص حكي يتربص من قدر حاله فمعه به وليس به جزء من نصي من معني جزء من نص، وهي تحصيل ما قبله أي هي معقولة به وحده، وليست قطعه عن معني تؤول إليه من الأبيات قبلها بناء على ما تقدم. يكون القانون الذي ارتضاه القدماء حكما لحودة الانتهاء هو

- ** أن يكون الانتهاء قاعدة النص ** -

ودنت على معني أن يكون أدخل في مقصده، وأن يكون قطعا ينتهي إليه ما قبله ويدعم هو ما قبله في أن معا.

(ب) بنية النص من منظور الحبل عند حازم :

في معني ما يكون بين المنطوقات المتوالية أو أجزاء النص الواحد من أشكال لتربط المضموني، يستخدم حازم (ت : ١٨٥) مفاهيم عدة: كالتناسب والافتراق والاشتراك. تمثل هذه المفاهيم - مع طائفة أخرى من الأفكار المتفرقة - إضاءات معرفية مهمة في فهم منظورات حازم إلى بنية نص من جهة تحيك يمكن أن تحمل تلك المفاهيم والأفكار الأولية - وفاق حصة دراسة - على النحو التالي :

١ - للأغراض "جناس" أول من ذلك الارتياح والاكتراث وما ترتب منهما نحو إشراب الارتياح الاكتراث أو المكسر. وتحت هذه الأجناس الأول "أنواع" كالاستغراب والاعتشار، والرضا والغضب، والنزاع والنزوع، والخوف والرجاء. وتحت هذه الأنواع أنواع "كالمدرج، والنسب، والتذكيرات، وأنواع تشاجرات، وما جرى مجراها من المقاصد الشعرية".

يشي حازم من ذلك إلى أن حسن التصرف في المعاني يوجب على المتكلم أن يعرف "وجوه اشتباها" بعضها إلى بعض. لكل معني من تلك المعاني معني أو معان تدسه وتقاربه. ولكل معني معني أو معان تضاده وتخالفه. وللمضاد معني أو معان تناسبه".

٢ - لاقتراح المعاني بعضها ببعض وحمل بعضها إزاء بعض أنواع خمسة:

١- معني أو حيز من معني، معني أو حيز من معني، معني أو حيز من معني، معني أو حيز من معني، معني أو حيز من معني.

١٠٠ - مصر - مصر - مصر - مصر - مصر - مصر - مصر - مصر
 (الأسلوب) القوة على تصور شكليات الشعر. والتفحص إن وضع فيها،
 تعاني الواقعة في هذه المقاصد. وذلك حتى يتوصل الشاعر إلى اختيار ما
 حب من القوافي وبناء الفصول القصائد على ما يحب
 (الثانية) القوة على تصور صورة القصيدة تتكون بها أحسن ما يمكن،
 وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول
 من مصر، بالنظر إلى صدر القصيدة ومعطفها من نسب إلى مدح، وبالنظر
 التي ما يجعل خاتمها في حاجة إلى شيء من ذلك.
 (الثالثة) القوة على ملاحظة الوجوه التي بها يقع التماس بين المعاني
 وإيقاع تلك النسب بينها.

(الرابعة) القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض، ووصل الأبيات
 بعضها ببعض، وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تنبئ عنها
 النفس

يكتشف تصنيف حازم المقامد الشعرية إلى أجناس عليها وفروع سعة
 أعرفه التصوري. ولا شك أن المعرفة النظرية الأولية بتلك الأجناس والفروع
 سوف تعد أداة لاختبار مدى ضبط العلاقات بين المعاني والأغراض عند
 ممارسة القول الشعري. وسوف تترك هذه المعرفة آثارها في بناء النص وتنظيم
 العلاقات والنسب بين أجزائه. وليست جهات التعليق أو علاقات الاقتتران عنده
 إلا علاقات حيك بين المنطوقات. تصلح للخروج عن ذلك إلى أن تصير ضروريا
 لعلاقات حيك فصول النص الشعري الكامل، لا سيما في النصوص الشعرية
 غير المركبة والتي تبني معنويا على أنواع الأجناس الأولى عنده؛ كالعرضا
 والفضب، والخوف والرجاء ونحوها.

أما كلام حازم عن القوى الثلاث التي يكمل بها القول للشاعر (وبصفة
 أعم كل متكلم)، فهو أدنى شيء إلى ثلاثية الكفاءة في النظرية اللغوية
 المعاصرة. القوة الحافظة عنده تضاهي الكفاءة اللغوية التي تعني ما يعرفه
 متكلم اللغة الأصلي عن لفته وما يختزنه في عقله منها وقدرته على
 استعماله. القوة الشاعرية عنده تضاهي الكفاءة التداولية التي تعني قدرة صانع

نوحه أن يتمتع بها ما يحكون فيه رقة وعدوة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد

سبق أخرون حازما في اشتراط ذلك، وفي جعل المناسبة بين المقصد واللفظ أول ما يحتاجه الشاعر من معرفة مقاصد الكلام. أضرب مثالا على ذلك ابن رشيق (ت 1061هـ). يقول ابن رشيق: "هاول ما يحتاج إليه الشاعر... حسن الثاني والسياسة، وعلم مقاصد القول: فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف جن ورجع، ولكن غاية معرفة أغراض المخاطب مكاننا من مكان: ليدخل إليه من باب، ويدخله في ثيابه. فذلك هو سر صناعة الشعر ومفراز الذي به تقاوت الناس، وبه تفاضلو"^(١).

أما القانون الذي يحكم الابتداء عند حازم، فهو أن "يجعل (يعني الشاعر) مبدأ كلامه دالا على مقصده، ويفتح القول بما هو عمدة في غرضه"^(٢). ولا يختلف الجزء الأول من قانونه عما نص عليه سابقوه. أما الجزء الثاني، ففيه تنويه بافتتاح القول بما هو أدخل في الغرض منه. إضافة حازم الحقيقة في تحليل المبادئ في عنايته بمعيار المناسبة، وفي بنائه لترتيب المبادئ على ما أسماه بـ "التناصر"^(٣):

١ - معيار المناسبة: يقول حازم: "وإذا لم يكن البيت الثاني مناسبا للأول في حسنه، غرض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصا إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معني أو نظم أو أسلوب، وذلك نحو قول أبي الطيب المتبني:

أتراميا لكثرة المشاق تحسب الدمع خلقا في المأقي
كيف ترى التي رأت كل جفن وأها غير جففتها غير راق"^(٤)

الأخرى أن نرى المناسبة - في هذا السياق - مبدأ تنظيميا: وذلك أنه

(١) الترمذ السافر ص ٣٠٠

(٢) كعمدة ١/١٩٩

(٣) لسان ص ٣٠٦

(٤) شرح ديوان أبي الطيب ص ١٨٠، ص ١٨١ في نسخة شرح ديوان أبي الطيب

ينظم بنية النص اللفظية والمعنوية: أي أن المناسبة هنا تعني الربط الشكلي والمضموني جميعاً.

٢ - فكرة التناصر: اتخذ حازم فكرة التناصر أساساً بني عليه ترتيبه المبادئ إلى رتب ثلاث :

- فأحسن المبادئ ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني (ويلحظ حازم أن هذه الرتبة عند "المحدثين" - بمفهوم العصر - أكثر من العرب المتقدمين "الذين لم يكن لهم بتشجيع البيت الأول بالثاني كبير عناية).

- والرتبة الثانية: أن يتناصر الحسن في المصراعين دون البيت الثاني.

- والرتبة الثالثة: أن يكون المصراع الأول كاملاً الحسن، ولا يكون المصراع الثاني منافراً له، وإن لم يكن مثله في الحسن (ومثل هذا - فيما لاحظته - يوجد كثيراً^(١)).

تعمكس تراتبية المبادئ على هذا النحو المنطقي أثر التناصر في جودة الكلام. وليس التناصر - في جوهره - إلا مظهراً من مظاهر الارتباط المضموني والشكلي بين وحدات الفصل الواحد، لا سيما في ظاهريته. ويمكن لعبار المناسبة وفكرة التناصر معاً أن يمثلنا منظوراً لغوياً إلى بنية النص بوصفه كلاً دلالياً متفاعلاً متبادلاً التأثير بالإيجاب والسلب. إذا كان حسن الجزء معتداً به بحسن غيره، فإن ذلك يعني أن الحسن في المبدأ ليس صفة قبلية، ولكنها صفة استعمال يكتسبها الجزء في محيط الكل. ويسمى هذا بالضرورة أن النص ليس مجموع أجزائه، ولكنه حصة التفاعلات بين تلك الأجزاء.

ب / ١ التخلص :

التخلص عند حازم خروج في الكلام من غرض إلى غرض على سبيل التدرج^(٢). إذا كان الخروج من غير تدرج، ولكن بانعطاف طارئ على جهة

(١) المعاجم ص ٣١٠ - ٣١١

(٢) المرجع السابق ص ٣١٦

من الالتفات سمي عنده باسم "الاستطراد" (١) :

التدرج إذن هو العمود الفقري للتخلص عند حازم. مقياس التدرج عند حازم في قوله: "أن يكون الكلام غير منفصل بعينه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباعدة التقاء محكما" (٢). وفي تفسير حازم لوظيفة التخلص - في ضوء فهمه هو على الأقل - ما يجعل للتخلص - بما يحققه من التقاء محكم بين الأغراض - أثرا إيجابيا مباشرا في تلقي الكلام: "فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام فإن النفوس والمسامح إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنقلة من معني إلى معني مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملام بين طرفيهما، وجدت الأنفس في طابعها نفورا من ذلك ونبت عنه. وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك، فإنها تستصعبه ولا تستسهله، وتجد نبوة ما في انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف فيما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتتام" (٣).

ليس النسيب والمديح في الكلام عن القصيدة المركبة التي توجب - في الأساس - احتيالا وتلطفا في صناعة التخلص، لهما إلا نوعين أو اسمين على غرضين من أغراض الاتصال الأدبي. المهم هنا ما يكشف عنه نظام "التدرج" في شكل غرض عند حازم، فيما يسميه "كيفية العمل" من وعي بضرورة الارتباط المعنوي والتسلسل المنطقي بين عناصر ذلك الفرض. الأحسن في النسب عند حازم أن يجري التدرج هكذا :

- البدء بما يرجع إلى المحب ،
- ثم بما يرجع إلى المحب والمحبيب معا ،
- ثم إرداف ما يرجع إليهما مما مما يشجو وقوعه بذكر ما هو راجع

(١) المرجع نفسه ص ٢١٦

(٢) المنهاج ص ٢١٩

(٣) المرجع السابق ص ٢١٩

في هذه الحالة، فإننا نرى أن مبدأ التدرج هو الذي يفسر لنا
النتائج التي نلاحظها في الحياة العملية.

في هذا المجال، فإننا نرى أن مبدأ التدرج هو الذي يفسر لنا
النتائج التي نلاحظها في الحياة العملية.

في هذا المجال، فإننا نرى أن مبدأ التدرج هو الذي يفسر لنا

النتائج التي نلاحظها في الحياة العملية.

والتي هي: أن التدرج هو الذي يفسر لنا النتائج التي نلاحظها
في الحياة العملية. وهذا هو المبدأ الذي يفسر لنا النتائج التي
نلاحظها في الحياة العملية. وهذا هو المبدأ الذي يفسر لنا
النتائج التي نلاحظها في الحياة العملية.

أقول مرة أخرى: لا ينبغي هنا التدرج أو النسب غرضاً من أعراض الشعر،
إنما الذي ينبغي ما أوتيت بهما من بيان "كيفية العمل". توفر أكثر شروط
التخلص عند حارة فرصة للقول بأن مبادئ الائتلاف الممنوي، والانتظام،
والعمل بسلامة. فكانت "خلفية" النظرية التي انطلقت منها تلك الشروط،
وهي تلك الشروط هي التي.

تتدرج من "قطع" الكلام

تتدرج من "الإخلال واضطراب" الكلام

تتدرج من "نقطة" تغير تحلف (إذ يحب التلطف فيما يوفق الكلام
حسن مواقفه ويحريه على أقوه مجازيه).

أن يحدد الشاعر نفسه في تحسين البيت الثاني لبيت التخلص

لإضافة الحداثة "أهم" في بحث التخلص هي ما يمثلته الشرط الأخير أن
يحدد الشاعر نفسه في تحسين البيت الثاني لبيت التخلص؛ فإنه أول الأبيات
التي يظهر فيها الإحادة أو "الإساءة" وهو - ضمناً يقول حارم - أول مقالة من
مقابل "المعبر" فيما تحلست إليه¹ وينبغي لنا أن نضيف إلى حدة ذلك الشرط

کتاب: *معارف*، جلد: *۱*، صفحہ: *۱۰۰*

الانحراف في بيت "الغصن" من "حبيب"

وَأَخْرَجَ بَيْنَ يَدَيْهِ خُطْبَةً مِنْ الْأَمْطَرِ فِي نَحْوِهَا

الحشو عامل لفظي، والكسدة عامل معنوي. الحشو والكسدة يرتبطان بدفع لحطاب وتدفق الحطاب في موضع التخلص يسمى نه أن يكون مطلباً ملها. الحشو والكسدة - على نحو ما يجب أن يفهم من سياق كلام حازم - يضعفان قوة إخلاص التخلص للربط الموضوعي المنطقي في موضع تلح فيه الحاجة إلى نقل الكلام - في تدرج - من محور خطابي إلى آخر. إنهما يضعفان قوة إخلاص التخلص لتلك الوظيفة: لأنهما يقيدان حركته اللفظية والصوية: تضعف السلاسة وتشاب مباشرة المعنى بلازم المعنى.

ومهما يكن من أمر، فإن قانون التخلص الدالّبي عند حازم ينبغي له أن يكون هكذا :

- ينبغي للتخلص أن يكون على سبيل التدرج وأن يؤدي إلى الالتقاء المحكم بين الأغراض .

ج ۱ / الانتهااء :

عرض حازم شروطه في الانتهاء، أو الخاتمة تحرياً وتحريزاً وتحفظاً على
النحو التالي:

١- تحري أن يكون ما وقع فيها من الكلام كالحسن ما استرجع به حسن القصيدة .

٢ - أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ سكرية أو معني منفر للنفس عما قصدت إيمانها إليه، أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه.

٣ - أن يتحفظ في أول البيت الواقع مقطعا للتصديده من كل ما يحكره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أولا، وإن رفعت الإيهام أخرا ودلت على معنى حسن. ومن هذا قول المتنبي :

فلا بلغت بها إلا إلى ظفر ولا وصلت بها إلا إلى أمل"

الشرط الثاني عند حازه شرط محض معني وما يرتبط به - شرط لا يخرج عما اشترطه 'لو هلال واس رشيق وأمثالهما: يعني للخاتمة أن ترتبط بالمقصد من الكلام. أما الشرطان الأول والثالث فهما لفطيان نظميان. وما ضرب به حازم مثالا علي النظم القبيح هو نفسه الذي سبقه إليه ابن رشيق، بحيث بيت أبي الطيب.

كان ابن رشيق قد علق على هذا البيت قائلا: " فإن هذا شبيه ما ذكر من ينفى: كان يصاحب الأمير فيقول: لا صبح الله الأمير بماضيه، وسكنت، ثم يقول: إلا رماه بأكثر منها، ويماسيه فيقول: لأمسي الله الأمير بنعمة، وسكنت سكتة ثم يقول: إلا وصبعه بآثم منها، أو نحو هذا. فلا يدعو له حتى يدعو عليه. ومثل هذا قبيح، لاسيما عن مثل أبي الطيب " (١).

السكتة علي ما قبل أداة الاستثناء تقدم مثالا على النظم القبيح؛ لأنه موهم، يضطرب معه الخطاب في موضع الخاتمة، وهو موضع ينبغي له أن يحوز علي عناية المتكلم؛ لأنه - كما يقول حازم - منقطع الكلام وخاتمته (٢). المهم هنا - على أي حال - الثفات حازم إلى تبادل الخاتمة مع ما قبلها فعل التأثير في نفس المتلقي سلبا وإيجابا: " فالإساءة فيه (يعني موضع الخاتمة) مفسدة علي كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس. ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو وترديد بعد إنضاج " (٣).

ومهما يكن من أمر، فإن قانون الخاتمة الدلالي عند حازم ينبغي له أن يكون هكذا :

- ينبغي أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المتكلم في النص، والا يكون تأثيرها فيما قبلها من حيث المعني تأثيرا سلبيًا.

وهو قانون لا يخرج - كما نرى - عما وضعه سابقوه.

٢ - المبادئ الدلالية لحبك الفصول :

الإضافة الحقيقية في دراسة الحبك أو التناسب المعنوي بين وحدات النص عند حازم مستودعها المعلم الأول من المنهج الثالث من (المباني) وهو عن طرق

(١) نسخة ١٢١

(٢) نسخة ١٢٢

(٣) نسخة ١٢٣

لنعم بحكمه مبني الحصول ونحوه هيته ووصف بعض بعض
الفصول عنده هي ما نتعارفه بالمقاطع التي يستقل شكل مقطع منها في
القصيدة العربية المركبة بفرض. تتوزع مقطعات هذا الملم - فيما يري - على
مفاهيم ثلاثة:

- مقطعات تختص بمفهوم السبك .
- مقطعات ترتبط بأحدهما أو كليهما وبمفهوم بنية النص وتسميته في
أن مما.

مقتضى الحال أن نقتصر هنا على ما يتصل من آرائه بمفهوم الحبك على
مستوي الفصول.

السؤال الآن: ما الأسس الدلالية والمضمونية التي يبنى عليها الحبك بين
فصل وآخر؟

١ / ٢ - قوانين الوصل بين الفصول :

ينبغي أن نشير أولا إلى أن حازما قد جعل الكلام فيما يرجع إلى ذوات
الفصول وإلى ما يجب في وضعها وترتيب بعضه من بعض قائما على أربعة
قوانين :

- (القانون الأول) في استعادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها.
- (القانون الثاني) في ترتيب الفصول والمواصلة بين بعضها وبعض.
- (القانون الثالث) في ترتيب ما يقع في الفصول.
- (القانون الرابع) فيما يجب أن يقدم في الفصول وما يجب أن يؤخر فيها
وتختتم به^(١).

- لكل قانون من هذه القوانين أربعة عند حازم شروط تحقيق مختلفة.
- تتوزع هذه القوانين وشروط تحقيقها على ما يمكن تسميته :
- ١ - شروط الحبك الكلبي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين
فصول القصيدة. وتقع هذه الشروط في القانون الأول والثاني.
- ٢ - شروط الحبك الحزني: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين

(١) شرح السراج ١١١١، ص ١١١.

(٢) شرح السراج ١١١١، ص ١١١.

ثبتت المصلحة لتوحيد وتنق هذه الشروط في القانون الثالث

مما يحقق الحيك "تكملي من شروط القبول الأول عند حرم تناسل
لفهميات بين الفصول" "ومما يحققه من شروط القانون الثاني أن يقدم من
"فصول ما للفرس به عناية على حسب الفرض المقصود بالسلام، وأن يتلي
الفصل المتقدم بالأهم، حتى تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم
غير الأهم على الأهم (وبالتالي إلى ترك القانون الأصلي في الترتيب)".
ومن شروط حازم في القانون الأول "حسن الاطراد بين الفصول"
وقد جاء حازم بهذا الشرط على الإجمال. ومما يعنيه حسن الاطراد
بالضرورة التوالي المحكم للمفاهيم والأغراض الذي يصل الفصول بعضها
ببعض في القصيدة الواحدة.

واستواء النسخ من شروطه في القانون الأول أيضاً، وهو متعلق بالعامل
التركيبى أي بالبنية اللفظية، ولكنه ينمكس بالضرورة على البنية المعنوية.
يجب أن تكون الفصول تبعاً لهذا القانون "غير متخاللة النسخ، غير
متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت مكانه منحاز بنفسه لا
يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية تنزل منزلة المصدر من المعز أو
المعز من المصدر. والقصائد التي نسجها على هذا مما تستطاب"
أما الشروط التي تحكم تحقيق الحيك الحزني، فقد اشتمل عليها
القانون الثالث: وهو في تأليف بعض بيوت الفصل إلى بعض. وهذه الشروط
هي:

- ١ - يجب أن يبدأ من أبيات الفصل بالمعنى المناسب لما قبله.
- ٢ - فضلاً عن وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التي تدل على أنه

(١) الفصح ص ٢٨٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩

(٣) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٤) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٥) يعرف حذرة أن هذا يعني أن يكون ذلك شعري هو صيغة معاني أصل والدي له صلب لشرف كذا شعري نورده
فصل على نفس لكنه شرط أن تلي من الشعراء بغيره المعنى المشرف تكون حالة الفصل هوذا كان من
الشعر من يردف الألفاظ لشعراء الألفاظ حطاه. فالأحسن أن في ذلك حازم أن يفتح بعض الشعراء
من هذه، ينتهه بشرف معاني (نسخ) هو مدح في الطب أو كذا من شعراء (مهاج ص ٢٨٩)

مبدأ فصل. فالأحسن أن ينصل به معنى يحسن موقعه من التمس بالنسبة إلى
 'الفرص'. فكانتجب والتمني والدعاء وتعدد المهود الصوائف. الخ.
 ٣ - يشترط أن يكون معنى البيت - مع كون أوله مبدأ كلام ومصدرا
 بكلمة لها معنى ابتدائي - أن يكون له علة بما قبله ونسبة إليه.
 ٤ - يجب أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقا به من باقي
 معاني الفصل. مثل :

(أ) أن يكون مقابلا له على جهة من جهات التقابل .

(ب) أو أن يكون بعضه مقابلا لبعض .

(ج) أو أن يكون مقتضى له. مثل :

- أن يكون مسببا عنه .

- أو أن يكون تفسيرا له .

- أو أن يكون بعضه محاسبا بعض ما في الآخر.

- أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر.

وكذلك الحكم فيما يتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل^(١).

وفي نهاية تلك الشروط يورد حازم هذه الملحوظة المهمة: " وربما ختم

الفصل بطرف من أغراض الفصل الذي يليه أو إشارة إلى بعض معانيه " .^(٢)

باستثناء الإشارة في الشرط الثاني إلى وجوب صياغة رأس الفصل
 بالصياغة التي تليق بموقعه، تبدو جميع الشروط في هذا القانون مختصة
 بالحبك الجزئي أو الداخلي بين أبيات الفصل الواحد. ولكنها لم تنفل - على
 رغم ذلك - وجوب المناسبة المعنوية بين رأس الفصل وما يسبقه أو بين خاتمة
 الفصل ورأس الفصل الذي يليه.

ولعل وضع حازم يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل
 الواحد بداية جدولة العلاقات الدلالية التي سبق فيها المحدثين، مثل نايدا.
 يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة للعلاقات الدلالية بين المنطوقات،
 ويحتفظ حازم بحق المسبق إلى كثير من تلك العلاقات. ولنا أن نقابل ما عند

(١) نهج من ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) نهج من ٢٩٠ - ٢٩١

حازم بما يتشكك فيه عند تأييد، على النحو التالي

حازم

- علاقة انقابلة :
- الهيكلية
- البعضية
- مسبب عنه
- تقصيره
- بعضه يحاكمي بعض ما في الآخر

ناهدا

- العلاقة التقابلية (علاقة ثنائية)
- السبب - التفصيل (علاقة تبعية)
- الكيفية - (علاقة الوصف)

ضم القانونان الأول والثاني شروط ما أسميناه بالحبك الهيكلية، وكما ضم القانون الثالث شروط الحبك الجزئي. أما القانون الرابع، فقد جعله حازم في وصل بعرض الفصول ببعض. ونرى أن الوصل - في هذا الموضع - ينبغي له أن يتسع للسبك والحبك معا، ويعني هذا أن القانون الرابع إنما يتناول النص المسبوك المحبوك في الآن نفسه. لم يبين هذا القانون - مثل غيره - على شرط تحقيقه، إنما بني على أنواع الفصول من حيث الاتصال والانفصال بين العبارة والفرض. يقول حازم: " فاما القانون الرابع في وصل بعرض الفصول ببعض، فالتأليف في ذلك على أربعة أضرب:

- ١ - ضرب متصل العبارة والفرض.
- ٢ - وضرب متصل العبارة دون الفرض.
- ٣ - وضرب متصل الفرض دون العبارة.
- ٤ - وضرب منفصل الفرض والعبارة^(١).

حد حازم الضرب الأول على النحو التالي. " فاما المتصل العبارة والفرض، فهو الذي يتكون فيه لأخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه من

جهة الفرض وارتباط من جهة العبارة. بأن يكون بعض الألفاظ التي في أحد الفصلين يطلب بعض الألفاظ التي في الآخر من جهة الإسناد والربط^(١١).

على أساس الاتصال والانتقال بين العبارة والفرض تجري سائر الضروب إذا كان الاتصال من جهة العبارة لا الفرض فكان الضرب الثاني. ويكون الفصل متصلًا بغيره في الفرض دون العبارة إذا كان أوله رأس كلام، ويكون لذلك الكلام "علقة" بما قبله من جهة المعنى. هذا هو الضرب الثالث. أما الضرب الرابع والأخير، فهو الذي لا توصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بفرض مناسب له، يهجم على الفصل هجومًا من غير إشمار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والآخر^(١٢).

الضروب الأربعة السابقة هي الإجابة عن سؤال يمكن أن يطرح على النحو التالي: كيف تبدو صور العلاقات بين الفصول من حيث اتصال العبارة والفرض؟

وينبغي الإشارة هنا إلى أن حازمًا قد وصف الضرب الثاني بأنه "منقطع عن غيره"^(١٣). ووصف الضرب الرابع بأنه "متشتت من كل وجه"^(١٤). ولكنه يرى الضرب الثالث، وهو ما اتصلت فيه الفصول بعضها ببعض في الفرض دون العبارة، يراه أفضل الضروب الأربعة. يقول حازم: "وهذا الضرب (يعني الثالث) إذا نهط برأس الفصل فيه معنى تمجيبي أو دعائي أو غير ذلك مما أشرنا إليه هو أفضل الضروب الأربعة: لتكون النفوس تتبسط وتتجدد نشاطها بإشمارها الخروج من شئ إلى شئ، واستئناف كلام جديد لها مع ما يشفع به إليها في قبول الكلام من نياطة ما ذكرناه من تمجيب أو دعاء أو غير ذلك مما له بالمعنى علة بالكلام وتصديره به. وهذا الضرب - على كل حال - أفضل الضروب الأربعة"^(١٥).

يمتلك نظير حازم لضروب الاتصال بين فصول القصيدة ما يستحسنه الذوق العربي في بنية الخطاب: تعلق الفصول فيما بينها من جهة الفرض

(١١) المرجع السابق ص ٢٩٠.

(١٢) المرجع السابق ص ٢٩١.

(١٣) المرجع نفسه ص ٢٩١.

(١٤) المرجع نفسه ص ٢٩٠.

(١٥) المرجع نفسه ص ٢٩٠.

وإنما بعضها ببعض من جهة العدة أي ارتباط الألفاظ ببعض من جهة الإسناد والربط. فقد نظر حازم - عينا يبدو لنا - إلى طراز القصيدة المركبة - على تقدير قدر الاتصال بين الفصول في الفرض عن طريق الخروج - عندما جعل الضرب الثالث أفضل الضروب، بعبارة أخرى نقول: سوف تجد القصيدة المركبة محلا لها من الضرب الثالث. على أساس فهم حازم ومن قبله تدور المخلص أو الخروج، من الربط بين الفصول لفظا ومعنى.

ب / ٢ تصيق المعاني بين الفصول :

المعاني الجزئية والمعاني الكلية :

ويرتبط بالحبك بين المفاهيم والقضايا على مستوي الفصل الواحد الكيفية التي تتسق بها المعاني بين أبيات الفصل. جعل حازم المعاني صنفين :

- ١ - المعاني الجزئية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "شخصية"^(١).
- ٢ - المعاني الكلية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "جنسية أو نوعية"^(٢) لم يمثل حازم لأي من هذين النوعين عنده. ينبغي لمعني الحب أو الوفاء أن يكون معني كلها، من حيث إن مفهومه جنسي أو نوعي، فإذا ما عرض شاعر لتجربة شخصية في أحدهما في علاقته بفلان أو فلانة، وكيف كانت تلك التجربة، وما كان يريده لها، ونحو ذلك، كان التحول إلى المعني الجزئي.

هذان هما نوعا المعاني عند حازم. فأما القصد إليها في القصائد فتلاثة

أشكال:

- ١ - القصائد التي يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمها معاني جزئية.
- ٢ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تضمن المعاني الكلية.
- ٣ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤلفة من الجزئية والكلية. وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده عند حازم؛ وذلك

(١) ترجع لسبق ص ٢٩١

(٢) ترجع ص ٢٩٢

”حاشية في علاقتها بما قبلها: كالتمثيل والاستدلال اللذين غرضهما التصديق أو الإقناع قصد إعطاء حكم كلي في بعض ما يتعلق بـ” الأغراض الإنسانية ” من أمور قصد إليها الفصل. يقول حازم: ” ولا يخلو المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتوجيهه من أن يكون متراميا إلى ما ترامت إليه جملة معاني الفصل إن كان مفزاهما واحدا، أو يكون متراميا إلى ما ترامي إليه بعضها؛ فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التعميل، ويكون منحوا به منحي التصديق أو الإقناع، مقصودا به إعطاء حكم كلي في بعض ما تكون عليه مجاري الأمور التي للأغراض الإنسانية علاقة بها مما تسمرت إليه مقاصد الفصل، ونحي بها نحوه ؛ فه يكون في ورود البهت الأخير الذي يتضمن حكما أو استدلالا على حكم إثر المعاني التي لأجلها بنى ذلك الحكم أو الاستدلال عليه، إيجاد للمعاني الأول وإعانة لها على ما يراد من تأثر النفوس لمقتضاها“ (١).

خلاصة القول أن المبادئ والتخلصات والخواتيم كانت من مجالات النظر في بنية النص من منظور الجبل عند حازم. وقد رأينا له إسهامات خاصة، لا سيما في المبادئ والتخلصات. في تحليل المبادئ أبرز حازم فكرتي التسلسب والتناصر بين المبدأ وما يليه. وعلي أساس فكرة التناصر بني ترتيبه المبادئ إلى ربها الثلاث على نحو ما رأينا وفي تحليل التخلصات نيه حازم إلى وجوب العناية بالبيت التالي للتخلص، فضلا عن اشتراطه خلو بيت التخلص مما يروق حركته اللفظية والمنوية من حشو أو كناية.

ولكن الرقعة الحقيقية التي أضافها حازم إلى مبحث الحيك أو التسلسب في التراث العربي، فكانت مع تجاوزه مواضع البداية والتخلص والنهاية وعلاقتها بسائر أجزاء النص، إلى بحث خاصية الحيك من خلال القوانين وشروط القوانين التي وضعها للوصل بين فصل وآخر من فصول النص الشعري أو التي وضعها للوصل بين أبيات الفصل الواحد منها، أو استجاداته - في ترتيب المعاني في شكل فصل - البدء بالمعاني الجرحية ثم المعاني الكفلية، أو تسبيحه إلى وجوب العبادة بمواقع الفصول وأعقابها - ههنا أسماء بالتسويم

والتحجيل - من جهة المعنى والوظيفة الخطابية.

أما المبادئ الدلالية الجوهرية التي بنيت عليها قوانين المبادئ والتخلصات والخواتيم من ناحية، أو التي بنيت عليها قوانين مبادئ الفصول وهيئاتها وكيفيات وصل بعضها ببعض والوصل بين أبيات الفصل الواحد منها من ناحية أخرى، فيمكن أن نوجزها في: انتظام المعاني، واتصال الكلام، وتناسب الجزء مع الكل في المفهوم، والتدرج: رأينا مناسبة الابتداء لما بعده ومناسبة ما بعده له. وكذلك الحال مع التخلص: أن يناسب ما قبله ويربطه على سبيل التدرج بما بعده، ولا بد للخاتمة أيضا من أن تناسب ما قبلها وأن ترتبط بالمقصد من الكلام. وفي مبادئ الفصول لابد من تناسب المفهومات فيما بينها، وأن يكون تقديم الأهم من الفصول فالأهم على حسب الفرض المقصود من الكلام، وأن يتعلق معنى أول الفصل بالفصل الذي قبله. وقد رأينا أنما أن أفضل ضروب الاتصال بين الفصول عند حازم ما كان الاتصال فيه بين الفصول في الفرض دون المباشرة. ولعل ذلك يرجع إلى أنه الضرب الذي يجمع بين الترابط المعنوي والتجدد الأسلوب. وفي التأليف بين أبيات الفصل الواحد، أوجب حازم المناسبة بين البيت الأول من الفصل (بيت التسميم) وما قبله في المعنى، وأن يردف بيت التسميم ببيت آخر له به علاقة دلالية ما؛ كالتيقار أو الاقتضاء أو نحوهما، وأن يناسب توزيع المعاني بالفصل، من البدء بالمعاني الجزئية ثم المعاني الكلية، الغالب في العلاقات الدلالية النطقية، وأن يرتبط المعنى في بيت التحجيل بجملة معاني الفصل أو بعضها على الأقل.

٤ - التناسب بين النصوص :

يتجاوز التناسب هنا ما بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد إلى التناسب بين طائفة من النصوص في مدونة كبرى. التناسب بين النصوص بمعنى عمل علمي من طراز عبقرى، هو كتاب (تاسق الدرر في تناسب السور) للإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ). هذا الكتاب هو النوع الأول من الأنواع الثلاثة عشر التي احتوى عليها كتاب له يحمل اسم (أسرار التنزيل). ولكن لم يصل إلينا من الأسرار إلا التاسق. فرغ السيوطي من كتابه (تاسق الدرر) في عام ٨٨٢ هـ.

وتكشف قراءة عجل للحموى العام لكتابه الأسرار الذي صدر به كتاب التاسق عن وقوع أكثر من نصف أنواعه في مجال "المناسبة"^(١). يقوم (تاسق الدرر) على أساس ترتيب السور في المصحف لا ترتيب النزول والترتيب القرآني للمصحف مختلف فيه بين العلماء: هل هو بتوقيف من النبي " أم باجتهاد من الصحابة، بمد القطع بأن ترتيب الآيات توقيفي. المختار عند السيوطي أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، سوى الأنفال وبراءة"^(٢).

خاصية التاسب في المعاني والمقاصد بين نصي سورتين متواليتين غالباً، وربما بين سورتين غير متواليتين مثل التاسب بين النساء والبقرة من وجوه، هي المنظور اللغوي العام الذي بني عليه السيوطي كتابه. وهو منظور دعامة الاستقراء النصي. وقد دل السيوطي على استقرائه في موضعين: أحدهما: " القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تمصّل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجاز"^(٣). والموضع الآخر: قوله: " وأمر آخر استقرائه، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. وبلا السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسبة لأولها"^(٤).

جدير بالإشارة أن السيوطي - مثل سابقه - قد اتخذ في كلامه عن وجوه التاسب مفردات عدة، منها: التاسق، والتلاحم، والارتباط، والاعتلاق والالتئام، والتأخي، والتلازم، والاتحاد، والاتصال. وهو يستخدم في مواضع متعاقبة عدداً من تلك المفردات، حتى تبدو وكأنها مترادفة عنده، وهو ما يجعل التمييز فيما بينها أمراً عسيراً، إلا ما ندر جداً منها: كان يفيدنا السياق بأن الاتصال أعم من التاسب"^(٥)، أو أن يفيدنا بأن التأخي يكاد

(١) انظر: السيوطي (حلال النص) : تاسق الدرر في تناسق السور . دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد سلاطان . مكتبة المطبعة . ط ١ (١٤٠٦ هـ - - ١٩٨٦ م) ص ٥٤ .

(٢) تاسق الدرر ص ٦٠ . وفقر ١٤٦

(٣) الرصع السابق ص ٦٥

(٤) الرصع نفسه ص ٧١ .

(٥) الرصع ص ١٣١

نزل القرآن من علاقات الخطاب : وخصصه سبعة عشر سورة
 التي هي على أساسه لقولك في بعض السور، وأخرى
 بدلتها مستقرة، تناسق لمرور على أن الترابط الدلالي والتضميني بين
 سورة وأخرى يرجع إلى إحدى العلاقات الجوهرية العشر التالية
 (أ) تفصيل المجمال :

أشرت إلى أن القاعدة التي استقر بها القرآن - من وجهة نظر
 السيوطي - أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب
 لإيجاز ما على هذا، تصبح هذه العلاقة الدلالية أهم العلاقات التي وفرت
 للمس القرآني المحكم خاصية الحبكة. تفصيل المجمال إذن هو الملمح الرئيس
 من ملامح الحبكة التي تصير كل سورة ممها وحدة من وحدات الخطاب
 القرآني المترابطة. سبق البديميون السيوطي إلى إدراك هذه العلاقة من
 علاقات الحبكة في الخطاب العربي، ولكن السيوطي يجعلها - باستقرائه
 - قاعدة الخطاب القرآني كله

- فسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع محملات الفاتحة .
 - سورة آل عمران شرح لإجمال ما في البقرة قبلها، ومثاله أن أول البقرة
 افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه، وقال في آل عمران : " نزل عليك
 الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه " ٣ . وذلك بسط وإطناب : لنفي الريب
 عنه " . وهكذا تطرد للسيوطي قاعدته.

(ب) علاقة التلازم والاتحاد :

استقرأ السيوطي هذا الأمر على نحو ما أشرنا. إذا وردت سورتان بينهما
 تلازم واتحاد فكانت حائفة "السورة الثانية مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على
 لاتحاد مثال ذلك أن آخر آل عمران مناسب لأول البقرة : فإنها انتهت
 بكلمة تتقن، وأنه المنفحون، وحملت آل عمران بقوله :

١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠

وَقَضَىٰ إِلَيْنَا سَعْيَهُمْ فَأَنشَأْهُمْ فِي جَنَّةٍ مَّا بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ ذَاتِي بَيْنٍ وَأَبْنَاءُ شَاكِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(ج) تشابه الأطراف :

يقول عنه "صيوطي": " وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور.
وهو نوع من التدرج ^١ وتشابه الأطراف - في عمل الصيوطي - يعني
تتطابق أول السورة مع حاتم ما قبلها في الموضوع. من تشابه الأطراف الذي
يؤلف عليه "صيوطي" أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، ويبدأ النساء به"
:ختمت يوسف بوصف العنكب ، ووصفه بالحق ، ويبدأ الرعد بمثل

وختفت الاءء بالتحميد وافتتحت "تطهف بالتحميد أيضا"

(د) ؟ علاقة المقابلة :

مقدمة أو التفضل من وجوه التناسب بين السور في عمل السيوطي من
لأتمته على ذلك أن سورة الكوثر كإثبات سورة الماعون قبلها؛ لأن الماعون
ويصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور: النحل. وترك الصلاة. والرياء
ههنا. ومنع الزكاة. وذكر في "كوثر" في مقابلة البخل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ
الْكُوثَرَ﴾^{١٣٣} أي: الخير الكثير. وفي مناقلة ترك الصلاة "فصل" ٢٠: أي: دم
عنها وفي مقابلة "رياء" ترك ٢٠ أي: لرضاء. لا للناس. وفي مقابلة منع
لعموم البحر ٢٠ وأراد التصديق بلعم الأضاحي. أحد السيوطي التأويل

منه : "عندما لا يصح
 سائر عن الإمام محمد بن سيرين الرزي" (هـ)
 (هـ) علاقة المقارنة :

تستلطف هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلاً عن وجه الاتصال بين
 سورتي الغيل والشمرة. قال السيوطي : " لما ذكر حال الهمة الهمزة. الذي جمع
 مالا وعدده. وتميز بماله وتقوي. عقب ذلك بذكر أمصحاب الغيل. الذين
 كانوا أشد منهم قوة. وأكثر أموالا وعتوا. وقد جعل مكدهم في تضليل.
 وأهلكهم بأصفر الطير وأضعفه. وجعلهم كمنصف مأكول... فمن كان
 قصاري تمززه وتقويه بالمال. وهمز الناس بلسانه. أقرب إلى الهلاك. وأدنى
 إلى الذلة والمهانة " (١١).

تبدو المقارنة هنا إذن علاقة دلالية رابطة بين طرفين لسان صفة أو وضع
 لأحدهما مقارنا بالآخر.

(و) علاقة الملازمة :

وتجلى هذه العلاقة بين سورة الشمس والليل والضحى قال السيوطي :
 هذه الثلاثة حمنة التأسق جدا : لما في مطالعها من المناسبة لما بين الشمس
 والليل والضحى من الملازمة. وفيها سورة الفجر. تكون فصلت بسورة البلد
 لتكن أهم. كما فصل بين الانقطار والانشقاق وبين المسبحات : لأن مراعاة
 "تناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول. إنما يكون حيث لا يعارضها ما
 هو أقوى وأكد في المناسبة" (١٢).

(ز) علاقة التحقيق :

وتستلطف من كلام السيوطي عن السورتين إذا كانت بداية إحداهما
 قسم على تحقيق ما في سابقتها. من أمثلة هذه العلاقة ما لاحظته السيوطي من
 الارتباط بين سورة الفجر والفاشية قبلها. يقول السيوطي : " لم يظهر لي من
 وجه ارتباطها (يعني 'فجر') سوى أن أولها كالأقسام على صحة ما ختم به
 السورة التي قبلها (يعني الفاشية) : من قوله جل جلاله : "إِنَّ إِلَهَنَا إِيَّاهُمْ" (٢٥) كَمْ

(١١) الترمذ السبق ص ١٢٢ - ١٢٣

(١٢) السبق السبق ص ١٢٣ - ١٢٤

(١٣) الترمذ السبق ص ١٢٤ - ١٢٥

إِنْ عَلَيْنَا جُنَاتُهُمْ^{٢٦} وعلى ما تضمنه من الوعد والتعهد. فكما أن أول الدراسات قسم على تحقيق ما في (ق)، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (ج) (عم).

(ج) بيان العلة :

ويمضي أن تقع السورة موقع العلة لما قبلها. من ذلك مثلاً أن سورة البينة - كما يذكر السيوطي - واقعة موقع العلة لسورة القدر قبلها؛ مكانه لما قال سبحانه: "إنا أنزلناه"^{٢٧}. قبل: لم أنزل؟ قبل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفسكين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة، وذلك هو المنزل^{٢٨}.

من ذلك أيضاً أن أول سورة الحديد واقع موقع العلة للأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة؛ مكانه قيل: "فسبح باسم ربك العظيم" لأنه "سبح لله ما في السموات والأرض"^{٢٩}.

(ط) الإتمام أو العطف :

وذلك أن تكون السورة في ترتيبها كالتتمة لما قبلها. من الأمثلة على ذلك أن سورة المارج - فيما ذكر السيوطي - كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار^{٣٠}. وسورة النمل كالتتمة للشعراء قبلها في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان، وداود، ويسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء^{٣١}.

يجعل السيوطي هذه العلاقة من العلاقات التي بين سورة وأخرى؛ كعلاقة سورة الشرح بالضحى قبلها. ينقل السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي قوله: "والذي دعاهم إلى ذلك (يعني ما ذهب إليه بعض السلف في جعلهما سورة واحدة بلا سملة) هو أن قوله: "الم نشرح" كالعطف على: أنه يجذب بيتهما فتاوي"^{٣٢} في الضحى^{٣٣}.

٢٦ التفسير: ١٠٠ ص ١٣٦.

٢٧ ترمذ: ١٠٠ ص ١٣٦.

٢٨ ج: ١٠٠ ص ١٣٦.

٢٩ ج: ١٠٠ ص ١٣٦.

٣٠ ج: ١٠٠ ص ١٣٦.

٣١ ج: ١٠٠ ص ١٣٦.

(ي) وصف الإطار الزمني :

نستبط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي البينة والزلزلة. قال السيوطي: " لما ذكر في آخر " لم يكن " (يعني البينة) أن حزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكانه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: " إذا زلزلت الأرض وزلاها " ١٠٠ : اي : حين تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره " (١١).

تلمب العلاقات الدلالية على النحو الذي رأيناه دورا بالغا في الوصل بين سورة وأخرى. يمكن - في استقراء موسع - أن نضع الأيدي على مزيد من العلاقات. ميزنا هنا بين عشر علاقات دلالية على الأقل، وكانت من ركانز السيوطي المهمة في الكشف عن التناسب بين السور. من أجل ذلك، لا نرى وجها لاقتصار محمد خطابي على ثلاث من العلاقات الدلالية في عمل السيوطي^(١٢). نرى في ذلك إجماعا بجهد السيوطي الجهد في تحليل النص القرآني من منظور التناسب من ناحية، ونراء - من ناحية أخرى - أقل كثيرا من أن يصور حقيقة ثراء العلاقات بين طائفة من النصوص يجمعها نص أكبر واحد.

هناك أمر آخر ينبغي لنا أن ننوه به: وهو أن التناسب " عند السيوطي يتجاوز العلاقات الدلالية المذكورة آنفا، إلى كل مظاهر الاتصال الموضوعي والمضموني والمنطقي التي تجعل وضع إحدى السور بعد الأخرى أنسب من وضع غيرها موضعها.

يمكن توضيح ذلك بمثال من عمل السيوطي، وليمكن ما ذكره من وجوه للتناسب بين سورة البقرة والفاتحة قبلها. هذه الوجوه عنده هي :
(الوجه الأول): " سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة ".

(الوجه الثاني): " أن الحديث والإجماع على تفسير المفوض عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب

(١١) المرجع السابق ١٢٢

(١٢) نشبت نص ص ١٩٩ - ٢٠٢

ترتيبهم في الزمان. فمقب بسورة البقرة. وجمع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصاري لم يقع بذكر الخطاب....^{١٠٠}

(الوجه الثالث): " أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، ... ، فتناسب تقديمها على جميع سور".^{١٠١}

(الوجه الرابع): " أنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال، فتناسب البداية بأطولها".^{١٠٢}

(الوجه الخامس): " أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فتناسب البداية بها، فإن للأولية نوعاً من الأولوية".^{١٠٣}

(الوجه السادس): " أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بالآسلك بهم طريق المفضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً، ختمت سورة البقرة بالدعاء بالآسلك بهم طريقهم في المواجهة بالخطأ والنسيان، وحمل الإصر، وما لا طاقة لهم به تمصيلاً، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المفضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿لَا تُضِلُّهُمْ بَيْنَ أَخْمٍ مِنْ رُمْكٍ﴾ [البقرة: ١٧٨٥] فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع.

وذلك من وجوه المناسبة في التوالي والتناسق... فهذه ستة وجوه ظهرت لي^{١٠٤}.

يتضح مما سبق ما المحنا إله أنفا : يتسع التناسب هنا ليشتمل على العلاقات الدلالية: كتفصيل المجل، وعلي وجوه أخرى لغوية: كالتناسب الموضوعي في خطاب أهل الكتاب، والاشتراك في مضمون الخاتمة، أو وجوه خارجة عن نطاق اللغة: كالطول، وترتيب النزول.

لا ريب أن طبيعة النص المدروس الخاصة من الناحيتين: اللغوية وغير اللغوية، قد فرضت مثل هذا التوسع في استخدام مفهوم " التناسب " عند السيوطي. هذا ما يؤكد عمل آخر للسيوطي في التناسب بين المطلق والمقطع في السورة الواحدة: وهو رسالته: "مراسد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع". فضلاً عن خروجه بنطاق المطلق عما تمارفه سابقوه، حتى يصل المطلق عنده

إلى نصف السورة والمقطع إلى نصفها الآخر^(١١). فقد اتسع "التناسب" عنده إلى أن جعل الاشتراك بين المقطع والمطلع في موضوع أو محور خطابي وجه التناسب الرئيس. من ذلك مثلا أن "هود" و "يوسف" و "الرعد" و "إبراهيم" و "الحجر" كلها مفتتحة بذكر القرآن، ومختتمة به^(١٢). وفي حالات غير قليلة يظهر وجه التناسب في هيئة علاقة دلالية ما.

على أي حال، فمن المسلم به أن لدراسة السيوطي عن "تناسب السور" خصوصية من جانب قيامها على نص منزل من لدن حكيم خبير للناس كافة. ولحسن هذا النص قد أحكمت معانيه ومقاصده علاقات دلالية ومضمونية في كل جزء من أجزائه في محيط نظمته الصكلي. من ثم، يظل السؤال التالي مشروعاً: إذا اتخذنا دراسة السيوطي عن "تناسب السور" نموذجاً لدراسة تطبيعية عن خاصية الحبكة بين طائفة من النصوص في إطار مترابط أكبر، فما المعطيات النظرية العامة التي توقفنا عليها مثل تلك الدراسة؟

يمكن إيجاز تلك المعطيات فيما يلي:

- ١ - يجمع النص بالآخر في محيط نص مترابط أكبر علاقتان دلالتان اثنتان على الأقل: إحداهما علاقة مطردة بين جميع النصوص، من حيث أن أحدهما يفصل مجمل الآخر، ومن حيث إن كلا منهما جزء من كل، والآخرى متغيرة حسب موقع النص مما قبله وما بعده.
- ٢ - كلما طال نصان متواليان في نص مترابط مطول، كانت فرصة لأن تجمع بينهما أكثر من علاقتين اثنتين. هذا ما نراه واضحاً في عمل السيوطي بين معظم السور المدنية.
- ٣ - إذا كان إحصاء العلاقات الدلالية بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد عملاً متاحاً، فإن إحصاء العلاقات الدلالية بين طائفة من النصوص

(١١) مثال ذلك أن الأول منه في سورة المائدة حتى الآية ١٧، وفي قوله تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم". السورتي (حلل الدين) مراد المطالع في تناسب المقاطع والمطلع. تحقيق: محمد يوسف الشرنخبي. مجلة (الأحذية) ١ - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي - العدد الرابع ١ جلدي الأول ١٩٩٠ هـ - أغسطس ١٩٩٩ م) ص ٧٣ - ١١٢ ص ٩٦.

(١٢) مراد: مطلع ص ٩٣.

التي يقوم عليها نص أكبر واحد. يبدو شيئاً غير يسير، وقابلاً للتأويل والتعمد. ولعل ما استثمره السيوطي من تجاوز وجوه تناسب والاتصال بين سور القرآن ما ذكره في عمله، فكان وراء قوله: "وجميع هذه الوجوه التي استبطنها من المناسبات بالنسبة للقرآن كمنشقة من بحر"^(١).

٤ - لهمت العلاقات بين نصين في مدونة كبري من حيث المعنى والمقصد ظاهرة دائماً. تظهر هذه العلاقات حيناً، ولكنها خفية في أحيان أخرى. يرتبط خفاء العلاقات بطول النص ومقصده في كثير من الأحيان. وفي عمل السيوطي رأينا وجوه اتصال السورة بالأخرى ظاهرة، ولكنها تحتاج إلى تأمل وروية في أحيان غير قليلة. عبر السيوطي عن هذه المسألة في غير موضع من كتابه:

- عن سورة "إبراهيم" قال: وجه وضعها بعد سورة الرعد، زيادة على ما تقدم، بمد إفسكاري فيه برهة...^(٢).

- وعن وجوه مناسبة "تبارك" لسورة "التحریم" قبلها قال: "ظهر لي بعد الجهد..."^(٣).

- وعن وجه اتصال "نوح" بسورة "المارج" قبلها قال: "أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بمد طول الفسك أنه..."^(٤).

- وعن وجه اتصال "الجن" بسورة "نوح" قبلها قال: "قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها..."^(٥).

٥ - للاستدلال دور مهم في استنباط العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب. يمكن أن نضرب على ذلك مثلاً نوع الاتصال بين سورة "نوح" و "المارج" قبلها: قال السيوطي: "أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بمد طول الفسك أنه سبحانه لما قال في "سأل" (يعني المارج): "إنا لقادرون على أن نبذل خيراً منهم" ١١، عقبه بقصة قوم نوح، المشتملة على إبادتهم

(١) تأسس الفهر ص ٨٧

(٢) تأسس الفهر ص ٩١

(٣) المرجع السابق ص ١١٩

(٤) المرجع ص ١٢٩

(٥) المرجع ص ١٢٩

عمر حرهم. بحيث لم يبق منهم دينار، وبديل حبرا منهم، موقع الاستدلال لما ختم به شارك (٥). وفي الاتصال بين "بارك" و "التحريم" قبلها. يقول السبوطي: "ظهر لي بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكاهنيتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله: "الذي خلق الموت والحياة" ٢. مرادا بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع يخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين التبيين الكريمين، وأمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق في كل من القضاء والقدر".

من المقرر - في علم لغة النص ونظرية تحليل الخطاب - أن خطاب اللغة الطبيعية - على عكس الخطاب الشكلي - ليس خطابا صريحا تماما explicit.

يمكن أن تقع العلاقات بين الجمل والقضايا دون أن يبرر عنها. وهذه هي العلة في أن البنية النظرية للنص ضرورية لبيان كيفية تفسير الخطابات بأنها مترابطة حتى وإن كانت معظم القضايا اللازمة لإنشاء الحيك تبقى ضمنية implicit، على نحو القضايا المستلزمة عن قضايا أخرى قد عبر عنها في الخطاب تعبيرا صريحا. هنا يكون للاستدلال دور^(١١). وقد رأينا في التولئة كيف يمكن لنا أن نقوم بتركيب "الحلقات المفقودة" في الخطاب بواسطة قوانين الاستدلال Rules of Inference.

٦ - إذا كانت بنية النص الكبيري هي بنية المحتوى النصي الشاملة التي تؤثر على مقصده الرئيس، فإن بنية النصوص المكونة لنص أكبر ممتد ينبغي لها أن تكون - عبر علاقات المحتوى الكبيري فيها - ما يمكن تسميته بالبنية النصية المنظمة. في ضوء هذا يمكن أن نفهم كلام القدماء عما أسموه "المقصد الأعظم من القرآن". مثال ذلك أن الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) جعل "المقصد الأعظم من القرآن" هو تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر^(١٢).

(١١) نفاذ المطرود ص ١٢٦

(١٢) راجع Text and Context, p 94

(١٣) نفاذ المطرود ص ٦٦ - ٦٥

٥ - خلاصات وتعقيبات :

كان النص الأدبي عند البلاغيين والنقاد، والنص القرآني عند البلاغيين والعاملين في حقل التفسير وعلوم القرآن، المادة النصية التي نهضت عليها تظهيرات القدماء وتبصرااتهم في حبل الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه. ولا ريب أن اتخاذ شكل من النصوص القرآني والنص الأدبي مركزا للعمل في حبل النص مبرر برغبة في أن تصدر تظهيراتهم عن نماذج لغوية عليها، تزود بالمثال المحتذى. ويدهي أن يكون الوقوف على النماذج الأدبية المهمة مطلعا أو تخلصا أو خاتمة أو وصلا بين الأجزاء، قصدا إلى استهداف النقض عند صناعة الكلام.

فضلا عن اصطلاح الحبل، استخدمت مفاهيم أخرى تؤدي إليه: كالتناسب والالتحام والارتباط والتعلق والمجانسة والمواخاة ونحوها. في ظل ذلك قدم القدماء طائفة من التصورات والمبادئ التي ربطت تمام حسن الكلام بحسبه وتناسب المعاني بين أجزائه. يمكن أن نجمل تلك التصورات والمبادئ فيما يلي :

١ - مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام ودلالته على الاستمرارية المعنوية في النص.

٢ - مبدأ مجانسة الجزء للكل، وهو ما رأيناه على نحو تطبيقي في باب "الابتداء والتخلص والانتها". ومن الدراسة التطبيقية، استمدت القوانين التي تحكم كل جزء بما يمهده وبما قبله لغويا وموقفيا :

(أ) فالابتداء ذو علاقة موقفية بمقام الاتصال، ولغوية بالوحدات التي تليه: بينا شعريا، أو جملة في رسالة أو خطبة.

(ب) والتخلص على علاقة لغوية بما قبله وما يليه. ويشترط فيه التدرج.

(ج) والانتها قاعدة النص.

٣ - اتخاذ فكرة التناصر أساسا لترتيب المبادئ إلى رتبها الثلاث

المعروفة عند حازم.

٤ - اتخاذ معيار المناسبة وفكرة التناصر منظورا لغويا إلى "بنية النص"، مما يمكن فيما للنص كلاً دالاً متفاعلاً الأجزاء.

٥ - أنواع اقتران المعاني (أو جهات التعلق). وهي عند حازم: اقتران التماثل، واقتران المناسبة، واقتران المطابقة أو المقابلة... الخ.

٦ - ربط مقاصد النظم بقوى فكرية مختلفة؛ كالقوة على تصور صورة مثلى للقصيدة، والقوة على تنظيم المعاني وتوزيعها بين الفصول، والقوة على ملاحظة وجوه التناسب بين تلك المعاني. وينبغي لما وصل إليه حازم في بحث "القوى الفكرية" أن يعد من الأسس الإجرائية في تحليل النص وفهمه.

٧ - قوانين الوصل بين الفصول، وتصنيف هذه الفصول - من خلال جهد ظاهر عند حازم في استقراء النصوص - إلى ضروبها الأربعة.

٨ - العلاقات الدلالية التي فطن إليها حازم، فضلاً عن "وجوه التناسب" الملتنة في عمل السيوطي أو التي يمكن أن تستبطن منه. نود أن نبز منها هنا - على وجه الخصوص - أمرين :

(أ) أهمية هذا العمل في تجلية الاختلافات أو القواسم المشتركة بين طبيعة العلاقات الدلالية بين أجزاء النص الواحد والعلاقات الدلالية بين نصين... : في مدونة نصية كبرى، من حيث ظهور العلاقات واختلافاتها، أو من حيث عدد العلاقات الأقل الذي يلزم وقوعه للربط المعنوي أو المضموني في الحالتين؛ أو من حيث العلاقة الطردية بين طول النص وعدد العلاقات الكامنة... الخ.

(ب) أهمية هذا العمل في توكيد دور الاستدلال في اكتشاف العلاقات الدلالية الخفية التي لم يصرح بها الخطاب.

في ضوء ما سبق، يمكن وضع الأيدي على حقيقتين اثنتين على الأقل :
(أولاهما) أن القدماء فهموا النص وحدة شكلية مترابطة الأجزاء، متجانسة الدلالات والمعاني والمضامين. ولا يند عن ذلك إلا نظرتهم إلى القصيدة المركبة. وهو ما سنعقب عليه بعد قليل.

و (الأخرى) أن التصورات والمبادئ السابقة جميعاً، وهي حصائد فكر المهتمين بصناعة الكلام والتبصير من اللغويين والبلاغيين، تكاد تشغل جميع المنظورات التي حددها ليفاندوفسكي للحيك في علم اللغة النصي :

"الحيك أداة لغوية لفهم السبك فيها أعمق. نراه في روايات الجاحظ

عن بعض منتجي النصوص، وفي إشارات ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، وابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) والحسين بن وهب (ت ٣٢٧هـ) وأبي هلال العسكري (ت ٢٩٥هـ) وابن رشيق (ت ٦٣٦هـ) عن: الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الأخذ بعضه برفاق بعض، وانتظام المعاني، وتشاكل المصراعين، وإنشاء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وريط الحبك بالسبك، وذكر المعني مع أخيه لامع أجني... الخ.

- والحبك خاصة من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، نراه في وجوه التماسب التي اتسع بها السيوطي في عمله عن تماسب الصور، حتى خرجت عن العلاقات الدلالية المحددة إلى التماسب بين السورتين في الارتباط بمرجعية واحدة؛ كان يكون الموضوع المتكلم عنه واحدا في المطلع أو المقطع.

- والحبك خاصة من خصائص إطار الاتصال الاجتماعي، نراه في اشتراط مناسبة المطالع للمقاصد، ومقامات الاتصال، وأحوال المخاطبين، وما يروق للممدوحين سماعه في فصول المديح؛ فلا يمدح الشاعر بما هو بالرتاء أجدر، وأن يرفع دور المخاطب الاجتماعي؛ فشكل طبقة ما يشاكلها، فضلا عن رعايته موقف الاتصال الخارجي، فلا يتفزل إذا كان الكلام في حادثة لا يناسبها الفزل.

- والحبك إجراء وحيلة للتلقي الابتكاري البناء، نراه في كلام حازم عن دور المتلقي في الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه، أو في دوره عند السيوطي في الاستدلال على العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب.

ليس القصد مما سبق تبينة ما وصل إليه القدماء من تصورات ومبادئ في قوالب جديدة من عمل النظرية اللغوية المعاصرة، وأن القدماء وصلوا إلى ما وصل إليه المحدثون، وانتهوا إلى ما انتهوا إليه، حتى لم تعد بنا حاجة إلى تلك النظريات اللسانية المحدثة. المضاهاة السابقة بين منظورات القدماء والمحدثين نوع استنشاء بمحددات المحدثين النظرية المحكمة، وقد كشفت عن إلمام التراث العربي في مجال الحبك بطائفة من التبعصبات الجوهرية والخطوط العريضة غني عن البيان أن المنظورات الأربعة التي حددها ليفاندوفسكي للحبك على النحو السابق قد رغبتها اتجاهات لغوية حديثة عدة، مثل اللغويات

الاجتماعية. ونظرية افعال الكلام. ونظريات التلقي وبحوها. أما احتجادات القدماء. فقد ردهتها نظرة شمولية ثاقبة في صناعة الخطب العربي. تجمع بين العلم والذوق. اقصده بالعلم هنا انعلم اللغوي بمعناه العام (النحوي والدلالي والمقامي) الذي يلزم توصيف ظواهر كلامية ونصية مفردة. من حيث الصياغة ومن حيث كيفية الوصول إلى المؤثرات الاتصالية المثالية: ترتيب الأفكار. وتنظيم أجزاء الكلام... الخ.

أما الذوق. فقد لاحظناه في مواطن كثيرة مما سبق. نحو خلق اوصاف الاستحسان والاستزدال على المطالع والتخلصات والخواتيم. ونحو ريمد حازم وغيره بين القصيدة المركبة والنفوس الصحيحة الأذواق. ويمكن ان نضيف هنا تعليق أبي هلال على المناسبة المعنوية بالمطابقة في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى" (٤٣) "وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا" (٤٤) "وَأَنَّهُ خَلَقَ الذُّجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى" [النجم: ٤٣ - ٤٥] وقوله: "وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى" (٤٥) "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى" (٤٥) بقوله: "فأبكى مع اضحك. وأحيا مع أمات. (الذكر والأنثى مع الذكر. والأولي مع الآخرة. والرضا مع العطية. في نهاية الجودة وغاية حسن الموقع)". مثل ذلك ما نراه في السبك أيضاً. اضرب مثالا على ذلك من مبعث المنافرة بين الألفاظ في السبك. قال ابن الأثير: "أنشد بعض الأدباء بيتاً لدعبل (ت: ٢٤٦هـ). وهو:

شفيحك فاشكر في الحوائج إنه يصونك من مكروهما وهو يخلق
فقلت له: عجز هذا البيت حسن. وأما صدره فقبيح: لأنه سبكك قلناً نافراً. وتلك الفاء التي في قوله: "شفيحك فاشكر" كانها ركة البعير. وهي في زيادتها كزيادة الكرش. فقال: لهذه الفاء في كتاب الله أشباه. كقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَظَاهِرٌ فَظُهُرٌ (٤)" [المدثر: ١ - ٤] فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولاً. وبالذوق ثانياً.

أما العلم: فإن الفاء في "وربك فكبر وثنابك فظهر" وهي الفاء العاطفة. فإنها واردة بعد "قم فأنذر". وهي مثل قولك "امش فأسر" و "قل فابلق".

بنيست الفاء انتي في شفيعك فاشكر صهده الفاء - لأن تلك زائدة، لا موضع لها. ولو جاءت في السورة كما جاءت في قول دعبل - وحاش لله من ذلك - لابتدئ الكلام، فقل: ريك فكبير. وثيايك فطهر. لكنهما لما جاءت بعد "قم هاندر" حسن ذكرهما فيما يأتي بعدها من "وريك فكبير. وثيايك فطهر".

وأما النوق: فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل، ويستقلها، ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في السورة.
فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم^(١).

وهناك فرق جوهري في المادة اللغوية الممتدة للتحليل بين التراث العربي وعلم اللغة النصي. يلحظ المرء أن نماذج الدراسة النصية منذ عام ١٩٧٠م، قد جعلت مركز اهتمامها التعريف بتوظيف النصوص في سياقات الحياة اليومية. وقد تبع ذلك أن تكون مادة التحليل اللغوية نصوص المحادثات التي تمثل جانباً مهماً من جوانب النشاطات الاجتماعية اليومية، وهي - كما نعرف - نصوص تبني على التفاعل المباشر المطلق بين المشتركين فيها. أما مادة التحليل عند العرب، فقد كانت - كما رأينا - النصوص القرآنية والنصوص الأدبية. وغني عن البيان أن النص القرآني يقدم النموذج الأعلى للغة المسيوكة المحبوسة. وفي النصوص الأدبية يرى هؤلاء الباحثون العرب نماذجهم المنشودة. ومعلوم أن ظروفها وأسبابها تاريخية مرتبطة بالمقاصد الكبرى للتأليف والتصنيف في العربية، قد جعلت ذلك أمراً طبيعياً. ولكننا نحسب أن لو كان قدر لطائفة من اللسانيين المحترفين أن يجعلوا الاستخدام اللغوية في شكله التفاعلي المنطوق غير الأدبي مادة لتحليل الطرق التي يتحقق بها الحيك، لكانوا - كما هو المظنون بهم - قد قدموا مزيداً من التصورات والحقائق، على نحو ما رأينا عند لايوف وودسون مثلاً، من ربط تحقق الحيك بالعلاقة بين أفعال الكلام الإنجازية.

من ناحية أخرى، فإن مقارنة ما انتهى إليه القدماء عن مشكل الحيك في طراز القصيدة المركبة بما استقر في علم اللغة النصي ونظرية تحليل

الخطاب من مفاهيم مركبة. تؤكد أن "تدبر حملوا النص الشعري المركب موافقاً للنفوس صحيحة الأدواق: ككس طاشاً وحده، قد علوا تدوق على العلم، وصربوا بمفاهيم جوهرية في علم اللغة النص ونظرية تحليل الخطاب عرض الحائط: أعني مفاهيم مثل "محور الخطاب Discourse Topic" و "عالم النص Textual world" و "بنية النص الكبرى Macro-Structure".

في القصيدة المركبة يصبح "محور الخطاب" و "عالم النص" و "بنية النص الكبرى" على مستوي الفصل الواحد من النص، لا النص الكامل. تكل فصل محوره أو موضوعه الذي تعتمد عليه علاقات الحبكة بين الحمل وما تعبر عنه من قضايا. ولكل فصل عالمه النصي الذي يبينه في ذهن القارئ تتسق المفاهيم والعلاقات في حيز معرفي Knowledge Space. بعينه. وعالم النص أحد فروع الموقف. والموقف - كما نعرف - مرتبط بملامح أطراف الاتصال وغاياتهم. مع تبين المفاهيم والعلاقات سيفقد النص الشعري المركب موقفته الموحدة. وينسحب ذلك على بنته الكبرى؛ وذلك أن البنية الكبرى لا تقتصر على العلاقات بين القصايا المتحاورة، إنما هي بنية شمولية تلقط عناصرها من مجموع قصايا النص المتألفة. ساء على ذلك، يتعذر تحصيل بنية كبرى واحدة لنص شعري مركب.

يهد أن المرء لا يقدم قصائد مركبة من الشعر بحاصة، يفتح لها التناول بنا على تألف المحاور، ومكونات عالم نصي واحد، وبنية كبرى واحدة ولكنها ليست مركبة من طراز: النسب - المديح، الذي نشأ به الثقلة من كلام عن الدات إلى كلام عن الآخر، ولكنها من طراز النسب - الفخر، الذي تؤلف بين غرضيه دات الشاعر. أصرت مثالا على ذلك دالية البحتري (ت ٢٨١هـ) التي مطلعها

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد
أما لكم من هجر أحببكم بُدْ ٩

منفت هذه الدالية شكلها على أنها في وصف لقاء الشاعر بالذئب. وهذا يعني مبدئياً غص الطرف عن فصل النسب مهاباً، أو الطرإ إليه على أنه هامش على من الوصف. ولكننا نرى أن القصيدة تتوزع بين هدي التي عبرت به، وأهله الذين ظلموه، والحياة التي تحرم إلى الصراع والمواجهة ولم يعض

٩ - البحتري (ت ٢٨١هـ) في شرحه على المتن: "أما لكم من هجر أحببكم بُدْ ٩"

سند نحوه بين الشعير و لدنث إلا وسيلة غنية للتدليل على أن ذلك شعير
لدي كذات له الخلة في ذلك الصراع مع دثب شرس، إنما هو أقوى من غدر
هد و مثلهم أهله، وأقدر على أن يخوض - في ذلك المحيط الاجتماعي الموثب
- كفاءة الصراعات والمواجهات حتى مع ذئاب أخرى من عالم الإنسان، فإن
لم يقدر له النور أسلم أمره لتقديره.

من أهم ما يدعم التأويل السابق أطراف جملة من المفاهيم التي تدور حول
عمر هد والتي تجمع بين فصل النسب وما بعده: فالكلام فيما تلاه عن ظلم
الأهل وقسوة الحياة، ولعل الفصل الأخير من النص والذي يبدأ ب:
لقد حكمت فيما اللهائي بجورها وحكم بنات الدهر لهم له قصد
نعله لا يعمد أن يكون حائمة مطولة بدت قاعدة الدالية، ووقعت مما قبلها
جميعاً موقع السجدة من السبب.

ماء على ذلك، يرى السبب في مثل ذلك النص مختلفاً عنه في نصوص
أخرى وقد تلاه مدهج ولعل عزوه البحتري عن التخلص في موضع يحرص
غيره عليه فيه سرراً مما يشد المصول بعضها إلى بعض من علاقات دلالية.
ومهم يحسن من أمره، فقد وقف القديما على توصيف طائفة من المبادئ
العامّة للممارسة اللغوية في شكلها النصي من حيث خاصية الحبل، وعالجوا
كثيراً من الإشكاليات من سبب النص وعلاقات أجزائه من خلال جملة من
القوانين العامة. على رغم أنهم لم يحروا في تلك المعالجات على عرق ولم
يعملوا فيها على شاكلة وقد مره ما انتهى إليه هؤلاء من تصورات ومبادئ
عن الحبل على أن للنظرية اللغوية في تحليل النص عند العرب امتدادات بعيدة
في مصادر التراث اللساني اللغوي، وأن ذلك التراث ما زالت به إمكانيات
مغتمة للترويد بأسول مرضية لتطوير علم لغوي نصي عربي، وأنه ليس داراً
حرية سحبت عليها العنكبوت.



الفصل الثالث
النص الهجائي العربي
دراسة في وسائل الإقناع

١ - توطئة :

توصيف مكونات البنية الحجاجية للنص الحجاجي العربي نوعاً نصياً خاصاً، واستقراء وسائل الإقناع المنطقية واللغوية وتحليل صورها المختلفة انطلاقاً من معطيات المينيات النصية المختارة لهذه الدراسة ذاتها، هما الهدفان الأوليان اللذان تسعى دراستنا إلى تحقيقهما. وقد اقتصرت تحقيق هذين الهدفين تمهيد السبيل إلى التطبيق بهذه التوطئة النظرية التي نرسم بها إلى لقاء ضوء على المفاهيم والأسس النظرية ذات الصلة الوثيقة بمستوى المعالجة التطبيقية.

(١) أنواع النصوص :

التمييز بين أنواع النصوص وفقاً لمعايير لغوية واتصالية هو مجال نظرية أنواع النصوص Text Type Theory. لا نمضي هنا بتقديم مراجعة شاملة لأدبيات هذه النظرية، ولكننا نمحض القول فيما يناسب أهداف الدراسة. هدف نظرية أنواع النصوص تكشف خواص البنية اللغوية وأنماط الوظائف الاتصالية التي يغلب ارتباطها بنوع نصي بعينه مقارناً بمسائر الأنواع الأخرى. الهدف من تصنيف النصوص إلى أنواع محددة هو دائماً اختصار العدد غير المتناهي من نصوص حقيقية إلى أنماط كبرى قابلة للتحديد والتحليل.

كان للاتجاه الموجه إلى النظام اللغوي من منظور بنائي، لا سيما من منظور الملامح النحوية، إسهامه في نظرية النص. كانت نقاط التركيز فيه مختلفة: طرق توزيع الأزمنة في النص، وطرق استخدام العناصر الإشارية، وطرق الربط الإجمالي ... إلخ. بيد أن أكثر الإسهامات اللاحقة في نظرية النص قد أثبتت عجز البحوث البنائية الموجهة إلى النظام اللغوي وحده عن أن تمدنا بوسائل كافية لتصنيف مناسب للنصوص من حيث هي واقعات في سياق التفاعل الاتصالي. لقد لوحظ أن النص الواحد يمكن أن يشتمل على أكثر من نوع نصي واحد، وهو ما يوجب أن يتعلل نموذج «نوع النص» بصلاحيته لأداء أفعال لغوية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السباقية الموقفة والعلامات الوظيفية الاتصالية، والعلامات البنائية النحوية والموضعية

جميعاً^(١)

ويحدد برنكر Brinker ثلاثة معايير للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللغة النصي:

١- الوظيفة النصية معياراً أساسياً: ويقود هذا المعيار إلى التمييز بين أنواع نصية خمسة: إخبارية (كالخبر والتقارير) وطلبية (كالقانون والطلب) والتزامية (كالعهد والضمان) واتصالية (كالإعراب عن الشكر) وإقرارية (كالوصية).

لوحظ أن هذه الأنواع المحددة في إطار وظيفة النص واسعة جداً، ويمكن أن توزع على نحو آخر إلى أنواع أكبر.

٢- المعايير السياقية: وتجرى على مستوى الوصف الموقف الذي يضم مقولتي شكل الاتصال Kommunikationsform و «مجال الفعل Handlungsbereich». ويحدد الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص. ويميز هنا بين خمسة وسائط: الاتصال المباشر (وجها لوجه) والاتصال الباتني، والاتصال الإذاعي، والاتصال التلفزيوني، والاتصال المكتوب.

ترأس العلامات الموقفية التي تخص كل وسيط على حده أنواعاً للاتصال، من أهمها: المحادثة المباشرة (وجها لوجه)، والمحادثة الباتنية، والإرسال الإذاعي، والإرسال التلفزيوني، والرسالة، والمقالة الصحفية أو الكتاب.

٣- المعايير البنائية: وتتخذ في الجانب البنائي المقولتين الموضعتين: موضوع النص Text thema، والشكل الذي يظهر فيه الموضوع Form der Themenentfaltung، أساسين للتمييز بين أنواع النصوص:

(١) راجع في تفصيل ذلك:

• مورجراند (روبرت): نص الخطاب والإجراء، ترجمة د. هاشم حسن، عالم الكتب، طبعه الأول للجامعة (١٩٨٤) - (١٩٩٨ م) ص ٤١١.

• هاشم (باسل) - ميسون (إيمان): الخطاب والترجم، ترجمة د. عمر فايز صفاري، النشر العلمي والطابع بحمدته الملك سعود، الرياض (١٩٩٩ هـ - ١٩٩٨ م) ص ٢١٥-٢١٦.

• Brinker, Klaus: linguistische Textanalyse. Eine Einführung in Grundbegriffe und Methoden. 3., durchges. und erw. Aufl. (1992) S. 131

(أ) موضوع النص: ويشتمل على التركيز الزمني للموضوع، وهو ما يعرف باسم «التوجه الزمني»: ما قبل الكلام، وزمن الكلام، وما بعد زمن الكلام. مثال ذلك الأنواع النصية: الخبر، والبروتوكول ونحوهما. ويشتمل موضوع النص أيضا على «التوجه المكاني»: أي العلاقة بين المرسل والمستقبل وبين الموضوع :

الموضوع - المرسل

الموضوع - المستقبل

الموضوع - ما يستتق منه شركاء الاتصال. ومثال ذلك التعليق الصحفي .

(ب) الشكل الذي يظهر فيه الموضوع: ويميز هنا بين النص الوصفي، والنص السردي، والنص الحجاجي أو (الجدلي). هذه الأشكال الحكيمة التي تظهر فيها الموضوعات وثيقة الصلة بوظائفها النصية^(١).

إذا ميزنا بين الأنواع النصية الثلاثة: الوصفية، والسردية، والحجاجية، على أساس مفهوم «مراكز الضبط Control Centers في عالم النص، كما فعل دو بوجراند، لראنا أن مراكز الضبط في النصوص الوصفية Descriptive هي . في معظمها . تصورات للشيء والموقف، وهي في النصوص السردية Narrative تصورات الحدث والعمل، وهي في النصوص الحجاجية Argumentative قضايا كاملة تنسب إليها قيم صدق وأسباب لاعتقاد كونها حقائق. ويطلب أن يكون هنالك تعارض بين القضايا التي تتصادم فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدق truth assignment^(٢).

لقد كان من أهم الملل التي أمسكت بها الإسهامات الأولى في نظرية أنواع النصوص: أن كل نظرية تبحث عن القواعد التي تحكم نصا بعينه، وتظهر هل هي قواعد يختص بها هذا النوع، أم أنها قواعد مشتركة. ومن أهم تلك الملل أن كلا من علوم اللغة وعلم الأدب معنى بهشكل تحديد أنواع

(١) Brinker, Op. Cit., SS 133- 139

(٢) النص والخطاب والإجراء، مرجع سابق، ص ١١٥ - ١١٦

مما لا ينفصل عنه، بل هو في حد ذاته خطاب أدبي. وهذا هو المعنى الحقيقي للخطاب الأدبي.

أ) الحجاج والنص الحجاجي :

في علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية المعاصرة عرف الحجاج من زوايا شتى: السمات الموضوعية العامة، أو البنى اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفية الاتصالية، أو التقاطع سمة أولية ماثرة، ... إلخ. تطول القائمة بالتعريفات إن مضينا مع أدبيات علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية، حتى نراها تدنو كثيرا من جوهر الحجاج تارة وتباعد عنه قلبا تارة أخرى. من أهم التعريفات التي نراها أدنى من غيرها إلى جوهر الحجاج ما يلي :

١- الحجاج عند أندرسن Andersen ودوفر Dovre طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة والتأثير في وجهات النظر والسلوك^(١).

سكون الحجاج طريقة من التحليل والتعليل يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين مما يبنى عليه تعريفات أخرى عدة، نراها عند روبرت مير R. Huber^(٢)، وعند كل من ماكبورني McBurney وميلز Mills^(٣)، وعند كل من فيشر Fisher وسايلز Sayles^(٤) وغيرهم.

٢- والحجاج عند بيرلمان Perelman وتيتسكا Tyteca طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تهمس عليهم أو إلى زيادة درجات تلك الاستمالة^(٥).

(١) راجع في تفصيل ذلك

Guejich, Elizabeth - Raible, Wolfgang: Textsorten Probleme, IN: Linguistische Probleme der Textanalyse Schwann, Duesseldorf 1. Auflage (1975) SS 144-197-85

(٢) Ankers, Jerry M. Dovre, Paul. J. Readings in Argumentation Allen and Unwin, Boston (1968) p.3

(٣) Huber, Robert, H. Influencing through Argument David Mc Kay Co Inc New York (1963) p.4

(٤) McBurney, J. Mills, G. E. Argumentation and Debate Mac Millan Co New York (1964) p.1

(٥) Fisher, Walter Sayles, Edward: The Nature and Functions of Argument In Gerald J. Miller and Thomas J. Nilsen (eds.) Perspectives on Argumentation Scott Foresman and Co. Chicago (1966) pp. 3-27, pp. 3-4

(٦) Perelman Ch. Tyteca Olbrechts: Traite de l'argumentation Presses universitaires de Lyon (1981) p.92

في ضوء التعريفات السالفة يمكن تحديد الملامح الأولية لطراز النص الحجاسي فيما يلي:

١- العلاقة بين أجزاء النص الحجاسي علاقة منطقية logical أكثر من كونها علاقة تصويرية Perceptual كما هي الحال في النص غير الحجاسي. ويقصد بالعلاقة التصويرية تلك التي تصدر عن تجربة محددة مقيدة بزمّن التصور ويحدث التصور. والعلاقة المنطقية علاقة استنباطية invented غالباً، في مقابل العلاقة التصويرية المباشرة غالباً في النص غير الحجاسي^(١).

يبين وليم برانت William Brandt ذلك بأن جوهر الحجاج إنشاء رابطة مقنعة بني عبارتين، ومن ثم يعتمد النص الحجاسي اعتماداً كبيراً جداً على بنية أساسية عند عالم المنطق؛ وهي بنية القياس المنطقي. وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكماً على الحجج المقدمة - من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبر عن قضايا محددة - بأنها صالحة أو فاسدة، لا حكماً عليها بالصواب أو الخطأ^(٢).

٢- يبنى النص الحجاسي - في شكله الرئيس - على مكونات ستة، هي: الدعوى (أو النتيجة) Claim، والمقدمات أو تقرير المسلمات Assertion of Data والتبرير Warrant، والدعامة Suppor، ومؤشر المبالغة Qualifier، والتحفظات أو الاحتياطات Reservations. الدعوى نتيجة الحجاج. هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين. تذكر الدعوى صراحة، وقد تضمنت المقدمات تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحوال أو أحداث. وينبغي للمقدمات أن ترتبط بالدعوى ارتباطاً منطقياً، حتى تصلح لتدعيمها. والتبرير بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقاً لملاقاتها بالمقدمات. والدعامة كل ما يقدمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم -

(١) Brandt, William J.: The Rhetoric of Argumentation. 1 st. Printing. USA (1970) p. VII
(٢) راجع في تمثيل ذلك: Brandt, W.: The Rhetoric, op. cit., pp. 22-26

إلخ ، حتى يجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المستقبل. ومؤشر الحال ككل ما يقدم من تمييزات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق، نحو: من الممكن، من المحتمل، على الأرجح ... إلخ. والتحفظات هي الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولة الدعوى^(١).

٣- النص الحجاجي نص تقويمي. والقيمة مفهوم يستبطن مما يقوله الناس، ومما يفعله، ومما تشهده المجادلات. والقيم - مع الدليل ومصادر معقولة الأشياء - تكون المادة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحجاج الذي يستحق منهم الموالاة^(٢). والقيم من أهم المفاهيم التي يبنى عليها النص الحجاجي عند كل من دو بوجران de Beaugrande ودراسر Dresseler. ومن المفاهيم الأخرى: الملة، والممارسة. النص الحجاجي - في نظر هذين الباحثين - نص موظف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار^(٣).

(ج) الحجاج والإقناع :

يمرثي توماس شايديل Thomas Scheidel الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك^(٤). ويرى أوستين فريلي Austin Freely الحجاج والإقناع جزئين من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد Emphasis. يولي الحجاج الدعاوى المنطقية أهمية خاصة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوى الأخلاقية والعاطفية. أما الإقناع، فإنه ينعكس على التوكيد الذي يطلضه^(٥).

في مقابل ذلك يرى كل من هوارد مارتن Howard Martin وسكنيث أندرسن Kenneth Andersen أن كل اتصال هدفه الإقناع ؛ وذلك أنه يبحث عن تحسين رد فعل على أفكار القائم بالاتصال^(٦). يبدو أن هذين الباحثين

(١) راجع لي فصل تلك: Rieke - Sillars: Argumentation, op cit., pp. 77-78.

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) de Beaugrande, R. - Dressler, W.: An Introduction to Text linguistics. (1981) p. 184.

(٤) Scheidel, Thomas, M.: Persuasive Speaking. Scott, Foresman and Co. Glenview (1967) p. 1

(٥) Freely, Austin, J.: Argumentation and Debate. Wordsworth Publishing co. Belmont 2nd Ed. (1966) p. 7.

(٦) Martin, Howard, H. - Andersen, Kenneth, E.: Speech Communication. Allyn and Bacon, Inc., Boston (1964) p 6

بمعنى الإقناع هذا معناه الغلبة، وليس الإقناع التحايل "لأنه يصدر عن وسائل منطقية ونوعية خاصة، يمكن توضيح هذه المسألة بالنظر في موضوع "الحجاة العربية". يكون النص الخطابى حجة إقناعية، ونحوه ليس نصاً حجاجياً بالضرورة؛ لأنه لا يعبر بالضرورة عن قضية خلافية. بمعنى هذا أن كل نص حجاجى نص إقناعى، وليس كل نص إقناعى نصاً حجاجياً. يرتبط الإقناع بالحجاج إذن ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملزمة في محيط أنواع نصية أخرى كالموصفات والسرديات.

(د) الحجاج عند العرب :

وهو الحجاج والاحتجاج والجدل والجدال والمجادلة. يضرب الحجاج بجنور قوية في الخطاب العربى. فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في الحياة القدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية، وفضلاً عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب العلمى البلاغى، على نحو ما نرى في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) عن إعجاز القرآن بإقناع الناس بشكرة النظم، مما طبع دلائله بطبيعة حجاجية واضحة^(١)، فضلاً عن كمال ذلك، شغل الحجاج بعض القدماء جنساً خاصاً من الخطاب. يمكن أن نقف هنا على محاولتين مهمتين في دراسة الحجاج لكل من أبى الحسين إسحق بن وهب (ت ٣٢٧هـ) وحازم القرطاجنى (ت ٦٨٤هـ).

يمكن تصنيف خلاصة فكر ابن وهب في الجدل والمجادلة، في النقاط

الرئيسية التالية:

- ١- قدم ابن وهب تعريفاً دقيقاً للجدل والمجادلة، وضع فيه يده على مقصد الجدل ووقوعه في مسائل خلافية: وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، والتصل في الاعتذارات^(٢)

(١) يلخص صاحب الترجمة أن حجاج عبد القاهر في الدلائل بلوه منطق قائم على ثلاثة: ١- لا لأن ذلك يؤدي إلى ٢- وهو في رأيه منطق أقرب إلى الفن الدلالي من المنطق. ٣- نوعه (حجاء) - دليل الحجاج في دلائل ٤- الإحصاء، بحث مشهور في عهد الخلفاء العباسيين وأعمال ٥- استوفرت كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٦- مجلة معارف - تونس (١٩٩٨م) ص ٢٥٣ - ٢٦٣، ص ٢٦٠.

(٢) ابن وهب (المعروف بإسحق بن إبراهيم بن سليمان) - ت ٣٢٧هـ، في حقه الحسين بن سعيد، ص ٢٥٠ - ٢٥١، ص ٢٥٠. نسخة المخطوط: مسند أحمد بن حنبل، ص ١٣٨١ - ١٣٩٦، ص ٢٥٠.

٢- 'جدل - فيما بينهم من كلام ابن وهب - خطب ثعلبي، قناعي: فالجدل إنما يقع في ثلاثة من بين سائر الأشياء المنسوبة إليها، وينبغي للمحب إن سئل أن يفتح، وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السائل القبول.

وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع، فالغالب هو الذي يظهر ذلك^(١).

٣- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات ونحوها، فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجيه تلك المقامات، بل هو أوجبها. وليس التمييز بين جدل محمود وجدل مذموم - فيما نقم من كلام ابن وهب - إلا تمييزاً ينظر فيه إلى حضور هذا الاعتبار أو غيابه. الجدل المحمود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصديق، والجدل المذموم ما أريد به الممازاة والغلبة، وطلب به الرياء والسمة^(٢).

إذا كان القصد هو الحق والصواب، وجب على المجادل ألا تحمله قوة إن وجدها في نفسه، وصحة في تمييزه، وجودة خاطره، وحسن بديته، وبيان عارضته، وثبات حجته، على أن يشرع في إثبات الشيء ونقضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضده، فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه، ويطفئ نور بهجته، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة^(٣).

والحق أن كثيراً مما اشترطه ابن وهب في أدب الجدل، ينبغي له أن يمرى إلى ذلك الاعتبار الأخلاقي. ومن أهم ما اشترطه :

(أ) أن يحلم المجادل عما يسمع من الأذى والنبز.

(ب) ألا يحجب برأيه وما تسوله له نفسه حتى يفضي بذلك إلى نصعائه.

(ج) أن يكون منصفاً غير مكابر؛ لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه، ويقصده بقوله وحجته.

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥ ، ٢٢٨

(٢) المرجع ص ١٤١ ، ١٤٣

(٣) المرجع ص ٢٢٥

(١١) المرجع ص ٢٢٥

(هـ) ألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به، وإن كان الخصم صغير المحل في الجدل^(١١).

٤- مما ذكره ابن وهب في مبعثي «الجدل والمجادلة» و «أدب الجدل» ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور الاستراتيجيات الاتصالية المحاجية، من أهم ذلك:

(أ) أن يبنى المجادل مقدماته مما يوافق الخصم عليه^(١٢).

(ب) أن يصرف همه إلى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه مما يبنى منها مقدماته، وينتج منها نتائج، ويصحح ذلك في نفسه، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه^(١٣).

(ج) ألا يقبل قولاً إلا بحجة، ولا يرد إلا لملة^(١٤).

(د) ألا يجيب قبل فراغ المسائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره، واستعمال الروية فيه^(١٥).

(هـ) ألا يشغب إذا شاغبه خصمه، ولا يرد عليه إذا أرسى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها؛ فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب^(١٦).

(و) أن يخاطب الناس بما يفهمون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عما توجبه أوضاع الكلام^(١٧).

٥- قول ابن وهب «إن الجدل إنما يقع في الملة»^(١٨)، مطابق لما تقول به النظرية المحاجية المعاصرة. في هذه النظرية الكائنات البشرية صانعة علة Reason-Makers ومستخدمة علة Reason-Users. الوقوف على كيفية

(١١) المراجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٩

(١٢) المراجع نفسه ص ٢٤١

(١٣) المراجع نفسه ص ٢٤٠

(١٤) المراجع نفسه ص ٢٣٧

(١٥) المراجع السابق ص ٢٤٠

(١٦) المراجع نفسه ص ٢٣٩

(١٧) المراجع نفسه ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(١٨) المراجع نفسه ص ٢٤٤

صناعة الناس العطل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوى ومنح الموالات.

وإذا كانت العلة في جوهرها هي ما يقدم ردًا على السؤال «لماذا»، فإن العلة المقنعة هي العلة في أن المستمع يمنح موالاته^(١١).

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ)، فإن أهم ما يمكن أن يستخرج من نظريته العامة في «التخييل والإقناع» موصولاً بموضوعنا، الأمران التاليان:

١- تمييزه بين جهتين للكلام.

٢- تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم.

في تمييزه بين جهتين للكلام يقول حازم: «لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال...»^(١٢).

لعل لفظ «الجهة» يعني - في سياقه - طريقة إظهار الموضوع. ولعل تمييز حازم بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال، يعدل ما رأيناه في نظرية أنواع النصوص من تمييز بين النوعين المردي والمجاعي.

أما «التمويهات والاستدراجات»، فهي من الاستراتيجيات المجاعية المهمة. لم يكن حازم أول من فطن إلى الاستدراج. كان ابن الأثير (ت ٦٢٧ هـ) قد سبق إلى استخراج هذه الاستراتيجيات من النص القرآني. الاستدراج عند ابن الأثير «مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال»^(١٣). وهو عنده «استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم»^(١٤).

إضافة حازم في ربطه التمويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة مما من ناحية، وفي تمييزه بين التمويهات والاستدراجات من ناحية أخرى. يقول حازم: «التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه

(١١) راجع في تفصيل ذلك: 2-3، pp. Rieke - Sillars: *Argumentation*, op. cit.

(١٢) القرطاجني (سفر): «سأخلفه وسأخ الأعداء، تقويم وتحليل عهد الحب من الحزم»، دار الكتب الشرقية، تونس (١٩٩٦) ص ٦٣.

(١٣) ابن الأثير (صباح العبد): المثل السائر، لعمدة وعلق عليه د. أحمد المحمدي ود. بدوي طه، دار النهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢ (١٩٧٣) ٢٥٠/٢.

(١٤) المرجع السابق ٢٥٠/٢.

٢ - النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية :

تسّر الدراسة التطبيقية ثنائية على سبعة عشر نصاً حجاجياً، خمسة نصوص قديمة والأخرى من العصر الحديث. تختلف هذه النصوص في موضوعات الحجاج: موضوعات اجتماعية، ومكانيات رسمية، وموضوعات دينية، وعسكرية، وأدبية، وسياسية. ومن تلك النصوص ما تمتاز فيها الموضوعات وتداخل. كالحجاج السياسي من منظورات دينية. أصحاب تلك النصوص مختلفون في أساليبهم ومشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية. يعطي ذلك كله فرصة أكبر لاستقاء معلومات أوفر عن تفاوت البنى الحجاجية بين تلك النصوص على نحو أو آخر، كما يفسح المجال لاستكشاف الوسائل المختلفة التي توست بها للإقناع والاستمالة.

وهيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية :

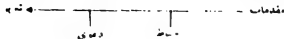
- ١ - من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمون من منع المال - إلى قوله بجمل خط المومر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحانه). (كتاب البخلاء للحافظ ص ٧٨ - ٨١) :
- الدعوى (مذكورة) - المال لم حفظه، والخسرة لم أتلفه، وإنفاقه هو إنفاقه.

شكل الحجاج :



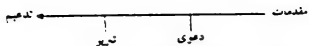
- ٢ - ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا :

النص ١٢ في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٢٠/١ - ٢١)
الدعوى الرئيسية (مذكورة) - جمع محمد * خصال النبوة وخصال الملك.
شكل الحجاج :



النص (٧) : أحسن إلي وأما هؤلاء (١٦٥ - ١١٠)

الدعوى (مذكورة) : فلسفة الإقناع في الأعمال والحب : في كتابه :
: مسائل الأحرار في فلسفة العمل والحب : لا تهم ولا تدل حملتها على شيء.
شكل : فصح



٩ - ١ : نصان لمباس محمود المقاد من كتابه (الفصول) :

النص (٨) : الفزل الطبيعي (ص ٩١ - ١٠١).

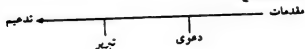
الدعوى (مذكورة) : المشق في طبيعته الأول بمدى عن الرفق والسلامة.
شكل : الحجاج :



النص (٩) : الأدب المصري (ص ١٠١ - ١٠٨).

الدعوى (مذكورة) : التقدم في الأدب تقدم في الإحساس بالأشياء على ما
هي عليه.

شكل : الحجاج :



١١ - ١٠ : نصان لإبراهيم عبد القادر المازني من كتابه (حصار الهشيم) :

النص (١٠) : الأدب ينهض في عصور المشاة لا عصور اللين والأمن
(ص ١٧ - ٥١).

الدعوى (مضمنة) : العنوان السابق هو الدعوى المضمنة والتي استخرجها
لخصائص نفسه عنوانا لمقاله

شكل : الحجاج :

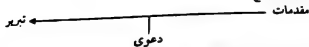


نص الخطاب والاصول الفصل الثالث: النص المحاسني شعري - دراسة في وسائل الإقناع

النص (١١): القدماء والمحدثون (٢٢٣ - ٢٣٩).

الدعوى (مضمنة): القدماء يتميزون بالبساطة.

شكل الحجاج :

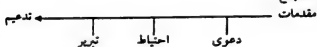


١٢-١٣: نصان لـخالد محمد خالد من كتابه (دفاع عن الديمقراطية) :

النص (١٢): تجربتنا مع الديمقراطية (ص ٣٠ - ٤١).

الدعوى (مضمنة): كان للديمقراطية وجود في بلادنا قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م.

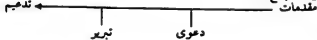
شكل الحجاج :



النص (١٣): قضية تنتظر الفهم الصحيح (ص ١٧٥ - ١٨٩).

الدعوى (مذكورة): الإسلام دين ودولة.

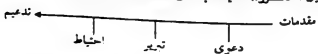
شكل الحجاج :



١٤-١٥: نصان لمحمد زكي عبد القادر من كتابه (الله في الإنسان) :

النص (١٤): التمدد في حياة الإنسان (ص ١١ - ١٥).

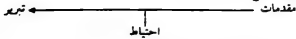
الدعوى (مذكورة): حياة الإنسان عملية معقدة متعددة.



نص (١٤): من "ألم ينبع كمال شيء عظيم (ص ١٤٨ - ١٤٣).

مستوى (مذكورة): من "ألم ينبع كمال شيء عظيم

شكل الحجاج :

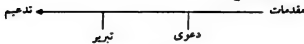


١٦ - ١٧ : نصان للدكتور مصطفى محمود :

النص (١٦) : الحب القديم (من كتابه «الإسلام في خندق» ص ٧ - ١٣).

الدعوى (مذكورة) الدين - في حقيقته - هو الحب القديم الذي جئنا به إلى الدنيا.

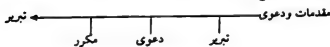
شكل الحجاج :



النص (١٧) : أنشودة الأمل (من كتابه «كلمة السر» ص ١٥ - ١٩).

الدعوى (مذكورة) : الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس .

شكل الحجاج :

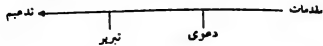


تأمل التصور المختارة وأشكالها الحجاجية يتيح لنا استنتاج ما يلي :

١ - الشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي المكتوب هو النص الذي يبدأ بالمقدمات فالدعوى فالتبرير. وربما اقتصر النص على ذلك كما رأينا في النص الخامس. ولكنه في أكثر الحالات يتجاوز تلك العناصر الثلاثة إلى التدعيم. وفي حالات غير قليلة يتجاوزها إلى الاحتياط والتدعيم جميعا.

٢ - المألوف أن يبدأ النص الحجاجي بالمقدمات، ولكن يندر جداً أن تشغل الدعوى الموقع المألوف للمقدمات، وهذا ما لم نره إلا في نصين اثنين: أحدهما قديم لإخوان الصفا (النص ٣)، والآخر معاصر لمصطفى محمود (النص ١٧).

٢- الشكل الحجاجي الأشيع في النص العربي هو الشكل التالي :



وهو شكل يتسم بالمنطقية التي تعد أمن الحركة الحجاجية المتنامية مترابطة العناصر. ترتبط الدعوى منطقيًا بالمقدمات، ويحرص الكاتب لجعل خطابه مقنعًا ومستميلًا على التبرير والتعليل. ويستخدم دعائم لا يخفى ثراؤها.

١- ربما اتخدت الدعوى في النصوص الحجاجية المعاصرة عنوانًا للنص. ينعكس هذا - على الأقل - وعي الكاتب القوي بتضيقه الذي يذاع عنها.

٢- ربما ضمنت الدعوى، ولكنها تذكر في أكثر الأحيان في هيئة منطوق واحد أو أكثر.

٣- ينس النص الحجاجي عادة على دعوى رئيسية واحدة ، سواء أكانت مذكورة أم مضمنة ، ويلاحظ هنا أن الكاتب يعبر أحيانًا عن هذه الدعوى الواحدة في أكثر من موضع مع النص. هذا ما نجد مثلاً في النص ١٧ (أنشودة الأمل للدكتور مصطفى محمود). في هذا النص ذكرت الدعوى في أوله: «الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس» (كلمة السر ص ١٥)، ثم ذكرت مرة أخرى بعد التبرير في تعبير صياغي لطيف: «إن الدنيا لم تعد هي الدنيا، والناس ما عادوا هم الناس الذين نعرفهم» (كلمة السر ص ١٦).

٤- في أكثر الحالات يلحق الكاتب تبريره بالتدعيم ، والتدعيم - في أكثر الحالات - أدلة منطقية وشواهد وأمثلة تدعم صحة الدعوى الدعوى نتيجة الحجاج. هي المقولة التي تقدم لاستمالة الآخرين. قد تذكر وقد تضمن. هي مقولة شاملة أحيانًا، وتكفي درجة عمومها أحيانًا أخرى من عبارات التكليف: من الممكن، من المؤكد ... الخ. في حالات غير قليلة، يدخل الاحتياط إلى الحجاج، حتى يكون أساسًا للقول بمقتضاه منطق أو عدم مفيوليتها. والتبرير يبعث على المبدأ العام الذي يبرهن على

صلاحية الدعوى في علاقتها بالمقدمات. ويدعم التبرير الدعامة (أو التدعيم). والتدعيم شكل مادة يقدمها المجادل ليزيد من تصديق المخاطب لمقدماته وتبريره؛ ومن ذلك - كما أشرت - الأدلة المنطقية، والشواهد الخاصة، والإحصاءات ... إلخ. وغنى عن البيان أن مقدمات الحجاج مكون أساسية، من حيث إنها تقارير عن أناس، أو أحوال، أو أفعال. وينبغي لها أن تصلح لبلوغ الدعوى.

٨- قد تفرع عن الدعوى الرئيسية دعوى ثانوية. في النص^{١٥} (من الألم ينبع كل شيء عظيم، لحمد زكي عبد القادر) تفرعت عن الدعوى الرئيسية دعوى أخرى ثانوية هي قول الكاتب: «لألم إذن في حياتنا معنى وقيمة» (ص ١٥٢). وهي دعوى ثانوية لسببين :

(أحدهما) أن التبرير في النص ينصرف إلى الدعوى الرئيسية. والآخر) أن محور الدعوى الثانوية هو نفسه محور الدعوى الرئيسية، وهو «قيمة الألم». لو لم تكن الدعوى الرئيسية: «من الألم ينبع كل شيء عظيم»، ما كانت الدعوى الثانوية: «لألم في حياتنا معنى وقيمة». ٩- إثبات الكاتب صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده وسهلته التدعيم وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل Evidence، والتدعيم بالقيمة Value، والتدعيم بالمصداقية Credibility.

(أولاً) التدعيم بالدليل: موقف الحجاج الأبسط والأشيع هو - كما يذكر ريك وسيلارز - تقديم إفادة Statement تحظى بموالاته المخاطب. وربما طوّر المخاطب الحجاج بسؤال أو بدعوى مضادة :

♦ المتكلم: لا تخف هنا على سيارتك !

المخاطب: ولماذا ؟

♦ المتكلم: الجو حار اليوم !

المخاطب: لكنه ليس حاراً كالأمس^(١٦).

ولكن الكاتب بطور حجاجه بإضافة مادة مدعومة لدعواه على نحو يجعل القارئ موالياً لتلك الدعوى. وهو ما يسمى بالدليل.

(١٥) Ruelo Sillers, op. Cit. P. ١١٠

في النص المحاسني العربي، تروى للمادة المدعومة أو الدليل أمطاً شديداً من أهمها .

(أ) أدلة تاريخية: وهي من التاريخ الأدبي في حجاج أدبي المحور (كما تروى في نصي المازني).

(ب) شواهد خاصة: وذلك كحادثة «الخرسوس» التي يرويها طه حسين في مقاله: القديم والجديد (ص ٢٢) عن الشيخ المهدي، وكان يخاطب بلثع الشراب بما لا يفهمه، أراد طه حسين الاستدلال بهذه الأحودة على ما يقع فيه بعض أنصار القديم من تكلف لغة لا تناسب عصرهم.

(ج) وهناك نوع خاص من الشواهد الخاصة، يسميه ريك وسيلارز باسم «المثال الافتراضي أو النظري» *hypothetical example*، وهو الذي يستخدم عندما لا تصلح الأمثلة الحقيقية *real examples* ^(١).

لعل من هذا النوع ما نجده عند طه حسين بخاصة، وأسوق نموذجاً على ذلك قوله في سياق تمييزه للرافعي بين النقد والشاء الخالص: «مكن عاقلاً، وأعلم أن الشاء الخالص الذي لا يشويه النقد، إنما هو كالماء أذهب فيه كثير من السكر، وتوشك إن أسرفت في شربه أن يأخذك الغثيان. وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصراً ثالثاً يحول بينك وبين القن. فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير في أن تقن لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئاً يشبه رسائل أحزان» ^(٢).

ويعني كاتب الحجاج أثر الشواهد والأقبيسة وضرب الأمثال في دعم دعواه وهو يعبر عن ذلك تعبيراً في حالات غير قليلة. من النصوص المختارة ما تروى فيها ذلك: «كقول إخوان الصفا: «وعلى هذا القياس...» ^(٣)، أو «وعلى هذا المثال...» ^(٤) ومن ذلك أيضاً قول المازني: «والآن، فلنسق لك الأمثال

^(١) المرجع السابق ص ٩٩

^(٢) طه حسين، محاسن العرب، دار المعارف بمصر، الطبعة ١٩٩٩، ص ٢٢

^(٣) أبو علي محمد بن إسحاق بن علي بن أحمد، محاسن العرب، دار المعارف بمصر، الطبعة ١٩٩٩، ص ٢٢

^(٤) المرجع السابق ص ٢٢

ليصبح ما يعني^{١١٠}

خدير بالإشارة أن بعض القدماء قد 'التفتوا' إلى علاقة المثل بالحجاج، ومنهم ابن وهب. يقول ابن وهب عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: 'وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها'.^{١١١} والمقدمات مضمومة إلى نتائجها^{١١٢}. ويقول: 'المثل مقرون بالحجة'^{١١٣}. ويشرح مقولته هكذا: 'ألا ترى أن الله - عز وجل - لو قال لعباده: 'إني لا أشرك أحدًا من خلقتي إلا ملكي، لكان ذلك قولًا محتاجًا إلى أن يدل على العلة فيه، ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال: 'فَضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ' (الروم: ١٢٨) فكانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه؛ لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدًا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثله، بل ياتفون من ذلك ويدفعونه، فإله - عز وجل - أولى بأن يتعالى عن ذلك'^{١١٤}.

(ب) التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تنبهه المجادلات. في ضوء دراسة ريك وسيلازر للتدعيم بالقيمة، يمكن أن نرى الملامح التالية للتدعيم بالقيمة في الخطاب الحجاجي العربي:

- (أولاً) القيمة معيار للقول بالجودة أو الرداءة. قد تذكر القيمة، وقد تضمن، ولكن تضمنتها يقع في حالات كثيرة جدًا:
- من تضمن القيمة عند تدعيم التعليل، ما نراه في غير موضع من نصوص طه حسين بخاصة، كقوله: 'وما رأيك في رجل يفلسف في الجمال والحب؛ أي يضع نفسه بين الفلاسفة، بل بين كبار الفلاسفة، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليل، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون

^{١١٠} انظر عبد القادر العادي: 'القدماء والمحدثون'، من كتاب حصاد شمس، لجنة المصرفة للكتاب (١٩٩٩م)، ص ٢٢.

^{١١١} ابن وهب في شرحه لسان، من مجموع رسائل ص ٩٦.

^{١١٢} مجموع الرسائل ص ١١٦.

^{١١٣} انظر ص ١١٦.

لخلاقاً، حيث تدعي ويطلب إلزاماً أن يكتب كتاباً متعلقاً به أو يتضمن من يكتبه، أسفرت الله

يعول الكتاب في تدعيمه هنا على قيمة صدق الكتاب/الإنسان مع نفسه في الفعل، وهو يعتمد على قدرة المخاطب على تعيين هذه القيمة المصنعة من خلال سياق الحجاج السابق.

• ومن التصريح بالقيمة قول خالد محمد خالد: ولا جدال في أن قضايا السياسة ومشكلاتها ومتطلباتها في الذروة من دواعي الاهتمام وحواضر المشاركة. فأي مسلم يعطي لهذه الاهتمامات ولتلك المشاركة ظهراً يكون قد حق عليه قول الرسول الكريم «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»^(٣).

القيمة المصرح بها هنا هي قيمة اهتمام المسلم الحقيقي بقضايا السياسة، وهي وسيلة الكتاب في تدعيم تبريره دعوى تكون السياسة في الإسلام عبادة.

(ثانياً): تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نوعين اثنين: القيمة الوسيطة instrumental value والقيمة الغاية terminal value. الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة. والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتفاه المتكلم^(٤).

يبدو من تأمل عينات الدراسة أن خطاب الحجاج العربي يميل إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى وهذا أمر مهم؛ وذلك أن القيمة الغاية أقوى تأثيراً في الحصول على مستوى من الموالاة adherence يجعل المستقبلين يغيرون من سلوكهم.

من النمط الأول قول المقاد: ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة "عشق الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة، وهي علة استئثار الرجل بالقول دون المرأة"^(٥) ومن النمط الثاني قوله: وإيما الحري بأن يدعي تقدماً من

^(٣) محمد بن جري، سحر و سحر و سحر و سحر، ص ١٠٠.

^(٤) محمد بن جري، سحر و سحر و سحر و سحر، ص ١٠٠.

^(٥) محمد بن جري، سحر و سحر و سحر و سحر، ص ١٠٠.

^(٦) محمد بن جري، سحر و سحر و سحر و سحر، ص ١٠٠.

لأساس.

- (رابعاً) ومما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره. يميل الناس إلى تصديق من يرونهم أكفأ وأمناء. في ضوء خلاصة بحث المصداقية في النظرية الحجاجية المعاصرة التي قدمها ريك وسيلارز في أربع عشرة مسألة، يمكن أن نستنبط من نصوص الدراسة ما يلي:

 - ١- يتمتع أصحاب تلك النصوص جميعاً بكفاءة حجاجية في صناعة الملل وبإمانة في عرض موضوع الحجاج.
 - ٢- أصحاب تلك النصوص جميعاً من الرجال. ويلاحظ أن قابلية تصديق الرجال أقوى من قابلية تصديق النساء. يستش من هذا بالطبع أن تكون المرأة جذابة جسدياً وعقلياً.
 - ٣- سمع أصحاب تلك النصوص مناسبة لطبيعة خطابهم الحجاجي، فكل منهم من أهل الاختصاص في مجال حجاجه الموضوعي.
 - ٤- للإفادات التي قدمها بعضهم عن ذاته، على نحو ما رأينا عند طه حسين وخالد محمد خالد، أثر في زيادة قابلية تصديقهم.
 - ٥- لا يستطيع مستقبلي تلك النصوص الحكم على سلامة نية أصحابها، ولكن نسيج النصوص اللفوي وسياقاتها التاريخية والحضارية تبرهن على سلامة نية أصحابها: فالغاية تميز الحقيقة - على حسب ما يروونه - أكثر من إحراز نصر على خصم أو معارض.
 - ٦- لا شك أن أصحاب تلك النصوص يستندون في مصداقيتهم إلى التحقق - إلى حد ما - من كنهه قيم قرائنهم أو مستمعيهم أو طائفة منهم على الأقل.
 - ٧- مصادر التدليل الأقوى سلطة تزيد من المصداقية. نرى ذلك مثلاً في المقارنة بين النص القرآني والمثل.
 - ٨- جودة تنظيم الخطاب تزيد من المصداقية. وهذه السمة مشتركة بين جميع عينات الدراسة، على تفاوت فيما بينها. وهو تفاوت يبدو مثلاً من مقارنة نص رسالة الإخشيد نص لمصطفى محمود.
 - ٩- يبدو أن تدفق العبارة في نصوص مصطفى محمود مثلاً، وإخراجها في

هيئة صرخات عالية متعاقبة خالية من التكلف أو تائق في نظام السبيل.
تزيد - فيما نرى - من مصداقيته.

١٠ - وتشترك نصوص الدراسة في سمة أخرى، هي أنها تبني جميعاً على لغة غير متمنعة، ولا يظهر فيها تشبث المتكلم براه، مما يزيد من مصداقيتها وحركتها. وتأتى وفرة أساليب القصر ودوال الاعتقاد في نصوص مكاتب كالمقاد، تأتى - فيما أحسب - عن أن تكون مظهراً لتفتت أو تشبث بال رأي؛ وذلك أنها - بالأحرى - سمة أسلوبية تسمح بها العربية آتية للتعبير عن وثوق المتكلم بمعتقد قبل مستمعيه.

٣- وسائل الإقناع :

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع في النص الحجاجي العربي، وهي: الوسائل المنطقية - الدلالية، والوسائل اللغوية، والوسائل الموقفية. التفاعل بين تلك الوسائل جميعاً وأنماطها المختلفة في أداء الوظيفة الإقناعية هو الأمر الطبيعي. وليست معالجة شكل نوع منها على حدة إلا قصداً إلى بيان صورته وهيئاته البنائية والدور الخاص الذي يشغله في تلك الوظيفة العامة. ونظراً لارتباط الوسائل الموقفية بالخطاب المنطوق في المقام الأول، فسوف نمضي بالتوعية الأوليين فقط.

(أ) الوسائل المنطقية - الدلالية :

العلاقات النصية التي يقيمها سياق النص الحجاجي - من خلال عرضه على مفهوم النص العام - هي علاقات الدعوى أو النتيجة. ويشترط - من المنظور الدلالي - أن يرتبط محتوى النتيجة بمحتوى المقدمات^(١). ويمكن أن نميز في النص الحجاجي العربي بين الوسائل المنطقية - الدلالية التالية :

١/ القياس المنطقي :

القياس المنطقي بنية أساسية في كل خطاب حجاجي، ومن ثم يميزه الباحثون الاهتمام الأكبر. في البيان الأول من برهان ابن وهب، وهو الاعتبار،

(١) schnelle Helmut: Zur Explikation des Begriffs "Argumentativer Text" in Linguistische Probleme der Textanalyse. Schwane. 1. Auflage. (1975) 55-56

يذكر القياس . القياس في اللغة: التمثيل والتشبيه. ولا يجب القياس إلا عن قول متقدم، فيكون القياس نتيجة لذلك. ربما كان هذا القول في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتجه من أفهام المخاطب ولا يجب قياس عند المناطقة إلا عن مقدمتين، لإحداهما بالأخرى وتعلقه^(١).

ويرى إخوان الصفا أن وضع المقلاء للقياسات يصير داعها إلى طلب الحجة عند خصمائه، ويكون سببا لفوضى النفوس في طلب المعاني الدقيقة ووضع القياسات واستخراج النتائج، ويكون سببا لبقطة النفوس، وانتباهها لها من السهو^(٢).

أهم ما في كلام ابن وهب إشارته إلى التعلق بين المقدمتين في القياس، وارتباط عدد المقدمات بقدر ما يتجه من أفهام المخاطب أما أهم ما في كلام إخوان الصفا، فهو أثر القياس في النفوس وانتباهها. المخاطب مؤثر في بنية القياس ومتأثر به في أن مما. التعلق بين المقدمات للوصول إلى نتائج والتركيب على المخاطب أو المستمع هما الأمران الأهم في مبحث القياس المنطقي في النظرية الحجاجية المعاصرة؛ فالقياس المنطقي Syllogism وسيلة منطقية من وسائل التعليل بين الأقوال Statements. في القياس المنطقي يصبح أحد القولين مرتبطين بالآخر عن طريق تعليلهما بقول ثالث يمثل طبقة من الموضوعات أو المفاهيم أعلى من القولين الآخرين. وما ينتج عن ذلك هو المعادل الحجاجي argumentative equivalent لما يسمى بالاستدلال deduction عند المناطقة^(٣).

يفهم القياس المنطقي فهما أفضل في ضوء تأمل كيفية فهم عالم المنطق له. القياس المنطقي التقليدي هكذا :

كل الناس فانون

سقراط إنسان

سقراط فان

لهذه البنية ثلاثة أقوال: الأول المقدمة المنطقية الكبرى Major Premise والثاني المقدمة المنطقية الصغرى minor premise والثالث النتيجة conclusion.

(١) الأعلام، مرجع ص ٧٦ - ٧٨

(٢) رسائل إخوان الصفا، مرجع سبق ١٨/٤

(٣) راجع في نفس ص ٢٤ op cit p 24 Brandt, Wilhelm: The Rhetoric of Argumentation.

ليس المأمور عليه العدد: فلا بد لبناء قياس منطقي من وجود تعلق دلالي منطقي بين الأقوال الثلاثة، وذلك بأن تكون المقدمة الصفري منضوية تحت الطبقة أو المفهوم الذي تقدمه المقدمة الكبرى، وهو ما يتضح من القياس التقليدي السابق.

وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي هي الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب - أي المقدمة الكبرى - إلى ما هو مشكك: أي إلى النتيجة. يقول وليم برانت: «إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج - إذ ذاك - سدى»^(١).

بدلنا فحص عينات الدراسة على أن القياس المنطقي من البنية المنطقية - الدلالية المهمة في النص الحجاجي العربي، ولعله الأهم على الإطلاق من أمثلة القياس المنطقي في تلك العينات ما يلي:

♦ يقول الكندي في سياق احتجاجه لبغلة: «فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أنفقه، وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»^(٢).

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): الحسرة لمن أنفق المال.

(المقدمة الصفري): إنفاق المال هو إتلافه.

(النتيجة): الحسرة لمن أنفق المال.

♦ ويقول إخوان الصفا في سياق الاحتجاج للعلاقة بين خصال النبوة والإمامة والملك: «والكلام في خصال الإمامة ... قبل معرفة خصال النبوة ... وقبل معرفة خصال الملك وشرائطه والفرق بينهما كلام على غير أصله. وكل كلام على غير أصل هذيان لا تحقيق له»^(٣).

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): كل كلام على غير أصل هذيان.

(المقدمة الصفري): الكلام في خصال الإمامة قبل ... كلام على غير أصله.

(١) المرجع السابق ص ٣٢.

(٢) السلاص ص ٧٨.

(٣) سطر: إخوان الصفا ١/ ٣١.

(النتيجة): الكلام في خصال الإمامة قبل ... هنيان.

في النص الحجاجي المعاصر يعتمد الكتاب على القياس المنطقي أحياناً، لا سيما طه حسين. من نماذجه عند طه حسين قوله عن أنصار القديم: «وإذا فهم بين اثنين: أن يكونوا صادقين حين ييكون القديم ويحرصون عليه، فيم يحبون حياتهم كارهين ويأخضون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي. فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والمطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راغما ويلذ راغما ويألم راغما اه^(١)».

يمكن اختزال القضايا في القطعة السابقة إلى الشكل التالي :

(المقدمة الكبرى): من يحيا حياته كارهها خلق بالرحمة.

(المقدمة الصغرى): أنصار القديم (صادقين) يحبون حياتهم كارهين.

(النتيجة): أنصار القديم خليقون بالرحمة.

بدني أن كتاب الحجاج لا يمرض أقواله دائماً في الصياغة والترتيب المباشرين كالنموذج القياسي التقليدي، بل كثيراً ما يخالف في الترتيب ويزيد في العبارة بأحد الأقوال وربما توزعت أقوال القياس على مساحات شتى من النص. ولكن القارئ الذي ينبغي له أن ييذل مع النص الحجاجي جهداً خاصاً، لن يفسر عليه معرفة الصلات بين تلك الأقوال وإن تنامت من ذلك مثلاً ما وقع في نص للمازني، وهو مقاله «القدماء والمحدثون»، الجملة الأولى من الفقرة الأولى من النص هي: «البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر»^(٢).

والجملة الأولى من الفقرة الثالثة هي قوله: «كذلك عظماء الدنيا

يمتازون بالبساطة»^(٣). العلاقة بين الجملتين تقدم لنا القياس المنطقي التالي :

(المقدمة الكبرى): البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس

والنظر.

(المقدمة الصغرى): عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة.

(النتيجة): عظماء الدنيا يمتازون بمظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس

(١) من ملل القدم وأغيد، ص ٢١٢، حيث أورد: «اه»

(٢) مقال القدماء، المنشور في كتابه - ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٢

والمنطق.

٢/١ القياس المضمّر :

القياس المضمّر Enthymeme أحد أنواع القياس المنطقي. معيار القياس المضمّر أنه قياس محذوف المقدمة، وهي عادة المقدمة الكبرى "عندما نقول: الوطن جدير بالولاء لأنه يساعد على تربية المرء، سوف يستلزم القياس المنطقي الكلي القياس المضمّر التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: كل شيء يساعد على تربية المرء جدير بالولاء.

(المقدمة الصغرى): (لمذكورة): وطن المرء يساعد على تربيته.

(النتيجة): وطن المرء جدير بالولاء.

غني عن البيان أن المقدمة المحذوفة سوف تبسّ على القولين الآخرين وقد وصل أحدهما بالآخر على نحو مناسب.

من أمثلة القياس المضمّر قول طه حسين في سياق احتجاجه لرابيه في تراجمي رمزاً لأنصار النقدية: "هَذَا كَانَ لِي أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَمْثَالِهِ مِنْ نَاسٍ الَّذِينَ يَمَسُّونَ الْقَدِيمَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِهِ وَلَا هُمْ صَحِيحٌ لَهُ نَصِيحَةٌ. هَبْ أَنْ يَصْدُقُوا حِينَ يَكْتُبُونَ، فَقَدْ كَانَ الْقَدَمَاءُ صَادِقِينَ حِينَ يَصْدُقُونَ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْقَدَمَاءُ".

يمكن عرض القياس المضمّر في القطعة السابقة على النحو التالي

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: يفهم الكتاب حين يكون صادقاً فيما

يكتب.

(المقدمة الصغرى): لمذكورة: كان القدماء صادقين حين يكتبون.

(النتيجة): لمذكورة: ومن هنا فهمنا القدماء.

أشير هنا إلى دور الاستنباط في القياس المضمّر، حين يمتد الكلام شيئاً ولا يكفّر سبيل تقدير الطلقة الكبرى في المقدمة الكبرى إلا بالاستنباط. من ذلك ما نجد في قوله طه حسين عن الراجعي أيضاً من النص السابق

Brund William: The rhetoric of Argumentation, 192

منهج المنطق والجدل

منه ما لم يكن فيه شيء من هذا المعنى. فمضى الراغب قد انتهى من القول
والجمع في حيث قيل فيه أنه اعصبى. وأما كونه أسبع كلامه فتبطلني
بما في المتن من معنى من المجلس اقتلاعا. بل عرفت منه مرتين. تركته
عن عصبى. عرفت إلى «مبطل» فتبطلني. فتركت له السبابة. كلاما.
وأحاطا حيث مر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه ولو فسره شيء
آخر يشبه استئصال الظل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب. وأخطأ
حيث قرر أن ثيابي كانت تبطلني. ومع تبطلني ثيابي؟

قد يكون من الحق على الراغب لو أنصف نفسه أن يعلم أي من قوم
قد بلغوا السفاهة ما أحسنوا بلاهم وصبروا لهم واحتملوا منهم شرا كثيرا لا
ضارين ولا متخرجين ولا مستغنيين في ثيابهم^{١٢٩}

يمكن تصوير القياس المضمرة في القطعة السابقة على النحو التالي.
(المقدمة الكبرى): لعضرة: السفاهة من فسروا اقتلاعي من المجلس
بأنه أثر الخوف.

(المقدمة الصغرى): مذكورة: فسّر الراغب اقتلاعي من المجلس بأنه أثر
الخوف.

(النتيجة): مضمرة: الراغب سفيه (أو أحد هؤلاء السفهاء).
يبدو القياس المضمرة في مثل هذه الحال آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو
غرض يشبه ما يسمى بالتمريض للبقيا. والتمريض للبقيا آلية في الخطاب يعمل
لها القدماء بتمريض الله بأوصاف المناهقين وإسماكه تسميتهم إبقاء عليهم
وتألفا لهم^{١٣٠}.

يستوجب القياس المضمرة حضورا يقظا للقارئ مع النص. يستبعد له من
سياق الحجاج مقدمته المحذوفة. فمضرب مثلا آخر على ذلك قول المازني:
المذهب القديم لا يعمل على حجة ولا يستند إلى عقل: فسكان وما يزال حسبه
من المقاومة الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس وعلى اعتياد
الجماعير الطريقة القديمة^{١٣١}.

^{١٢٩} راجع لسانه ص ١٢٩.

^{١٣٠} راجع لسانه ص ١٣٠.

^{١٣١} راجع لسانه ص ١٣١.

يمكن تصوير القياس المضمّر في هذه القطعة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضممرنا: الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس ليس حجة ولا يستند إلى عقل.

(المقدمة الصغرى): لمذكورنا: المذهب القديم يعتمد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس.

(النتيجة): لمذكورنا: المذهب القديم لا يعمل على حجة ولا يستند إلى عقل.

يتضح مما سبق وفرة إضمار المقدمة الكبرى، حتى صار ذلك معيار القياس المضمّر المؤلف. ولكن قد تضرر المقدمة الصغرى بضرب مثالا على ذلك من عيّنات الدراسة قول طه حسين في سياق احتجاجه لرايه في العلاقة بين القديم والجديد: "نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد. وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا في فعل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطوراً وكان التطور بطبيعته انتقالاً من حال إلى حال"^(١).

ينبغي للقياس المضمّر فيما سبق أن يبدو على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمذكورنا: القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية.

(المقدمة الصغرى): لمضممرنا: مصرامة حية.

(النتيجة): لمضممرنا: القديم والجديد مسألة تلازم مصرم.

في القياس المنطقي لا بد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى وإلا كان الحجاج عبثاً، وفي القياس المضمّر يسلم المخاطب حداً بتلك المقدمة. القياس المنطقي والقياس المضمّر هما الشكلاّن اللطقيان الأعم في الخطاب العجالي العربي.

٣/١ القياس المتدرج :

القياس المتدرج Sorites - شأنه شأن القياس المنطقي - شكل من أشكال تحديد العلاقات المنطقية - الدلالية بين الأقوال وما تعبر عنه من نصلياً. يعد القياس المتدرج امتداداً معقداً للتعليل القائم على القياس المنطقي:

^(١) "أحد شعور خبيث" من حيث: "أرجاء" ص ١٠٥

وذلك بأن تتصل بعض مجموعات 'مقاييس المنطقية' ببعض حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة⁽¹⁾

يمكن أن نصرب مثالا توضيحيا على القياس المتدرج فيما يلي

كل المسافرين للموضة متحررون من القيود.

كل المتحررين من القيود مزعزعون.

كل المزعزعين مرضى عقليا.

كل المرضى عقليا في حاجة إلى التماطف.

كل المسافرين للموضة في حاجة إلى التماطف.

يلاحظ فيما سبق أن المقدمتين الأولى تقودان إلى نتيجة صالحة 'كل المزعزعين مرضى عقليا'؛ وذلك أن التعبير 'متحررون من القيود' موزع على المقدمة الصغرى: 'كل المسافرين للموضة مزعزعون'. وهذه هي المقدمة الكبرى غير المعبر عنها والتي تقود مع القول الثالث: 'كل المزعزعين مرضى عقليا'، إلى نتيجة أخرى جديدة: 'كل المسافرين للموضة مرضى عقليا'، وهي نتيجة ترجع بدورها إلى المقدمة الكبرى التي كان القول الرابع مقدمتها الصغرى، وكان القول الخامس نتيجة القياس المنطقي الضمني والاستنتاج المتدرج الكلي.

يبرهن المعينات على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على القياس المتدرج من أحد الناصحين المختارين له، وهو 'القديم والجديد' يقول في سياق عرضه للخلاف الدائر بين أنصار القديم والجديد في الأدب: 'نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد - إنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة يطبقها تطورا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال، وكان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل فليس للجديد بدٌّ من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة، وليس للقديم بدٌّ من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس'⁽²⁾.

يمكن تصوير القطعة السابقة في نسق القياس المنطقي المتدرج على النحو التالي:

(1) Brandt, William: The Rhetoric of Argumentation, p 31

(2) طه حسين: القديم والجديد، ص ١٠٢

- الرقاهية إدمان.
- الإدمان يفسد الجسم والروح والمقل.
- الرقاهية تفسد الجسم والروح والمقل.

يبين القول اللاحق على جزء من القول السابق حتى ينتهي القياس المترج إلى نتيجته. في القياس المنطقي التقليدي تنتمي المقدمة الصغرى إلى الطبقة الأعلى في المقدمة الكبرى. وهذا تمييز واضح بين النوعين.

هذا ويشير ولهم برانت W.Branti إلى أن الاستنتاج المترج مهم جداً للحجاج؛ وذلك أنه يسمح للكاتب بطرح خطوات واضحة تطبع حجاجه بطابع الهدوء. ولكنه الهدوء الذي لا يصل إلى الحركة البطيئة جداً والتي تضيق على القارئ انتباهه^(١).

من الجائز توسيع ملحوظة برانت السابقة حتى تسرى على أشكال القياس المنطقي جميعاً؛ وذلك أنها جميعاً تسم الخطاب الحجائي بسمه الهدوء الذي ينتج عن بنائها على التفصيل والتقسيم، واحتياجها في الربط بين الأقوال وصولاً إلى النتيجة إلى الأناة والانتباه.

لعل ارتباط الأقيسة المنطقية بالهدوء متناسب تناسباً طردياً مع ميل النص الحجائي في موضوع ديني أو فكري إلى توظيف القياس المنطقي والقياس المستمر والقياس المترج وسائل إقناعية. في مقابل ميل النص الحجائي في موضوعات عامة أو اجتماعية إلى الاحتفاء بالقياس على التظير وضرب الأمثال والشواهد من الحياة والخبرات اليومية.

ومهما يكن من أمر، فإننا نرى فيما اشتمل عليه النص الحجائي العربي من أشكال مختلفة للقياس المنطقي، ما يهدم زعم باربرا جونستون صحتها^(٢) "H.J.Koch تزعم باربرا أن الحجاج الغربي يعتمد على قالب من البرهان غنت على القياس المنطقي Syllogism Model of Proof. في مقابل الحجاج العربي الذي يقنع عن طريق عرض دعاويه الحجائية argumentative claims عرضاً لمعياً بالترديد وإعادة الصياغة عرض الحجاج العربي دعاويه

^(١) W.Branti, op.cit. p. 47.

^(٢) Koch, Barbara Johnstone. Presentation & Proof: The Language of Arabic Rhetoric. Anthropological Linguistics Vol. 25 No. 1 (1983) pp. 47-68 p. 47.

نوع من وسائل اللغوية ...
 الوسائل اللغوية ...
 الوسائل اللغوية ...
 الوسائل اللغوية ...

أ) الوسائل اللغوية :

الوسائل اللغوية واللفظية في شكل نص حجاجي هي سداء ونعمته. كانت
 لغة أداة اللفظية لمقل النحوي أو النسيجه في شكل قياس مطلق. ولما كانت
 لغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استرجاع إلى
 الدعوى المتبر عنها وإقناعهم بمصداقيتها. وهو أمر يرغب في البحث عن
 بدائل لغوية لما نالته في مواقف غير حجاجية، فإننا نقتصر هنا على
 استكشاف الوسائل اللغوية ذات الصلة الوثيقة بالإقناع وتحليل أنماطها
 المختلفة. إن تحليل لغة النص الحجاجي من منظور الاختيار اللفظي،
 والتكثيف اللغوي، وخصوصية البنية المجازية، وكيفيات توزيع الجمل
 البسيطة والمرسكة والمعقدة والمرسكة المعقدة، وطبيعة الإحالة الضمنية
 (كاستخدام نحن ونا للمعظم نفسه إزاء خصمه على نحو ما نجد مثلاً في
 مكاتبة الإخشيدي إلى أرمانوس)، فضلاً عن بحث العلاقة بين اللغة والتقنيات
 للحاجية الموقفية: كالأستدراج، والمناورة (لا سيما بالجمل الافتتاحية)،
 ومعاورة المخاطب المفترض، والتظاهر بالتقائية ونحوها، لمن مجالات البحث
 اللغوي الاتصالي المهمة التي تزودنا بمعطيات مفيدة عن النص الحجاجي
 العربي. نمن إليها الحاجة في حقل تحليل النص العربي. ولكننا - كما
 أشرنا - سوف نقتصر هنا على تحليل البنية اللغوية التي يقلب وقوعها في
 النص الحجاجي العربي والتي تزود بأدوات مهمة في الإقناع والاستمالة، بما
 يحمله تمايزاً - إلى حد بعيد - عن غيره من أنواع النصوص الأخرى.

بناء على ما تقدم، يمكن أن نميز بين عدد من البنى اللغوية، من أهمها:
 سية التكرير، وبنية التوازي، وبنية الأزواج أو التوازن.

ب) بنية التكرير :

يودنا استقراء بعض المصادر البيانية بطائفة من المعطيات المهمة عن
 التكرير، يحملها فيما يلي
 التكرير (ويسمى أيضاً بالتدبير، والتدوير) وتختلف خطابه ...

عنها بالإفهام والإفصاح والكشف^(١)، وتوكيد الكلام والتشديد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته^(٢).

٢- ليس التكرير محض وقوع للفظ في الكلام أكثر من مرة، أو صياغة المعنى الواحد أكثر من مرة. يخرج عن حكم التكرير مثلاً إطالة الفصل من الكلام واعتقار أوله إلى تمام لا يفهم إلا به. يقتضي سبيل الكلام - إذ ذاك - أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل. مثال هذا قوله تعالى: ﴿لَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَلُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمِقَالِ مَنْ عَذَابُهُمْ﴾ قال عمران: (١٨٨).

٣- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب. يقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): «إذا صدر الأمر من الأمر على المأمور بلفظ التكرير مجرداً من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقفاً بوقت معين، كان ذلك حثاً له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقهام: «قم قم قم» فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة»^(٣).

٤- التكرير ظاهرة لغوية مقامية. من أهم ما يدل على هذا الفهم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتصل قصداً إلى التأكيد والتقرير لما ينفي عن المتكلم ما رمى به^(٤).

٥- قدمت محاولات لتصنيف أنواع التكرير. من أشهر التصنيفات ما قدمه ابن الأثير:

(أ) التكرير في اللفظ والمعنى.

(ب) التكرير في المعنى دون اللفظ.

من النوع الأول قولك لمن تستدعيه: «أسرع أسرع». ومن النوع الثاني قولك:

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، كتاب التفسير، ج ١، ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٠١.

الإنجليزي والنثر العربي أنه «على عكس التطور في الإنجليزية من لغة شفوية إلى لغة كتابية، نزلت العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتقاليد شفاهية oral traditions»^(١).

وترى باربرا جونستون سكوتش B.J.Koch أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على المرض اللغوي للدعوى الحجاجية بتكريرها وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية متكررة. وترى أن هذا الطراز من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي. وتسمى باربرا هذه الاستراتيجية البلاغية: استراتيجية الإقناع بالتكرير repeating وبالصياغة الموازية rephrasing وإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسميها باسم «استراتيجية المرض Presentation» (استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره)^(٢).

أما ارتباط العربية بتقاليد شفاهية، فهو أمر تثبته البني اللغوية للنصوص ونرى له آثاراً عدة على المستوى الصوتي - الصرفي والمستوى التركيبي معاً. ووقوف القدماء من اللغويين والنحاة على تلك الآثار دليل تاريخي قديم على الوعي بوجوده وأما إطلاق سكوتش القول بالتكرارية في الحجاج العربي، فأمر نريد هنا تقييده باستقراء النصوص.

تقبل أنماط التكرير في النصوص المختارة لهذه الدراسة أن تصنف بأي طريقة للتصنيف. نختار هنا أن نصنفها إلى صنفين رئيسين: تكرير الشكل، وتكرير المضمون. يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والمباراة أو الجملة، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون الذي أثرته على ما أسماه بعض القدماء مثل ابن الأثير بتكرير المعنى؛ وذلك أن ما سمي بتكرير المعنى لا يكون المعنى فيه مكرراً، بل يتغير بتخصيص أو تعميم أو اشتراك في جزء من المعنى. وإذن ما يجمع المعنى والمعنى هنا نقل مضمون عام واحد.

(١) Ortler, Schurley, E. English in Parallels: A Comparison of English and Arabic Prose. South California Uni. Pp. 166-185, p. 172

(٢) Koch, H.J. Presentation, op. cit. p. 2

- ومهما يكن من أمر - فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل، وفقاً لما يتجلى لنا استقراء النصوص المختارة، وهي:
- ١ - تكرير المكرر بذاته، سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك، في منطوق واحد، أم غير ذلك.
 - ٢ - التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة.
 - ٣ - التكرير بإعادة الصياغة.

أما (النوع الأول)، وهو تكرير المكرر بذاته، فقد يكون لفظاً مفرداً؛ كقول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «فإن كانوا كذلك، فهم خليقون بالرحمة والمطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راغماً ويلذ راغماً ويألم راغماً»^(١). وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتفكير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث، والطعام الملوث»^(٢). وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي العربي امتداداً أبعد كثيراً حتى يبدو النواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسة. ومن ذلك مثلاً كلمة «متعددة» في نص «التمدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظرة إلى الأمور له وجوه متعددة، وهو من حيث إنه إنسان له عقل، تخطر عليه تساؤلات متعددة، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة...»^(٣).

يريد الكاتب بالتكرير فهما سبق تثبيت تبريره دعواه، حيثما يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض ضده.

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهز بالخصم وفضح جهله، نضرب مثلاً على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «إذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة، فهي أن يصدقوا حين يكتبون، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ومن هنا فهمنا القدماء

^(١) مقال «القديم والحديث» من كتاب: حديث لأرجاء، ص ١٠٣.

^(٢) مقال «التقدم والأمل» من كتاب: شمس الشرق، كتاب اليوم، د. حيدر لوم (١٩٩٨)، ص ١٤.

^(٣) مقال «التمدد في حياة الإنسان» من: شمس الشرق، د. حيدر لوم، ص ١٤٠.

ولم تفهم هؤلاء السادة «المقادمين»^(١).

في عبارة «هؤلاء السادة المقادمن» سخرية واضحة بالخصوص الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القدماء» قبلها.

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم. وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كثافة اتصالية حجاجية عالية. تؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الراضي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأصنوا بلاهم، ... ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضح صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحدا، أو يبسم ثفره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحدا»^(٢). وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب ويمكن في الموضوعين الثالث والرابع الاستغناء عنها، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ تهييج خصمه - موصوفا بالسفه - مع كل مرة (التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه وكشف حقيقته.

من ناحية أخرى، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة. ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعا. يلفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج أم وقعت المقدمة والدعوى في مكانيهما المتتادين. في مقدمة حجاجه، نرى للكندي هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه». وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيها سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «فالمال لمن حفظه، والحصرة لمن أثلفه»^(٣). ينكر طه حسين على أنصار تقديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس

(١) «خطاب حسن إلى...» من حديث الأرواح ١٦٦/٢

(٢) «تاريخ لبنان» ١٢٢/٣

(٣) «الخطبة» ص ٧٨

والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسى رفضاً، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة - أريد أن أرى هؤلاء، ولكنني يائس من رؤيتهم^(١١). التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية ممتدده، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة؛ لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المتقد.

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح، يكرر منطوقه تثبيتاً لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى. من ذلك مثلاً المباراة وليس من القديم الصالح في شيء، المكررة يصدر كل منطوق فيها يلي: وليس من القديم الصالح في شيء أن تتنير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التنير أو ثلاث بينه وبين اللفظ. وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة، فلا تستطيع أن تتلق باسمها إلا إذا وجدت لها اسماً عربياً ورد في المعاجم اللغوية القديمة. ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشمره غيرك من القدماء، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء... ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بمسلك سبل القدماء في وصف الجمال، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا^(١٢). وتكرر الجملة جزءاً من منطوق كامل في عجزه أيضاً؛ كقول محمد زكي عبد القادر في توصيفه واحدية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المعاناة، والفن العظيم جاء من المعاناة، والحب العظيم جاء من المعاناة...»^(١٣) يهدف التكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدل مفهوماً أكثر. إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه.

أما (النوع الثاني)، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فقرأه في غير نص من النصوص المختارة. يمكن أن نرى من ذلك قول

(١١) مقال «القديم والحديث» ص ٣٥، حيث أورد: ٣٠

(١٢) مقال «القديم والحديث» ص ٣٥

(١٣) مقال «القديم والحديث» ص ٣٥، حيث أورد: ٣٠

بخوف: نصفاً: «واعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس بمجبر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركه»^(١).

أما المكاتبة الإخشيد، فهي من النصوص الحجاجية القليلة التي تعرض نموذجاً يتسع فيه مدى هذا النوع حتى يصير آلية لغوية مهمة من الآليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها. من هذه المكاتبة قوله مثلاً مخاطباً أرماتوس: «ولن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يمل محلاً، ولا أغني غنائنا، ولا ساس في الأمور سياستنا»^(٢). في هذه المكاتبة نجد أمثلة أخرى عدة على هذا النوع، نحو «القدرة القادرة» ونشر «التلشين» و«قول القائلين» و«يفوت عددها عدّ العادين» و«جبرية الجبارين» و«شكر الشاكركين» و«سمى لها سميها» و«سلك مسلحها» و«قلت قولا» ... إلخ^(٣). تنعكس مثل هذه البيئة من التكرير المبنية على: فعل + اسم فاعل، أو: فعل + مفعول مطلق، تنعكس - في سياقها الحجاجي - حالة من حالات «تأثير في سلوك الخصم - في منازعة محتدمة - باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعاني على مبدأ التجانس».

أما (النوع الثالث) من أنواع تكرير الشكل، فهو تكرير بتغيير في التركيب، يتسع فيه المدى عادة بين الشكل الأول والشكل الثاني. أضرب مثلاً على ذلك قول المازني في سياق البرهنة على فوز المذهب الجديد في الأدب: «ولو شئنا، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب ونحريره، لباهنا بالمذهب الجديد فيه ويفوزه على صنوف الاستبداد»^(٤). يبرهن الكاتب على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكرراً العبارة السابقة في تغيير التركيب: «فإن المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب الاستبداد»^(٥). الترجيع في هذه الحال تشييد للمعنى ووجهة النظر.

^(١) ص ٢٠١، ج ١، العدد ١٤٨/١

^(٢) كرس (مشتق من أرماتوس) في كتاب: حكاية رسائل العرب، مع أحد دكمي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى السيد، المحلى، ط ١٩٦٦ هـ - ١٩٤٦ م، ١: ٢١١

^(٣) ص ٢٢١ - ٢٢٢

^(٤) ص ٢٢٢، في مصدر الكلمة من كتاب: حكاية صفوت، ص ٢١١

^(٥) ص ٢٢٢

ب/١- ب - تكرير المضمون :

يبني تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى. وتتيح لنا النصوص المختارة تصنيف تكرير المضمون إلى الأنواع الأربعة التالية:

- ١- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر، في جملة واحدة أو منطوق واحد.
- ٢- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليتين.
- ٣- تكرير مفردتين في ثنائية.
- ٤- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين.

وفيما يلي تفصيل هذه النوع :

(النوع الأول) وهو تكرير مفردتين أو أكثر في جملة واحدة أو منطوق واحد لمعنى واحد، أو لمعنى عام واحد. وهذا النوع لم يخل منه نص من نصوص الدراسة، بل تظهر الإحصاءات أنه النوع الأشيع؛ فهو يمثل حوالي ٥٤٪ من مجموع أنواع تكرير المضمون؛ أي ما يربو على نصف كم الأنواع الأخرى مجتمعة.

يمكن أن نميز لهذا النوع بين أشكال فرعية عدة :

(أولها) يستخدم فيه الكاتب مفردتين أو أكثر على أنها مترادفة وأن إحداها يمكن أن تحل محل الأخرى. وهذا الشكل هو أكثر أشكال هذا النوع وقوعاً في النصوص الحجاجية العربية. إنه يمثل ما يقرب من ٧٥ ٪ من جملة الأشكال الأخرى.

من أمثلة هذا الشكل قول الكندي لمعاليه وأصحابه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله»^(١).

يرى الكاتب في الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى عام واحد آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملاً، حيثما تقصر المفردة الواحدة - في ذلك السياق الحجاجي - عن أداء هذه الوظيفة. يعني هذا بالطبع أن الترادف لا يبلغ - مهما بدا قريباً - أن يكون ترادفاً كاملاً.

(ثانيها) ارتباط الثاني بالأسول ارتباط السبب بالمسبب وهذا الشكل يلي سابقه من حيث الشيوع. ومن أمثله قول إخوان الصفا في مقدمة احتجاجهم

سنة لإمامة، وبدرت بين التناضيل فيها العداوة البغضاء، وحررت بين
شأنها بحروب والقتال،

والثالث (ارتباط اللاحق بالسابق) ارتباط التدرج من هيئة لحدث إلى هيئة
أخرى نرى مثلاً على ذلك قول محمد زكي عبد القادر: لنوقن إذن أن الألم
فرق الحياة: بل باعثها ومحركها ودافعها إلى الأمام، التدرج واضح من
مجردة إلى حركة مجردة ومن حركة مجردة إلى دفع إلى الأمام، نرى
هذا يؤكدنا لقوله اقترب الحياة بالألم في شتى حالاته.

ورابعاً أن تتضمن الكلمة الثانية الكلمة الأولى، وهو أن تكون
علاقة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص. من ذلك مثلاً قول المفاد في سياق
دخسه وهما شائفاً بين قراء الشعر: وهو أن شعر الفزل ينفي له أن يكون
مفراطاً في رفته بعيداً عن العنف والقوة: ولا يزال الفناء كذلك حتى يتعلم
نفس الكلام وينعقد الصوت الفاظاً وحروفاً. فيتدفق الفزل من النفس
للتحتمة تدفقاً قويا عارماً، المارم يتضمن القوى بالضرورة، وهو تضمن
معيود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى. وهذا الشكل كثير الوقوع
في نصوص الحجاجي العربي.

والخامساً وهو عكس الشكل السابق: أي أن الكلمة الأولى هي التي
تضمن نفس الثانية. ومن ذلك قول الإخشيدي في سياق احتجازه لحسن
سبته ومماضيه ورعيته، وسياستنا لهذه الممالك قريبا، وبمدها، على
نظمها، ستمها، بفضل الله علينا ... وبما يولف بين قلوب سائر الطبقات من
الأبناء والرحمة، السعة منمنمة في المظم. والتضمن هنا محدود بحدود
الانتقال من العام إلى الخاص.

النوع الثاني وهو تصوير المضمون المبني على مفردتين في جملتين
مبتدأ من خلال فحص النصوص المختارة على أنه أهل الأنواع وهو ما
نرى مثلاً في مجموع الأنواع الأخرى، ومن أمثلته قول السعدي في سياق
تجدهم أحسنه على دأبه بحب الفضل والحاجة، ويكشف تأملهم، أن
الاستعظام على نفسي، وأهم مبالغة على مبالغة، ومنه أيضاً قول

مصطفى محمود في سياق تدعيم دعواه أن الحب هو رأس القضية؛ فوما كان لصلبيين ليس جاثوما غداة طامعين على دين. أي دين. ولا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة^{١٧}، زادف الكندي بين (أوتر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى. وزادف مصطفى محمود في جملتين من القطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة). في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر الجملتين، ووقعا بمجزئ الجملتين في الحال الأخيرة.

(النوع الثالث) وهو تكرار مفردتين في شائبة. يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى، أي ما يقل كثيراً عن ستمس تلك الأنواع، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبياً في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها أن يقع تكرير المضمون على مستوى شائبة لفظية من جملة واحدة. من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمت أننا سمينا البطل [صلاً] والشيخ اقتصاداً، كما سمي قوم البرزعة انجيزاً والبداء عارضة...»^{١٨}.

ومنه قول إخوان الصفا في سياق القياس على التظير دعماً للدعوى: «وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة»^{١٩}. ومنه أيضاً قول الإخشيد في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «فويل في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسرى، وشدة الأساء، على نعم الدنيا وخيرها، لحسن منقلبه، وحسن عاقبته»^{٢٠}.

تدلنا عيانات الدراسة على أن تكرير المضمون من هذا النوع يمثل غالباً إلى حل الطرف الثاني في الشائبة اللفظية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها. ومما تحذر الإشارة إليه هنا أن تكرير المضمون من هذا النوع يبدو كلمة أساسية من ألهاث تشبه النفس وإقناع المستقبل على وجه خاص في بعض نصوص هذه الدراسة، لا سيما مكانة الإخشيد. هذه المكانة هي الأكثر احتفاءً، لذلك النوع، سائر نصوص الدراسة.

وهنا تكرير المضمون على مستوى الشائبات اللفظية في تشكيلة «والذي...»^{٢١}، هذه الشائبة في النصوص الأخرى صحتها وهو يميز وحده

^{١٧} «...وأي ملة...»

^{١٨} «...وأي ملة...»

^{١٩} «...وأي ملة...»

^{٢٠} «...وأي ملة...»

^{٢١} «...وأي ملة...»

في تكرير المضمون في نص المكتوبة ذاتها بجميع أنواعه
تؤكد ثنائيات تلك المكتوبة فكرة المكثرة أو المغالبة التي اغتصامها
احتجاج الإخشيئ شزنته. محور ذلك الاحتجاج، مثل: «عظم الشأن وهظمة
الأمر، وكبر الأعلام وبعد المرامي» ... إلخ. وترتبط هذه الثنائيات من ناحية
أخرى - على نحو ما سنفصل فيما بعد - باستراتيجية التوازن الغالبة على
نص المكتوبة غلبة قوية، بما يجعلها من النماذج المتميزة بين النصوص
الحجاجية العربية على الجمع بين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين
توازنه.

(النوع الرابع) وهو تكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات. وهذا
النوع - كما ثبتت نصوص الدراسة - يمثل ما يقرب من ربع حالات تكرير
المضمون في النص الحجاجي العربي، فهو يمثل ٢٤.٣٪ من جملة الأنواع.
من أسئلة هذا النوع قول الكندي: «فالل من حفظه، والحسرة لمن آتلفه،
والنفاق هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»^(١). -
الجملة الأولى مستخدمتان لمضمون واحد. وربما عبر عن المعنى أو
الغنية بتكرير جمل عدة متوالية: «كقوله أيضاً: «فإن للنفس عند كل
طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة. وللقادم حلاوة وفرة، وللجديد بشاشة
وغرة، فإن متى ردتها ارتدت، ومتى ردتها ارتدت»^(٢).

ومما يلاحظ هنا أن تكرير المضمون على مستوى الجملة وأشباهها في
النصوص الحجاجية العربية الحديثة أقل بعاماً منه في النصوص الحجاجية
العربية القديمة. بينما النسبة الأعلى في النصوص القديمة هي ٤٠٪ تقريباً
لذلك في حجاج الكندي ليخله) إذا بالنسبة الأعلى في النصوص الحديثة لا
تجاوز ٣٣.٣٪ (عند طه حسين).

تبين المقارنة بين النسبتين - من ناحية أخرى - دنو طه حسين من الأسلوب
العربي القديم في الحجاج: وهو أسلوب يحتفي احتفاءً خاصاً بإعادة صياغة
النص وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيراً مطولاً، تغلب فيه السلاسة
وتسهر على الانتقالات المفاجئة أو السريعة.

ومن الملائم هنا الإشارة إلى ما لاحظته والتر أونغ Walter Ong في قوله:

ويميل التخصيص الطويل ذو الأساس الشفاهي - حتى عندما لا يكون في شكل شعري - إلى أن يكون إقناعياً بشكل ملحوظ: لأن الإقناع - حتى من الناحية الفسيولوجية - يساعد على التذكُّر^(١).

ولعل طه حسين أدنى المحدثين إلى النمط الشفاهي: فهو متأثر أشد التأثر بالنمط التعبيري القديم، فضلاً عن اعتماده على التأثير الإقناعي عند سبك جملة والربط بينها، وكأنما جمل من ذلك كله تمويضا عن نقل كلامه بواسطة الإملاء.

ومهما يكن من أمر، فإن تأمل حالات ذلك النوع - بدلنا على أن الجملة الثانية نعمل غالباً إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامة. ولعل طه حسين والمقاد أحرص المحدثين - ممن اخترنا لهم في هذه الدراسة - على اطراد هذه العلاقة بين الجملتين، مما يجعل لذلك النوع عندهما أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالاته. يقول طه حسين - في سياق رده على الراقصي دعواه أنه كان يحسن اللغة حتى خاف منه خصمه طه حسين: «لقد يكون من الحق على الراقصي لو أنصف نفسه أني أعلم أن من قوم قد بلوا السفهاء، فأحسنوا بلاهم، وصيروا لهم واحتملوا منهم»^(٢).

التكرير في (صبروا لهم واحتملوا منهم). ويقول المقاد في سياق دفع دعوى بعض الناس بأن الرقة هي الصفة الأولى للشعر: «ويعلم (العاشق) حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع للظهور، وتتأجج للسطوع»^(٣).

والتكرير في (تصطرع للظهور وتتأجج للسطوع). هذان مثالان للغالب في تكرير المضمون من ذلك النوع عند هذين الكتّابين، وهو الانتقال إلى الأعم والأقوى. وربما بدا تكرار المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيضاح أو شرح الثانية للأولى.

^(١) أوج. ١٠ لحن شفاهي وكتّابي، ترجمة حسن عبد الحليم، مجلس ترويض الثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٦٤ - ١٩٩٢ ص ٩٥.

^(٢) طه حسين، «الراقصون»، ص ١١٢.

^(٣) المقاد، «الحب في الشعر»، ص ١١.

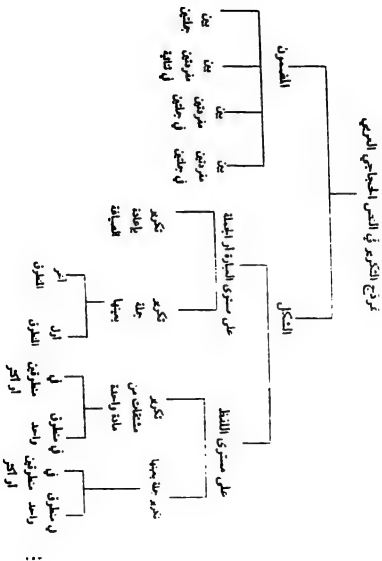
في حوزة لاهوتية
 مصر تحت شعار حوزي هو "الدين والسياسة"
 صرح منذ أن غرس في قلبه الفخار في سياق تدعيه دعواه بأن الترقية لا
 تسبح في شعره كنهه. وبعد عدب في غير موضوعها، هضم ما الذي يسمع
 لأعدي ثنائته في أيام هذه من استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ
 أذواقهم، فلا يحمله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى نفوس آدمية
 ينساب إليها وتتسبب إليه،

ويقول مصطفى محمود في سياق شرح دعواه بأن الدين هو الحب القديم
 والحنين الدائم إلى الوطن "الأصل، وأنه ليس - كما يفهم الناس - مجموعة
 لأوامر والنواهي وثواب العقاب. وثأ نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحيطنا
 قبح وظلم والمبت والفوضى والاضطراب في هذا العالم، فنشعر أننا غرباء
 عنه، وأننا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري طريق،".

في كلام المقاد كانت سلمت من المسخ أذواقهم، توضيحا لـ استقامت
 معشرته، وفيه كلام مصطفى محمود كانت "أننا لسنا منه وإنما مجرد زوار
 وعابري طريق، توضيحا لـ أننا غرباء،".

تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في
 من "خطاب، ونعله - من أجل ذلك - أبلغ أثرا في إقناع المخاطب بوجهة نظر
 نتعلم أو دعواه أو مصداقيته أو دحض دعوى الخصم مرة بعد أخرى.

مع سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي على
 النحو التالي :



نوع الخطب والاختلاف
المصدر ثبات على حصر تعري - دراسة في وسائل الإيضاح

ويجد في الجدول تفصيلية الإحصاءات الأنواع المختلفة لتكرير المضمون:
الكسدي (العدد ١٤)

النسبة	العدد	النوع
٪٢٦,٦	٤	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٢٠	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٣	٢	بين مفردتين في جملتين
٪٤٠	٦	بين جملتين أو أكثر

إخوان الصفا (العدد ٣)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,٦	٢	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٣٣,٣	١	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
x	x	بين جملتين أو أكثر

مكتبة الإخشيد (العدد ٢٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٢٦,٦	٤	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٢٠	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٣	٢	بين مفردتين في جملتين
٪٤٠	٦	بين جملتين أو أكثر

طه حسين (العدد ١٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,٦	١٠	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
x	x	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
٪٣٣,٣	٥	بين جملتين أو أكثر

• المقاد (العدد ٢٢)

النسبة	العدد	النوع
٪٤٥,٤	١٠	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪١٣,٦	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٦	٣	بين مفردتين في جملتين
٪٢٧,٣	٦	بين جملتين أو أكثر

• المازني (العدد ٢)

النسبة	العدد	النوع
٪٥٠	١	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٥٠	١	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
x	x	بين جملتين أو أكثر

• خالد محمد خالد (العدد)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,١	٢	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
x	x	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
٪٣٣,٣	١	بين جملتين أو أكثر

• خالد محمد خالد (العدد)

النسبة	العدد	النوع
٪١٠٠	٥	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
x	x	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
x	x	بين جملتين أو أكثر

نوع التوزيع :
 جدول ١ : توزيع جملتين أو أكثر في جملة واحدة

النوع	العدد	النسبة
جملتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٦٦,٦ %
جملتين في ثنائية	١	٤,٨ %
جملتين في جملتين	x	x
جملتين أو أكثر	٦	٢٨,٦ %

إحصاء إجمالي (العدد ١١١)

النوع	العدد	النسبة
جملتين أو أكثر في جملة واحدة	٦٠	٥٤ %
جملتين في ثنائية	١٩	١٧,١ %
جملتين في جملتين	٥	٤,٥ %
جملتين أو أكثر	٢٧	٢٤,٣ %

ب/ ٢ بنية التوازي :

قدم هاليداي M A K. Halliday في كتابه (مدخل إلى النحو الوظيفي An Introduction to Functional Grammar) منهجاً لدراسة التوازي. هو الأدق والأوفر حتى الآن. وهو منهج يصلح تطبيقه على العربية، على نحو ما نشأت في هذه الدراسة. فصل هاليداي منهجه في التوازي تقصيلاً مبيناً. نعرض منهجه هنا موجزين - قدر المستطاع - تيسيراً لمتابعة معالجة التوازي في نصوص الدراسة. التوازي Parataxis عنده ربط بين عناصر متساوية الحال equal status. هناك عنصر سابق initiating وعنصر آخر متصل به أو لاحق Continuing. كل من هذين العنصرين حر؛ أي له مكانه الوظيفي الكامل. ويميز هنا بين التوازي على النحو السابق والتركييب Hypotaxis: فالتركييب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة؛ فهناك العنصر المتحكم: وهو عنصر حر، والعنصر المتحكم فيه: وهو غير حر. وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والتراكيبية. مثال ذلك :

ونكني لن استطيع

ين استطعت

ن استطعت

نرى هنا علاقة توازن بين «مأهمل إن استطعت» و«لكنني لن أستطيع».
وتبين هذه العلاقة هكذا: ١ ٢. ونرى أيضًا علاقة تراكم بين «مأهمل» و«إن
استطعت». وتبين هذه العلاقة هكذا: أ ب .

يحدد هالهداي العلاقات الدلالية - المنطقية التي تقع بين المنصرين:
السابق واللاحق - في بنية التوازي - في علاقته رئيسيتين اثنتين :

(١) علاقة التمديد Expansion، وتمني تمديد الجملة الثانية للجملة الأولى
بإحدى الطرق الثلاث التالية :

(الطريقة الأولى) الإحكام - (« مساو ») : فالجملة الثانية تحكم الأولى
ككلية أو تحكم جزأ منها. وذلك بأن تقررها بمباراة أخرى، أو بأن تحددها
على نحو أكثر تفصيلًا، أو بأن تعقب عليها، أو بأن توضحها بمثال :

- فلان لم ينتظر :
١
جري بعيدا
٢
=

الجملة الثانية لا تدخل عنصرًا جديدًا إلى الصورة، بل تشخص عنصرًا
مذكورًا بالفعل تشخيصًا أكثر، بأن تقرره أو توضحه أو تتقنه، أو بإضافة
خاصة أو تعليق وصفيين.

(الطريقة الثانية) الإطالة + (« يضاف إلى ») : وذلك بأن تمد الجملة
الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد، أو بأن تستثني
منها شيئًا، أو بأن تعرض بديلاً (الواو، أو) :

- فلان جري بعيدا ، واختيا فلان وراءه
١
+
٢

(الطريقة الثالثة) التعميم = (« تكاثر بواسطة ») : وذلك بأن تمد الجملة
الثانية الجملة الأولى بتميمها بواسطة تكبيفها مع ظرف زمني أو مكاني أو
علة أو شرط (هكذا، كذلك، لهذا السبب، مع ذلك، مع أن، على أن،
ولكن، إذن، من ثم، حينئذ، إذ ذاك ...) :

- كان فلان مذعورا : ولهذا جري بعيدا .
١
٢

(٢) علاقة التصميم Projection : وتمني أن الجملة الثانية تصمم من خلال
الحسن الأول والجملة المصممة حائتان :

(١) الحائتان الأولى : أن تكون ملفوظًا (« قول ») (أي تخصيص مردوج) :
« فلان لم يسمع لشيء من هذا » « فلان لم يسمع لشيء من هذا » « فلان لم يسمع لشيء من هذا »

- قال فلان: «سأجرب بعيداً»

١ ٢ ٣

(الحالة الثانية) أن تكون فكرة (يفكر) (أي تخصيص مفرد) :
وذلك بأن تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي :

- فكر فلان في نفسه : «سأجرب بعيداً»

١ ٢ ٣

الملاقات المنطقية - الدلالية التي تحكم علاقة التوازي وطرق هذه العلاقات، هي ذاتها التي تحكم علاقة التراكم، ولكن طبيعة علاقة جزأى المنطوق أو المركب الجملي أو العباري أحدهما بالآخر تتميز بين التوازي والتراكم . الجدول التالي يبين هذا التمايز :

العلاقة	الطريقة	التوازي	الترابط
التعميد	الإسكان	س لم يتظر ، جري بعيداً	س جري بعيداً ، ما فلان الجميع
		١ = ٢	١ = ب
	الإضافة	س جري بعيداً ، وانغى من وراءه	س جري بعيداً ، بينما من انغى وراءه
		١ + ٢	١ + ب
التصميم	التعظيم	كان س ملحوراً ، ولما جري بعيداً	س جري بعيداً ، لأنه كان ملحوراً
		١ × ٢	١ × ب
	التلخيص	قال س : «سأجرب بعيداً»	قال س بأنه كان يجري بعيداً
		١ ٢	١ ب
التصميم	الفكرة	فكر س في نفسه : «سأجرب بعيداً»	فكر س أن يجري بعيداً
		١ ٢	١ ب

يتضح من الأمثلة بالجدول السابق:

- ١- أن الرقم ١ يشير - في علاقة التوازي - إلى الجملة السابقة، وأن الرقم ٢ يشير إلى الجملة اللاحقة. وكل منهما يماثل الآخر.
 - ٢- أن الحرف أ يشير - في علاقة التراكم - إلى الجملة الحاكمة، وأن الحرف ب يشير إلى الجملة المحكومة؛ أي أن الجملة الحاكمة تقوم على تكبيف الجملة الأخرى المحكومة.
- في تفصيل أنماط التمديد، يبدأ بالهداى بالإحكام Elaborating، فبجمل له ثلاث صور:

(الأولى) المرض Exposition: وفي المرض تربط الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بتعبير آخر، لتقديمها من وجهة نظر أخرى. وربما لا يكون ذلك إلا لتقوية الرسالة، نحو:

- تلك الساعة لا تعشى، إنها لا تعمل.
 - ليست ككلية استمراض، لا أبيعها على أنها ككلية استمراض.
 - تدحض إحدى الحجتين الأخرى، ككلاهما ليست صحيحة.
- يمكن أن تكون العلاقة بين الجملتين صريحة، وذلك إذا استخدمت الروابط مثل: أو، بالأحرى، بعبارة أخرى، ويمكن أن يقال، أي.
- (الثانية) الشرح بالتمثيل Exemplification: وذلك بأن تطور الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بأن تخصصها أو تحددها على نحو أشد، وغالبا ما يكون ذلك بالتمثيل الفعلي، نحو:
- دخلنا في سباق. دخلنا في سباق المجموعات
 - وجهك مثل وجه سائر الناس. هكذا العنان، وأنف في الوسط، وفم أسفل منه.

في هذه الصورة، تستخدم الروابط الصريحة: مثلا، على سبيل المثال، على سبيل الاستشهاد، نحو، مثل، خاصة.

(الثالثة) التوضيح Clarification: في هذه الصورة توضح الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بإحدى أساليب التوضيح أو بتعقيب توضيحي:

- تحظر فلانة حائرة: كانت تفكر في البودينج.
- كانت حيوانات للاستمراض: اشتريتها عطف لأنها البقة.
- لم يقل 'أ' شيئا قط: الحق أن ملحوظتها السابقة كانت نحو الشجرة.

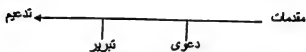
التي توسلت بها للإقناع والاستمالة .

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية:

- ١- من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمعون من منع المال إلى قوله: بجمل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه):
(كتب البخل للجاحظ ص ٧٨ - ٨١):

الدعوى (مذكورة): المال لمن حفظه ، والحرصة لمن ألتفه ، وبخله من بخله .

شكل الحجج:

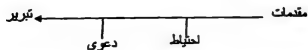


- ٢- ٤ : ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا:

النص ٢: في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٣٠/٤-٣٤).

الدعوى الرئيسية (مذكورة): جمع محمد x خصال النبوة وخصال الملك .

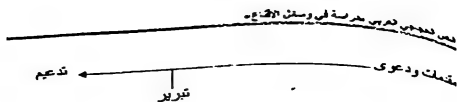
شكل الحجج:



النص (٣) : بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة (٣٤/٤) .

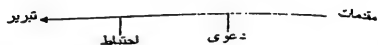
الدعوى الرئيسية (مذكورة): هي الدعوى السابقة .

شكل الحجج:



النص (٤): في مسألة الجبر (٣٦-٣٥/٤).

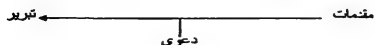
الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما تقدره الله عليه.
شكل الحجج:



د. كتاب الإخشيد إلى أرمنتوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب ١٤/٤-٤٢٥).

الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يكتبه: لرماتوس.

شكل الحجج:



٦- ٧: نصان لطلح حسين من كتبه (حديث الأربعاء ج ٣):

النص (٦): القديم والجديد (٣٦-٣١/٣).

الدعوى (مذكورة): ليس للقديم نص ؛ أي أن نصار القديم ليسوا

نحو: خطب ولا كتب
تعمل ثلاث نثر اصحابي لغوي - دراسة في وسائل البحث
الثورة عرض والانحطاط عرض - كلاهما يروى

فيما سبق استخدمت الروابط مثل: انواو، أي، ولكن كثير إسقاطها في حالات أخرى

(ثانياً) الإحكام في صورة الشرح: ومنه قول طه حسين:
- (أنصار القديم) يحيون حياتهم ككاهنين:

ياخذون بلذاتها ويحتملون الامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي

وقوله عن الراضي:

- هو متكلف يمرض لما لا يعلم ويصف ما لا يحسن.

وقول محمد زكي عبد القادر:

- تستبد به النزوات، نزوات المال أو السلطان.

(ثالثاً) الإحكام في صورة التوضيح: ومنه قول إخوان الصفا:

- (مسألة الإمامة) باقية إلى يومنا هذا، لم تفصل ...

وقول طه حسين:

- لم ينكر الفرنسيون ذلك (أن يضيف غيرهم إلى لغتهم)، وإنما قبلوه.

وقوله:

الخطب لنفسه والخميد، من كتابه حديث الأرحاء ٣٨/٣

الترجيع لغيره ٣٠/٣

الخطب لنفسه، أي، من كتابه حديث الأرحاء ١٢٦/٣

الخطب لنفسه، أي، من كتابه حديث الأرحاء ١٢٦/٣

الخطب لنفسه، أي، من كتابه حديث الأرحاء ٣٠/٣

الخطب لنفسه، أي، من كتابه حديث الأرحاء ٣٠/٣

- اللغة ليست من وحي السماء، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني^(١).

٢٠

ومما يلاحظ في التمديد بالإحكام أن النص الحجاجي العربي يعمل إلى الإحكام بالتوضيح والإحكام بالمرض ميلاً أقوى، وإن كان ميله إلى الإحكام بالتوضيح هو الأقوى على الإطلاق.
(ب) وأما التمديد بالإطالة، فنرى له أيضاً نماذج مختلفة من صورته: الإطالة بالإضافة، والإطالة بالتشويق.

(أولاً) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود :

- الابن يقتل أمه، والأم تقتل ابنها^(٢).

٢٠

والإطالة بالإضافة نعت بارز جداً عند مصطفى محمود بوجه خاص.

(ثانياً) ومن الإطالة بالتشويق: قول محمد زكي عبد القادر :

- من الألم ينبع كل شيء عظيم، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء.

عظيم^(٣)

٢٠

يمر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتشويق هكذا :

من ولكن ليس كل شيء أي هي إطالة باستثناء شيء ما من المفرد

السابق.

ومن الإطالة بالتشويق أيضاً قول إخوان الصفا :

- لم يصف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمة الدين والدنيا جميعاً^(٤).

٢٠

(١) المرجع السابق ٣٣/٣٣

(٢) مقال "شجرة الألم" ص ١٠٠ كنه شمس ص ١٥

(٣) مقال "شجرة الألم" ص ١٠٠ كنه شمس ص ١٥

(٤) المرجع السابق ٣٣/٣٣

ويصبر عن هذه الصورة هكذا : نيس من ولكن صـ.

(ج) وأما التمديد بالتعظيم ، فنرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة مورا عدة ، من أهمها ما يلي :

(أولا) التعظيم بالإشارة إلى الزمان ، ومنه قول إخوان الصفا :

- أقام النبي بمكة نحو من اثنتي عشرة سنة ،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ^(١).

٣*

وتسمى هذه الصورة بالتعظيم الزماني المتقدم : أي : أ قبل ب.

(ثانيا) التعظيم بالطريقة ، ومنه قول إخوان الصفا أيضا :

- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا ،

١

ومكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) ^(٢).

٣*

ما سبق يمثل التوازي في علاقة التمديد بالتعظيم في هيئة الطريقة من نوع الثاني وهو المقارنة. «هكذا» فيما سبق تعني : «بهذه الطريقة» ، ويقصد بها في هذه البنية من بنى التوازي المقارنة. هذه العلاقة نراها شائعة شيوخا خاصة في نصوص إخوان الصفا.

(ثالثا) التعظيم في هيئة العلاقة : سبب ← اثر ، ومنه قول طه حسين :

- كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء ^(٣).

٣*

نبين نصوص الدراسة على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على هذه العلاقة.

(٢) علاقة التصميم :

كان الاعتماد الرئيس في بنية التوازي بالنصوص الحجاجية التي بين

أبدينا على علاقة التمديد. أما حالات التصميم، فمعددها بعدد حالات مقول القول، سواء أكانت لصاحب النص أم لغيره. وهي قليلة جداً إذا قورنت بعلاقة التمديد.

من التصميم بالقول قول إخوان الصفا :

- قال أزدشير: إن الملك والدين أخوان توأمان^(١).

٢٥

١

ومنه قول الكندي :

- قال (صاحبنا لبني تغلب): إني والله كنت أجرى ما جرى هذا النبل^(٢).

٢٥

١

ومن التصميم بالتمسكة قول طه حسين :

- قدرته في نفسي (شيثاً آخر): لو أن للرافضي حظاً من الإنصاف ..^(٣).

٢٥

١

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ندرة التصميم بالتمسكة في النصوص الحجاجية العربية ندرة بالغة .

التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليداي بنية تركيبية أثيرة في خطاب الحجاج العربي. في هذا الخطاب تعد تلك البنية استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهة النظر. فضلاً عن تقاطع بنية التوازي أحياناً مع بنية التكرير المضموني، على نحو ما يمكن أن نرى في بعض نماذج طرائق التمديد؛ كقول الكندي: «فاحذروهم ... ولا تامنوهم»، أو قول طه حسين: «الثورة عرض والانحطاط عرض، كلاهما يزول»، نرى كذلك إطناباً قصد به الإقناع في بعض حالات التمديد بالعرض والشرح والتوضيح. وعندما يقول محمد زكي عبدالقادر مثلاً: «من الألم ينبع كل شيء عظيم ... ولكن ليس كل ألم ...»، فإنه يستعين بالنسق: س ولكن ليس كل من، على إقناع القارئ بمصداقيته: الكاتب يظهر استقصاءه الذي لا يشك في دقته، إذن

(١) رسائل إخوان الصفا ١/ ٣٢

(٢) خلاصة ص ٧٩

(٣) مقال، أحسن إلى من كتابه: حبيب الأرماء ٣/ ١٢٥

نظمين إلى صدق دعواء.

كذلك الحال مع النسق الآخر: ليس من الممكن ص. الذي يقدم العنصر الأول من بنية التوازي بطريقة تفرض على المخاطب أن يستنتج العنصر الثاني: أي أنه يقدم العنصر الأول لمصلحة حصر المعنى في العنصر الثاني. المتكلم يقول للمخاطب: أهمل المعنى أو الفكرة في ١ واعتمد فقط على ٢٠. بمباراة أخرى: ترسم ٢٠ حركة حجاجية معاكسة - أو على الأقل مغالفة - لوجهة نظر في ١.

ب/ ٣ بنية الأزواج :

من المعروف أن «المزدوج» من أقسام الشعر، وهو ما أتى على قافيتين قافيتين إلى آخر القصيدة. يمكن للوهلة الأولى النظر إلى «المزدوج» في النثر على أنه من باب حكاياته بنية إيقاعية جوهرية في الشعر ذات تأثير سمعي وعاطفي في المستمع، ولكننا نحسبه أصيلاً في نثر لغة ذات أصول شفهية. عولج المزدوج عند البيانيين مظهرًا من مظاهر الجودة في صناعة الكلام. يستخلص من جملة ما ذكره القدماء عن «الأزدواج» وما اختاروا له من نماذج من كلام العرب :

- ١- أن الأزواج تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحداتها اللغوية، ومبنيات ترتيبها، وهما أصلها.
- ٢- أن الأزواج يقع أيضاً، على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات الثلاثة السابقة، يقع في اعتبارين اثنين منها أحياناً.
- ٣- إذا لم يقع التوازن بين الأجزاء في الطول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير أطول، وإن كان ورد في كلام العرب القصصاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر.
- ٤- توازن الأجزاء توازناً كلياً أجمل وجوه التوازن.
- ٥- فضلاً عما للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام، فإن له علاقته بتمكين معناه^(١).

(١) «مقدمة» لكتاب «النحو» ص ٢٦٠-٢٦٦. كتاب «النحو» ص ٢٦٠-٢٦٦.

ومهما يكن من أمر، فإن استقراء نصوص الدراسة من حيث الاعتبارات المختلفة التي توفر للمعارات المزدوجة توازنا، يدلنا على إمكان تصنيف التوازن في أنواع شائعة، يمرضها الجدول التالي (العلامة + تعني توهر الخاصة) :

الاتفاق في الزنة	الاتفاق في الترتيب	الاتفاق في الفاصلة	
		تام	ناقص
	+	+	
	+		+
	+		+
	+		+
	+		+
	+	+	

وفيما يلي تفصيل تلك الأنواع :

(النوع الأول) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيئة ترتيبها، وفي الفاصلة: ومن ذلك قول الكندي في سياق تبريره دعواه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باسكورات الفاسكة : فإن للنفس عند كل طارف نزوة وعند كل هاجم بدوة»^(١).

(النوع الثاني) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحدانها اتفاقا ناقصا، فضلا عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة: ومن ذلك قول الإخشيدي مخاطبا أرماتوس: «والذي تجشمت من مكائبتنا إن كان كعما وصفته، فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطيرا»^(٢).

(النوع الثالث) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة الوحدات: ومن ذلك قول العقاد: «كانت تسمع أكثر الأصوات تنوع ثبرات، وتفاوت مقامات»^(٣).

(١) بحلاء ص ٨٠

(٢) عمدة رسائل العرب ١/١٦٦

(٣) مقال لغزل لطيفي ص ٦٥ - حصص ص ٩٥

عصر حبس بحر عمرى حوى ... منى رلى ولى

«نوع السبع» التوازن بالانصاف في رنة التوحيد - نقادنا ناقصا مع الاتفاق في ناصبه دون ترتيب من ذلك قول نقاد في سياق ستمحانه بكتف الزهراء في التمر «قد بنة هذا» بكتف بغير راه رحيل، ويثبت عن دول في الطماع بر حمل»

«نوع الخامس» توازن بالانصاف في العاصلة «ون سائر الملاحح الأخرى: ون ذلك قول الحنفي في سياق تبريره دعواه «ورسل الله» ام برحه عبالما لا بصل ر حصة لنا»

«نوع السادس» التوازن بالانصاف في رنة الوحدات اتفاقا تاما وفي الترتيب ون «عاصلة» ون ذلك قول طه حسين في سياق تقرير مصلطانه للحداد في مسألة القديم والحديث «سكان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم رائل»

«نوع السابع» التوازن بالانصاف الناقص في رنة الوحدات، والانصاف في الترتيب دون العاصلة ون ذلك قول الحنفي مقررًا دعواه عن المال «وإنشائه هو إنشائه وإن حستتموه بهذا الاسم وزيتتموه بهذا اللقب» ومنه قوله أيضا في سياق خصاصه على من أنفق ماله «بعد حتم من مدح مسود الضطاء، ودمتم من جمع مسود المسواب»

«نوع الثامن» التوازن بالانصاف في ترتيب الوحدات فقط، ومن ذلك قول خالد محمد خالد في سياق تبرير دعواه «قال بضمراطية حوسكة مجتمع وسبل أمة، ومنهج دستور» وقد يبدو هذا النوع في هيئة التفسير الحسن الذي نقرر فيه نفس الوحدات بكتفول محمد، وسكن عبدالمبار في سياق أحباطه لدعواه «ولا تصور للسماعة من غير شدة تصاعبها، ولا تصور للحاج من لب قبل بمتبته» وقد يبدو في أحيان أخرى أقل في هيئة التفسير

... ..

...

...

...

...

...

...

...

الجنس الذي يكرر فيه بعض الوحدات مع تقمية قبل نهاية الجرة. من ذلك مثلاً قول طه حسين في سياق تدعيم تبريره: «وإن أنصم لهموا أهل الناس استمتاعاً بلفظات الصفاء»، ولهموا أهل الناس استمتاعاً لما فيها من بشع»^(١). مما يلاحظ هنا أن الأنواع السابقة من ١ - ٢ أكثر وقوعاً في النص الحجاجي العربي القديم منه في النص الحجاجي الحديث يرتبط هذا بالطبع بسمات النسق السكتاني العامة أو الغالبة بين كلا العهدين. ويلاحظ - من ناحية أخرى - أن الأنواع من ١ - ٨ أكثر من سابقتها وقوعاً في النصوص الحجاجية العربية بعمامة، وإن كان النص الحجاجي العربي الحديث يبدى باحتمالاً ميلاً أقوى.

ينبغي الإشارة أيضاً إلى أن نصوص الحجاج الحديثة تتفاوت فيما بينها استثناءً بنية الإزدواج. يقل الإزدواج عند المقاد، ويكثر عند المازني، وخالد، محمد خالد، ومحمد زكي عبد القادر ومصطفى محمود. ولغته أكثر من ذلك وقوعاً في مسوره الأربعة الأخيرة مما سبق. عند طه حسين. وإذا نظرنا إلى الإزدواج من منظور الوحدة التركيبية التي يقع فيها، فكان يكثر إزدواجا بين عبارات من جملة واحدة، أو إزدواجا بين جمل ثامة ظاهرة بدواتها، لولها طه حسين أكثر ميلاً إلى استخدام الإزدواج بين الجمل وإذا فارقنا بين نصوص اثنين من القدماء هما السخندى والإشيد (الذي يمكن له مكانته في رسالته إلى أرمادوس طرار المصير في الاستغابة الحجاجية) واثنين من المحدثين هما طه حسين والمقاد، لولها أن الإزدواج في النصوص الحجاجية القديمة يسعد بحدود خمسة دجن ووقوعه في العبارات ووقوعه في الجمل، والسجن الغلبة في النصوص الحجاجية الحديثة تبدو للإزدواج بين جمل ثامة. والحدود الإحصائية التالي يبين ذلك.

طه حسين المقاد	بين عبارات من جملة واحدة	بين جملة ثامة
١٨,٦	٧١,٤	
١٦,٦		٨٣,٢

من الناحية الدلالية، تتقاطع حالات التوازن مع حالات ينتظمها تكرير الضمون أو التقابل أو التخالف. تجمع الجملتان: «خارت عزائمها ومارت دعائمها» في كلام المقاد بين التوازن والتكرير المضموني. ويجمع الجزآن في جملتين: «فمدحتم من مدح صنوف الخطأ، وذممتهم من جمع صنوف الصواب» في كلام الكندي بين التوازن والمقابلة. وتجمع الجملتان: «يقرون مثل هذا الشر ويحتلون مثل هذا المنكر» في كلام طه حسين بين التوازن والمخالفة في النص.

ومما ينبني الإشارة إليه هنا أن حالات تقاطع التوازن بالتكرير المضموني يمثل ما يقرب من ثلاثة أرباع حالات تقاطعه مع العلاقات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة. وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضموني. نحن أمام مثل هذا القدر من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والترادف أو شبه المترادف على مستوى المضمون. وهذه هي المنطقة المركزة الأهم التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشتغلان مما في النص الحجاجي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجية المختلفة قصداً إلى تثبيت تسيير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصديق دعوى الحجاج.

إذا كان التوازي - بمفهومه الاصطلاحي الذي رأيناه آنفاً - بنية تركيبية تربط بين عنصرين علاقات دلالية منطقية، فإن التوازن على نحو ما نرى بنية تركيبية تربط بين عنصرين علاقات سمعية من طول ووزن وفاصلة تحبس فكراً مرتباً متزناً مقنناً.

والحق أن بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلط خطأً دليماً بين التوازي والتوازن. أولى بما ذكره عدنان جبوري وباربرا جونسون كوثق من حالات للتوازي أن تعد من حالات التوازن:

حار عدنان جبوري نصاً حجاجياً لمصطفى أمين في عموده الذي كان مدحاً تحت عنوان «فكيرة» من أمثلة جبوري على التوازي في هذا النص قول مصطفى أمين: «وكان من أحزاب حكمت ثم حوصكت، وتولت ثم اندثرت، وتركت ثم سقطت».

وحلت باربرا جونستون عددًا من النصوص الحجاجية تقع في النصف الثاني من القرن العشرين. من أمثلة باربرا على التوازي النص التالي:

(١) «ظل الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة، وظل الطغايا موزعين على ثماني وحدات سياسية، والبولونيون مقسومين بين ثلاث دول قوية، واليوغوسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين».

وتسمى باربرا هذا النوع باسم التوازي الكاشف Listing parallelism، وهو - كما تقول - نوع من التوازي الضيق المحكم بين عبارات كاملة، تتميز بأنها أجزاء من النص، تكشف عن أمثلة وتقاصيل.

(٢) «فكان من الطبيعي أن تنشأ الفكرة القومية، وتترعرع وتقوى بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالى عليها خلال تلك الحروب. وكان من الطبيعي أن ينتشر فيه الإيمان بوحدة الأمة الألمانية. وكان من الطبيعي أن يدفع هذا الإيمان مفكري ألمانيا وساستها إلى مكافحة النزعات الإقليمية بكل قوة وحماسة».

وتسمى هذا النوع باسم التوازي التراكمي Cumulative parallelism، وتعرفه بأنه نوع من التوازي غير التام على نحو ما كان في المثال الأول. وهو تراكمي لأن العناصر الثلاثة «كان من الطبيعي» من نوع التأثير التراكمي؛ وذلك أن كل عنصر يبنى على العنصر الذي يسبقه^(١).

نرى أن حالات التوازي عند هذين الباحثين ينبغي لها أن تدرج في حالات التوازن. هي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحي في شيء، إلا إذا التمسنا لها وجهًا من كلام القدماء. أورد أبو هلال العسكري أمثلة عدة على المزدوج من كلام الأعراب، حوفظ فيها غالبًا على الطول والترتيب والفاصلة، ثم علق عليها قائلاً: «فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض بل في القليل منها، وقليل ذلك مفتقر لا يمتد به»^(٢). قصد بالتوازي هنا - فيما يفيد السياق - سوق كل جزء بإزاء الآخر وعلى شاكلته في الطول والفصل والترتيب. ولكننا الآن. وقد صار التوازي يعني في المفهوم الاصطلاحي شيئاً

(١) Koch, Barbara, Johnstone, Presentation as Proof, p. 57.

(٢) أبو هلال العسكري، ص ١٠٠.

أمر مختلفاً، لا نرى للخلط بينهما وتسمية أحدهما باسم الآخر وجهاً سائفاً.
وعلى عكس جهودي وإلهابها، فهمت شيرلي أوسلر Schirley Oster
تتوزل على حقيقتها من الناحية النحوية، تبدو العربية - وفقاً لشيرلي -
صاعدة من أجل تحقيق التوازن Balance، على معنى التوافق الإيقاعي بين
عنصر مترابطة وهي ترى هذا التوافق (أو السيمتريّة) على مستوى نظم
الجملة، وبه تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والمبارات⁽¹⁾.



الفصل الرابع
تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

١- توطئة:

على رغم تواصل الخطابات النقدي العربي المعاصر مع نظريات النقد الأدبي في الغرب الأوروبي والأمريكي تواصلًا حارًا، تبدى في محاولات عدة للإفادة من مبادئ الاتجاهات الشكلانية والبنوية والأسلوبية والسيميائية والشعرية وغيرها من الاتجاهات ذات الأصول اللسانية في مجالات النقد النظري والتطبيقي. فإن التداولية Pragmatics باتجاهاتها المختلفة ما زالت على هامش النقد العربي، في الوقت الذي تبدو فيه تحولاً كبيراً في مسيرة النظرية الأدبية المعاصرة، يقترب يوماً بعد يوم من مركز الاهتمام في نظريات الخطاب والتأويل الأدبي. قامت اللسانيات التداولية على تحليل مقامات الخطاب ومقاصده: إذ عنت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم، ودراسة الالتزام الحواري، ودراسة كنهية ككون الاتصال شيئاً أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية. نهضت اللسانيات التداولية على مكونات ثلاثة: فضلاً عن تحليل الحادثات، وتحليل الفروق الحضارية والتفاعلات اللغوية من منظور العلوم الاجتماعية، نهضت اللسانيات التداولية على فلسفة اللغة، وعلى تداولية أفعال الكلام بوجه خاص. إذا كانت نظرية تحليل الخطاب ونظرية التأويل الأدبي ركيزتين قويتين في النظرية الأدبية المعاصرة، فقد كانت تداولية أفعال الكلام من أهم الدعائم اللسانية التي ساعدت هاتين النظريتين على النمو والازدهار.

لقد أتاح تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه "فعلاً" لغوياً "Speech Act" يدل عليه قصد المتكلم، ومن حيث إنها برهنت على أن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية. من ثم أفضحت أدبيات النظرية الأدبية المعاصرة المعتمدة مجالاً واسعاً للتعريف بتداولية أفعال الكلام وتكثيف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل الأولى الخاصة، ورأتها ضرورية لاكتمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص المرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية. لقد عولت دراسات سيميائية عدة على

منهجية تداولية أفعال الكلام، من أهمها: سيمياء المسرح والدراما ١٩٨٠ -
 الذي أفاد فيه كبير إيلام Keir Elam من بعض الأسس المنهجية التي قامت
 عليها تداولية أفعال الكلام. انتهى إيلام إلى أن قدرة اللغة الاجتماعية
 والتواصلية والأدائية - أو تداولية فعل الأشياء بالكلمات هي التي تسيطر في
 الدراما. وذلك أن الخطاب الدرامي كناية عن شبكة من الأقوال والأفعال
 الإجازية، وهذا يعني أن التفاعل اللغوي ليس تفاعلاً وصفياً بقدر ما هو
 دائي وأن الحوار ضرب من الفعل الذي يؤدي إلى تضارب قوى العالم الدرامي
 الشخصية والاجتماعية والأخلاقية^١ ومن أهم ما عني به إيلام كذلك هو
 بين كيفية انبثاق الصراع الدرامي من خلال تصادم استراتيجيات الأفعال
 اللفظية Locutionary Acts باستراتيجيات الأفعال الإنجازية Illocutionary Acts^٢

كان ديتر فوندرليش Dieter Wunderlich قد عني ببيان ما تقدمه
 تبصير - أو مقاطع منها - من مساعدة في تحديد الأفعال الكلامية
 المقصودة. بين فوندرليش أن الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في
 وقت واحد. يمكن المطلق أن يكون إقراراً من الناحية الدلالية وفقاً
 لشروط اتحاح المحددة للمطلق) ولكنه من الناحية التداولية (أي وفقاً
 لوظيفته في الخطاب) استتعار شرح فوندرليش هذه الفكرة من خلال
 حوار التالي:

- ١- الأم: كلاوس! ألا تأتي إلي؟
- ٢- الابن: لماذا؟
- ٣- الأم: أم، ما زلت هناك، لتناولني الوسادة!
- ٤- الأم: عندما تفرغ مما بيدك، تعال إلي، نعم.
- ٥- الابن: لماذا؟
- ٦- الأم: لتطفأ أستاذنا.
- ٧- الابن: لا... هذا ما يفعله أبي لي.
- ٨- الأم: نعم، يفعله.

- ٩- الألف: أي: مقطع في لسان.
- ١٠- الألف: تستطيع أن تفهم عدد وحدته.
- ١١- الألف: لا، فعل هذا.
- ١٢- الألف: طيب.
- ١٣- الألف: تعال يا أبي.

لاحظ فوندرليش أن المنطوق رقم ٧ في المحادثة السابقة يمد من الناحية الدلالية إثباتاً أو إقراراً ونكته رفض أو استنكار من الناحية الاتصالية التداولية^(١١).

وفي كتابه المعروف "النص والسياق" ١٩٨٠ "عني فان دايك Van Dijk بتطوير تداولية أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة (أو منطق) عند مؤسسها جون أوستين John Austin إلى طريق النص. وكان من أهم ما صنعه في ذلك الكتاب تحليله ما أسماه "أفعال الكلام الكبرى Marco-Speech Act" الفعل الكلامي الأكبر عند فان دايك هو فعل الكلام الإجمالي الذي يؤديه منطوق الخطاب الكلي والذي تجرزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة. انتهى فان دايك هنا إلى أن سلسلة الأفعال الكلامية تقسم بأنها فعل كلامي واحد. إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالي واحد. ويمكن لهذا الفعل الكلامي - على مستوى أعلى - أن يكون بدوره شرطاً أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى". أطلق فان دايك على أفعال الكلام المفردة (أو البنية الطولية لسلاسل أفعال الكلام) اسم "التداولية الصغرى"، وأطلق على دراسة التنظيم الكلي للتفاعل الاتصالي: أي التنظيم الكلي لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب، اسم "التداولية الكبرى". الفعل الكلامي الذي تؤديه متواليات من الأفعال الكلامية هو إذن فعل كلامي إجمالي Global Speech Act أو فعل كلامي أكبر Marco-Speech Act تقسم متواليات الأفعال الكلامية فيما يلي مثلاً بأنها فعل إجمالي واحد هو

(١١) Wunderlich, Dieter: Was ist das für ein Sprechakt? In Günther Grewendt (Hrsg.) Sprechaktheorie und Semantik Suhrkamp Verlag Frankfurt (10-9) 55-275-374, SS.290-291
(١٢) Van Dijk, Teun A. Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse Longman London and New York, 1980, P.211

تدبر أن يكون من شأنه أن يفسر لنا بعض مفاهيمه ونظرياته ونفكره
 في ضوء ما تقدم من عمل فكري حول اللغة حاشية جانبية. وفي تسميته
 مع تطور موقفه ليس على حقيقته النظرية الأدبية، بل صورة، والنظر إلى
 نفس في نظريات النص والتأويل بوصفه - كما يقول راسل حكومي
 Russell's Government - تابع لشخصه من بعض وفادى أو مجموعة من القراء، مصدر
 لتسبب التأويلية بعمقه وتداولية أعمال الكلام بحاسة دور مهم في منهجية
 التأويل وفلسفته العامة. عيى يسمى بتداولية التأويل Pragmatics of Interpretation
 ضربت حدود التأويلية في حقل نظرية الاستقبال الأدبية Rezeptionstheorie
 ممثلة في مدرسة كوستانس عند باوس وإيزر، تلك النظرية التي تعاملت مع
 موضوع التأويل الأدبي، وفهمت التأويل داخل نموذج اتصالي تداولي، وسلمت
 مرجعيات تشارلز موريس Ch. Morris - وهو من جعل للتداولية معناها
 المعروف - والتي سلمت بتحليلات جون أوستن.

سواء على ما تقدم، تأمل هذه الدراسة - من منطلق الاقتناع بأن كل
 تطور في النظرية اللسانية يؤدي بالضرورة إلى تطور في النظرية الأدبية مساو
 له في قوة والاتجاه - تأمل في أن تكون فاتحة اتصال بتداولية أطفال
 الكلام وتطبيقها على العربية من خلال أحد مفاهيمها المركزية الفاعلة في
 حقل تحليل الخطاب، وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية Modifying
 Illocutionary Force"، الذي أراه جديراً بأن تفتح له دراساتاً اللسانية والأدبية
 أبواب الاهتمام والرعاية.

٢- القوة الإنجازية :

وضع الفيلسوف اللغوي البريطاني جون أوستن John Austin (١٩١١-
 ١٩٦٠) دعائم نظرية أعمال الكلام بكتابه الذي صدر في عام ١٩٦٢م: أي بعد
 وفاته بعامين كان أوستن قد حمل الفعل الكلامي Speech Act أنواعاً
 ثلاثة الفعل اللفظي Locutionary Act، والفعل الإنجازي Illocutionary Act،

جاء جون أوستن في كتابه "قوة الكلام" بجمعة من أعماله التي نشرت في كتاب "قوة الكلام" في عام ١٩٦٢م.
 في كتابه "قوة الكلام" في عام ١٩٦٢م.
 في كتابه "قوة الكلام" في عام ١٩٦٢م.

فعل التأثيري Perlocutionary Act في المنطوق: أعرض عن الجاهلين مثلاً،
 في فعل اللفظي في الفعل الصوتي، وفي فعل التلفظ بمفردات تنتمي إلى
 معجم بعينه وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي فعل استعمال تلك المفردات
 بقواعد لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم Sense والمرجع Reference في أن معاً. أما
 فعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحتني أو نحو ذلك) أن أعرض عن
 جاهلين. وأما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع
 مخاطب بأن يعرض: أي: أقمتني - مثلاً - بأن أعرض عن الجاهلين⁽¹⁾.

من ناحية أخرى، جعل أوستين المنطوقات اللفوية نوعين: الأدائيات
 Performances والتبليغات Statements. الأدائيات منطوقات تؤدي أفعالاً كالأعد
 والتحذير والأمر... إلخ. والتبليغات منطوقات تعرض أقوالاً كالإثبات والتقرير
 والإعلان... إلخ. للمنطوقات الأدائية بدورها نوعان: منطوقات أدائية أولية (أو
 مسببة)، وهي التي تخلو من الأفعال الأدائية في اللغة (كالممنطوق السابق:
 "عرض عن الجاهلين"). ومنطوقات أدائية ثانوية (أو صريحة) وهي التي
 تستل على فعل أدائي في صيغة المضارع المبني للمعلوم المسند إلى المفرد
 تنكته (كقولك: "أمرك أن تعرض عن الجاهلين"). والأفعال الأدائية في
 لغة لا حصر لها، منها مثلاً: وعد، أنذر، أكد، شكر، أوصي... إلخ.

ما يعيننا هنا الآن هو الإشارة إلى أن الفعل الإنجازي هو الشاغل الأهم في
 تداولية أفعال الكلام منذ تأسيسها حتى الآن. عندما رغب جون سيرل John
 Searle - خليفة أوستين وأحد رواد هذه النظرية البارزين - في تعريف الفعل
 الكلامي، أشار إلى أن بحثه (ما الفعل الكلامي؟) (What is a speech Act?)
 ينبغي له أن يسمى (ما الفعل الإنجازي؟)⁽²⁾.

يرى سيرل أيضاً أن الفعل الكلامي من النوع المسمى بالفعل الإنجازي
 هو وحدة الاتصال "الإنساني باللغة"⁽³⁾. وكذلك الرأي عند دانيال فاندرفيكن

مؤلف مقالة، وأستاذ

Austin, John: How to do Things with Words. Oxford Univ. Press (1962) PP 107-108.

(1) Searle, John: 'What is a Speech Act?' In: Pier Paolo Gaglioli (ed.) Language and Social Context. Penguin Books, London (1990) PP 146-154 P 146.

(2) Searle, John: Expression and Meaning. Studies in the Theory of Speech. Cambridge Univ. Press (1969) P 175.

Daniet Vanderveken، منضمحل للإنجازي - في رأيه - هو الوحدة الأولى لمص
الحكمة، وهو لوحده لأولية لتلتصال

حقيقة الأمر إن أن تداولية أفعال التكلام هي تداولية الفعل الكلامي
الإنجازي. بالفعل الكلامي الإنجازي يؤدي أفعالاً لغوية كالإخبار وتوجيه
السئلة وإعطاء الأوامر وعمل الوعود والاعتذارات إلخ شكل من الأفعال
اللغوية السابقة كالإخبار والطلب ونحوهما يسمى باسم الفرض الإنجازي
Illoc Purpose أو المقصد الإنجازي Illoc Point وكل فعل إنجازي له محتوى
قضوي Propositional Content عبارة عن القضية التي يعبر عنها ذلك الفعل في
كتابه (أفعال الكلام Speech Acts ١٩٦٩) يذكر جون سيرل أن المحتوى
القضوي قاسم مشترك بين أفعال إنجازية مختلفة في أشكالها ووظائفها مثل :

- هل يتركس الفرقة؟ (سؤال).
- س سيرك الفرقة. (إخبار).
- س اترك الفرقة (أمر) إلخ...^(١)

المحتوي القضوي سمة مشتركة بين المنطوقات الثلاثة السابقة؛ وهو أن
يتركس الفرقة.

ما يعنينا هنا - بعد تلك التمهيدات - هو بيان مفهوم القوة الإنجازية،
وعلاقة القوة الإنجازية بالمقصد والسياق، والفرق بين القوة الإنجازية والفرض
الإنجازي، وعلامات القوة الإنجازية، ونسبية القوة الإنجازية. لا يمكن بحث
مشكل "تعديل القوة الإنجازية"، وهو موضوع هذه الدراسة الرئيس، إلا
ببيان المفاهيم والفرق والعلاقات السابقة.

(١) مفهوم القوة :

قوة المنطوق الإنجازية جزء من بنيته الدلالية منذ أوائل الثمانينات وكانت
قوة المنطوق مدفاً لهجوم عنيف متزايد قاده أصحاب نظرية تحليل الخطاب.
كانت حجبتهم أن معظم المنطوقات لا يمكن أن تدرك حقيقتها إدراكاً

(١) Vanderveken, Daniel Meaning and Speech Acts Vol.1 Principles of Language
Use Cambridge Univ. Press (1990) P 7.

(٢) Searle, John: Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language Cambridge
Univ. Press Cambridge-New York (1969) pp 141 142

بالحسن: وذلك لأن لكل منطق ملازمات استعمال مختلفة. قولك مثلاً: "رأسه ما زالت في جيبي" يمكن أن يكون إخباراً بحقيقة، ولكنه يمكن - في سياق مناسب - أن يكون تحذيراً أو تهديداً. برزت هذه المسألة في تناوлие أفعال الكلام، ولكنها كانت معالجة مختصرة على الهجوم والانتقاد.

على أي حال، فإن قراءة أدبيات تداولية أفعال الكلام تدلنا على أن
من الكلامي يمتلك أغراضاً إنتاجية متباينة بتباين ملاسبات استعماله.
وبغرض الطلب الإنتاجي قوى تمبيرية عدة، تمتد من الأمر المباشر حتى
تخي أضرب مثالا على ذلك ما حكاه أبو عثمان بن بحر الجاحظ
نقلاً عما في كتابه المعروف (البضلاء) قائلاً: "وحدثني عمرو بن نهوي قال:
تبت يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جاراً، وكان من أبخل
من الله قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله! لو دنوت، فاصبت مني
سائلاً قال: قد والله فعلت! فقال الكندي: ما بعد الله شيئاً" (١). في
المراسل، نرى أن المنطوق:

- لو نونت، فاصبت معنا مما نأكل؟
 يمكن أن يمرض معنوا القضيوي بقوى إنجليزية عدة، نحو :
 - ابن، فاصب معنا مما نأكل؟
 هل ننتو، فتصيب معنا مما نأكل؟
 ألا تدنو، فتصيب معنا مما نأكل؟
 لو نونت، فاصبت معنا مما نأكل؟

تختلف هذه الأفعال الكلامية الإنجازية الأربعة في القوة التي يمرض بها
 تبرير إنجازي واحد، هو الطلب عرض الأول بقوة الأمر، وعرض الثاني بقوة
 استنراء الدعوة، وعرض الثالث بقوة المرض، وعرض الرابع بقوة التمني.
 مما هذا أن القوة الإنجازية خاصة المنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد
 يمكن أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة في ملايسات استعمال مختلفة. القوة

الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد. في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق.

(ب) القوة والمقصد والسياق :

إذا كان الأمر ينتمي إلى أحد الأغراض الإنجازية الكبرى: وهو الغرض الإنجازي التوجيهي *directional illocutionary point*، فإنه - كما رأينا آنفاً - يتوزع إلى أغراض إنجازية فرعية، تمكس اختلافاً في القوى الإنجازية، بين غرض فرعي وآخر، وفقاً للمقصد والسياق.

كان أوستين جمل لمقصد المتكلم أهمية كبرى، ورغب بعض مطلبي الخطاب - مثل سالكس *Sacks* وزملائه - في أن يبرهنوا على أن قوة المنطوق الإنجازية، هي ما يعمد إليه المستمع، لا ما يقصد إليه المتكلم؛ وذلك أن أحداً من المستمعين أو مطلبي الخطاب، لا يمكنه أبداً أن يتأكد من مقصد المتكلم؛ لأنه لا يقبل الفحص. أما تفسير المستمع، فإنه يتجلى في استجابته، وهذا ما يحدد تقدم التفاعل اللغوي أو نجاحه⁽¹⁾. غني عن البيان أن فكرة تفسير المستمع واستجابته قد صار لها الآن امتدادات قوية في نظرية التأويل الأدبي.

في تداولية أفعال الكلام كان توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهراً من مظاهر الاختلاف بين اثنين من مؤسسيها وهما: أوستين وسيرل. يرى أوستين أن قوة المنطوق الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً، ولكن سيرل يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق.

يرتبط مقصد المتكلم بالسياق. يوضح السياق ما يفعله المتكلم على نحو أفضل؛ أي إن كان يريد بمنطوقه التهديد أو التحذير أو نحوهما. ومن الضروري أن يكون السياق - كما يقول هولدرسكروفت *Holdcroft* - على النحو الذي يراه فيه المتكلم؛ فمثلاً ينبغي للمتكلم أن يكون في موقع السلطة حتى يصبح منطوقه طلباً حقيقياً. وينبغي له أن يمتلك موقع الملاحظة حتى يصبح منطوقه تبليفاً حقيقياً.... وهكذا⁽²⁾. يستنبط من ذلك أن دراسة

(1) Coultard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis Longman Group Ltd 6th Impression (1983) P.20

(2) Holdcroft, David Words and Deeds: Problems in the Theory of Speech Act Clarendon Press Oxford (1978) P 157

تعمل الكلام ينبغي لها أن تكون عملاً لغوياً اجتماعياً؛ وذلك أن هناك دائماً صلة وثيقة بين الفعل الكلامي ودور المتكلم الاجتماعي. وهذا يدعونا بدوره إلى القول بأن تفسير كل من الفرض والقوة الإنجازيتين تفسيراً صحيحاً، يند على صيغة المنطوق اللغوية وعلى فهم الشبكة الاجتماعية في آن معاً.

من الإشكاليات المركزية في تداولية أفعال الكلام إشكالية "أفعال كلام غير المباشرة Indirect Speech Acts". جوهر هذه الإشكالية المسافة بين القول والمقصد وطبقات المعنى الممتدة، بين معنى قضوي حرجي Literal Propositional Meaning والفعل الذي ينجزه المتكلم في السياق. المتكلم لا يقول ما يقنيه في شكل مناسبات المنطوق على نحو مباشر. إذا كانت الأفعال الإنجازية الإعلانية والاستفهامية والأمرية تستعمل عادة - على الترتيب - تبليغ والسؤال والطلب، فإن هذا لا يعني وجود تناظر كلي بين الفعل ووظيفته. مثال ذلك أن الفعل الإنجازي الإعلاني: "أنت آت غداً"، يمكن - إذا لم يتحدد السياق الخاص: اللغوي وغير اللغوي - يمكن أن يفسر بأنه تبليغ: "أنت آت غداً"، أو استفهام: "أنت آت غداً؟" أو طلب: "أنت آت غداً". وإذا كان العرف اعتباراً تداولياً، فإن منطوقاً مثل: "هل يمكنك أن تفتح الباب؟" أو "هل يمكنك أن تدخل؟"، سوف يدل على ارتباط التمييز بين أفعال الكلام المباشرة وأفعال الكلام غير المباشرة بالعرف ارتباطاً قوياً. إذا كان الاستفهام يستعمل فعلاً كلامياً مباشراً للسؤال، فإنه يستعمل أيضاً فعلاً كلامياً غير مباشر للطلب. من اليسير أن نلاحظ أن المنطوقين الأخيرين لا يتماثلان تماثلاً تاماً مع الاستفهام العادي. يبين العرف أن الإجابة عن أحد المنطوقين ليست بـ "نعم" ولا بـ "لا"، ويبين العرف أن الصيغة الدالة على الإمكان (وهي فيها الفعل المساعد "يمكن") لا تسأل عادة عن معلومة. بل علامة على الالتزام بالفعل في المنطوق الأول (ولهذا تصحب غالباً بالمعبرة "مر فضلك") وعلامة على الالتزام بالإذن في المنطوق الثاني. من أجل ذلك، لا يمكن أن يفسر المنطوق الثاني مثلاً بأنه يعني: "هل هذه هي الحال التي كنت فيها إذاً بالدخول؟" ولكنه يفسر بأنه يعني: "أسألك أن تعطيني إذاً دخلاً".

أبلى جون سيرل بلاه حسناً في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة. كل من جاء بعده عالة عليه في ذلك الباب، سواء من سكان منهم من اصحاب تداولية أفعال الكلام أم من اصحاب تحليل الخطاب تحليلاً عاماً أو تحليلاً تقابلياً. في باب "أفعال الكلام غير المباشرة" أدخل جون سيرل الإنماع Hint، والتلميح Insinuation، والمفارقة Irony، والاستمارة Metaphor. في تلك الصور جميعاً ينفك معني منطوق المتكلم Speaker's Utterance Meaning عن معنى الجملة Sentence Meaning. هناك حالات ينطق فيها المتكلم جملة ويعني ما يقوله، ولكنه يعني في الوقت نفسه فعلاً إنجازياً آخر ذا محتوى قضوي مختلف. مثال ذلك أن ينطق المتكلم الجملة: "هل يمكنك أن تتاولني الملح؟" وهو لا يعني سؤالاً مجرداً، بل يعني التماس مناولته الملح⁽¹⁾.

انتهى سيرل في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة إلى عدد من الملاحظات والنتائج المهمة التي صار لها مدى واسع في أدبيات نظرية التأويل، نوجزها فيما يلي:

- ١- يمتلك المنطوق الواحد - في مثل تلك الحالات السابقة - قوتين إنجازيتين اشتري. إذ يؤدي فعل إنجازي أداء غير مباشر عن طريق أداء فعل آخر.
- ٢- تبدو بعض الجمل من النوع السابق مستعملة غالباً استعمالاً عرفياً Conventionally Used على أنها التماسات غير مباشرة.
- ٣- في أفعال الكلام غير المباشرة يبلغ المتكلم المستمع أكثر مما يقوله عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بينهما؛ لغوية وغير لغوية، بالإضافة إلى اعتماده على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المستمع.
- ٤- بناء على ذلك، فإن الجهاز الضروري لشرح الجانب غير المباشر من أفعال الكلام غير المباشرة سوف يشتمل على نظرية أفعال الكلام، وعلى بعض الأسس العامة للمخاطبة، وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمستمع، فضلاً عن مقدرة المستمع على الاستدلال.

(1) Searle, John: Expression, op. cit. p. 74

من حقل العمل الإيحائية غير المباشرة. كانت التوجيهيات Directives،
بمختار منسج، مباشرة. وذلك أن متطلبات الكيسية أو التأديب في
بعضات متنوعة تحملها ثقيلة ومحيرة في إنتاج جعل أمرية بسيطة (مثل
ترك الغرفة) على أو أدائيات صريحة (مثل "أمرك أن تترك الغرفة").
من ثم، يسعى الناس إلى إيجاد وسائل غير مباشرة لأداء أفعالهم
الإيحائية.

بب العرف في بعض الحالات دوراً خاصاً. هناك بعض الصيغ اللغوية
تعمل إلى أن تصبح مؤسسة تأسيساً عرفياً على أنها الصيغ اللغوية
تقالية المعيارية لأفعال الكلام غير المباشرة. تحتفظ تلك الصيغ
بمعانيها الحرفية، ولكنها تكتسب أيضاً استعمالات عرفية، مثل صيغ
التأديب التي تستخدم للالتماس.

في ضوء ما سبق، يسلم جون سيرل بالتمييز بين المعنى والاستعمال،
ويكنه يرى التسليم بالتمييز بين أعراف الاستعمال وأعراف المعنى على
درجة أقل. بيان ذلك أن ("هل يمكنك" و "أريدك أن" ونظائرها من
الأنشكال اللغوية الأخرى، ليست - في رأيه - إلا وسائل عرفية لعمل
التماسات. ومعروف أن الدافع الأظهر إلى تجنب المباشرة في الالتماسات
هو التأديب. تعمل بعض الصيغ هنا إلى أن تصبح وسائل التأديب العرفية
لعمل الالتماسات غير المباشرة".

قد احتل جون سيرل منزلة متميزة في تداولية أفعال الكلام؛ لأنه انفراد
محاولة إعادة بناء الخطوات الضرورية لإنتاج فعل إنجازي أولى من فعل
إنجازي حرجي، وهي إعادة بناء مؤسسة على حقائق عن المخاطبات،
وأسر التعاون الخطابي. ونظرية أفعال الكلام، وخلفية المعلومات
الشركة بين المتخاطبين، ومبدأ الاستدلال".

أجاء القوة والفرض :

فك خلط بين مفهومي: القوة والفرض عند بعض رواد تداولية أفعال

الكلام ومنظريها منذ أوستين حتى اليوم. في مواضيع عدة من كتابه المشار إليه آنفاً استخدم جون أوستين مصطلح "القوة Force" وهو يعني ما ينبغي أن يعنيه مصطلح "الفرض" أو الغاية من الفعل الكلامي Purpose^(١١). وقد وقع في هذا الخلط نفسه آخرون منهم هارولد سادوك Harold Sadock^(١٢)، وأنا ويرزبيكا Anna Wierzbicka^(١٣)، وغيرهما. انتقلت عدوى الخلط بين هاتين الفهمين إلى الدكتور/أحمد المتوكل، في محاولته الإفادة من بعض معطيات تداولية أفعال الكلام في دراسة بعض أبواب النحو العربي دراسة وظيفية^(١٤).

ميز آخرون بين القوة والفرض، على رأسهم جون سيرل، وفاندرفيكن، وجانيت هولز وغيرهم. الفرض الإنجازي عند سيرل مثلاً جزء من القوة الإنجازية. الفرض الإنجازي للالتماس هو ذاته الفرض الإنجازي لأنواع الطلب Commands؛ لأن كلا منهما محاولة لجعل المستمعين يفعلون أشياء محددة، ولكن القوى الإنجازية بينهما مختلفة اختلافاً بيناً. بناء على ذلك، يرى سيرل أن القوة الإنجازية حاصلة عناصر عدة، الفرض الإنجازي عنصر واحد فقط منها، وإن كان - كما يمتد - أهم هذه العناصر^(١٥).

جدير بالإشارة هنا أن سيرل كان يرى القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأفعال الإنجازية^(١٦). ولكنني أرى الأخرى أن تكون القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأغراض الإنجازية الفرعية لفرض إنجازي أكبر واحد؛ فالإصرار والإصرار فعلان إنجازيان يمثلان غرضاً إنجازياً واحداً، هو الفرض الإخباري ولكن درجات القوة بينهما مختلفة.

من ناحية أخرى يرى سيرل أن القوة جزء من المعنى، وأن المعنى يعين قوة

(١١) انظر مثلاً: أوستين ص ٩٩، ١١٢، ١٢٨، ١٥١ وغيره.

(١٢) Sadock, Harold, M., *Toward a Linguistic Theory of Speech Acts*, Academic Press New York- San Francisco- London (1974) P 10

(١٣) Wierzbicka, Anna, *A Semantic Meta Language for the Description and Comparison of Illocutionary Meanings in Journal of Pragmatics* 10 (1986) pp. 67-107. P 67

(١٤) انظر: أحمد، د. سبكي في بحث اللغة العربية بوصفها لغة ثقافة ونحوها، ص ١١٠، ١١١.

(١٥) Searle John, *Expressions*, op cit, P 3

معناها ما خلق معه فيه، ومما يتفق معه فيه باحثون آخرون كثيرون. فمعنى القوة بأن المعنى والقوة تسميتان مختلفتان لفعل واحد، وليس فعلين متضادين. مما يأخذه عليه: وذلك أن تعيين المعنى للقوة، يعني أن المعنى ليس هو نفسه القوة، إنما هو أحد محدداتها. لا يمكن أن ننهي إلى تعيين قوة الأمر مثلاً، دون فهم المعنى الدلالي والمعنى الوظيفي للمنطوق. ولا يمكن أن ننهي إلى فصل بين درجة من درجات قوة الأمر، دون فهم المعنيين السابقين المرتبطين بالسباق اللغوي والسباق الموقف. إن قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لثناه، بالمفهوم الدلالي، وهذا يعني أن المعنى أوسع من القوة؛ لأنه يضم جملة والمحتوى القضوي في أن معاً. استعمالات اللغة غير محدودة من جهة القوة الإنجازية، ولكنها محدودة بحدود ما نفعله بواسطة اللغة من جهة الفرض الإنجازي. وكان سيرل قد حصر استعمالات اللغة في أغراض رئيسية خمسة، هي: الإخبار، والتوجيه، والالتزام، والتعبير، والإعلان^(١).

خلاصة القول أن القوة والفرض عنصران مكملان للمعنى. القوة درجة وفرض وظيفية. لكل غرض رئيسي أغراض فرعية؛ فالتوجيه مثلاً أحد الأغراض الرئيسية الخمسة في تصنيف جون سيرل. وله أغراض فرعية كالأمر والالتماس والمرض والتحريض وغيرها. ولكل غرض درجات مختلفة من القوة وفقاً لسياقات الاتصال.

(د) علامات القوة :

جعل أوستين للقوة علامات ستا هي: الصيغة ("أغلق الباب") تضاهي لمرتكب ("أغلق الباب إذا أردت" تضاهي أنن لك) ونغمة الصوت (تختلف نغمة التعذر عن السؤال أو الاعتراض... إلخ) وأشياء الجمل (التي يقصد بها تكيف قوة المنطوق مثل: تكبير قوة: "سوف أفعل" بإضافة "من المحتمل"، لتكبير قوة النهي بالطرف مثل: "لا تمس أبداً..." وأدوات الربط (مثل "من أجل ذلك") التي تستخدم في قوة "استنتج" و "على رغم ذلك" التي تستخدم في قوة "أسلم بأن" ومصاحبات المنطوق (كان تجعل منطوقك مصحوباً بحركة حسمية كإشارة الإصبع، أو غمرة العين... إلخ) وملابسات المنطوق

(١) صحت القول في ذلك في موضع آخر. انظر طلبة الحديث المعاصر: مجلة الدراسات اللغوية، د. ف. الفاك، فصل، سنة ١٩٦٥، لعدد ١ (١٩٦٥-١٩٦٦) ص ١١-١٢، ص ١١-١٢.

(وهي تساعد مساعدة مهمة للغاية في تحديد الفرض؛ فالأمر يمكن أن يكون أمراً، أو إلثماً، أو عرضاً، أو التماساً، أو توسلاً، أو اقتراحاً، أو توصية أو تحذيراً... الخ^(١١)).

في دراسات أخرى لاحقة امتدت علامات القوة إلى مستويات التحليل اللغوي مكافئة، لا سيما العلامات الصوتية والتركييبية والخطابية.

أشرنا إلى أن القوة الإيجازية بمد من أبعاد التمييز بين أغراض فرعية لفرض إيجازي أكبر واحد، تنتج بتفاوت درجات القوى. يعني هذا أن الفرض الواحد تعرف منطوقاته قوى إيجازية عدة. في الفرض الإيجازي الإخباري مثلاً يمكن أن نقول: "ضاع" و "أظنه ضاع" و "والأسفاه، ضاع!" و "توقف عن الإيجازي التوجيهي، يمكن أن نقول: "توقف عن الكلام!" و "توقف عن الكلام، من فضلك!" و "توقف عن الكلام راضياً أو غير راضياً!" في كل من "ضاع" و "توقف عن الكلام" نحصل على القوة الإيجازية الأسبقيات الفرض الإخباري أو التوجيهي، وفي "أظنه ضاع" و "توقف عن الكلام، من فضلك" تدخل علامة من علامات القوة هي فهما علامة إنقاص في درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ في الفرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأديب، في تحقيقها الفرض الإيجازي التوجيهي (هالمتكلم باستخدامه "من فضلك" يمنح المستمع حق الاختيار في عمل محاولته بجعله يفعل شيئاً ما^(١٢)).

وفي المنطوقين الآخرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن "والأسفاه" عن أسف المتكلم الذي ينقله المحتوى القضوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلغي "راضياً أو غير راض" حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإغرام على الفعل.

(١١) راجع في تحليل ذلك أوستين ص ٧٣ وما بعدها.

(١٢) يفسر المؤلف -سرح عام- مراعاة مشاعر الآخرين وكما تقول خبثت هورنر، فإن التأديب يعني لهما أن تحلف الآخرين على صوره، فإلا فذلك. أم الخيارات للحرية غير المستعدة يمكن أن تعد عشرة أو أقل. وتشير جيليت إلى أنها بحاجة إلى أن هذه القيم الاجتماعية تمنع ما حتى تتكلم على هو مؤيد. وتسل جيليت للكتاب لفظين اثنين هما: التأديب الإيجابي Positive Politeness الذي يتعدى إلى تحقيق للتنسيت (Solidarity) وذلك أنه يدعم السلوكيات والقدرة للشفقة والوسط الثاني هو التأديب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يحل بعضهم بعضاً أولاً. يندى: أحدهم على الآخر.

Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics, Longman, London and New York (1991), pp. 246, 267.

علامات لقوة سابقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية
تدليح لعلية تقود إلى تمييز القوى الإنجازية والتمييز بين درجاتها. يضاف
إلى التدليح للعلية اعتبارات تداولية (بما في ذلك أعراف الاستعمال
مهمة كمد شرحها سيرل⁽¹⁾، والاستلزمات الحوارية Conversational
واعتبارها بما في ذلك المبادئ الخمسة التي قدمها جرايس والتي يتبناها
تدريكون في تخاضب⁽²⁾).

هـ. نسبية القوة:

كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين
يترجم عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أي كان
يؤثر العلامة الدالة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف
درجتان متتويتان، فإن القوة الإنجازية ينفي لها أن توصف بأنها نسبية. يهان
هذا الأمر - مثلاً - بوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الفرض
الجزري التوجيهي، وأنه الأشد تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في
الاستعمال الفعلي المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك
ينحصر على التسليم، إذا قارنا مثلاً "الأمر" بالصيغة ذات الفعل المساعد
"يس" أو "ينبغي" سيبدو "الأمر" من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون
مخضعاً في كامل سلطته in full authority (سكالقائد في الجيش) للتأكد من
تأثيره "قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين "يجب"
أو "ينبغي") ومن ناحية أخرى، سيبدو "الأمر" أضعف كثيراً عندما يستعمل
في "دخول" (في إجابة عن طريقة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إنشأ.
في حال لا يناسبها أبداً استخدام "يجب" أو "ينبغي".

يشرح ف. ر. بالمير F.R. Palmer المسألة السابقة بأن المستمع يمكنه أن يرد -
لذلك - رداً فيه إهانة: "من أنت حتى تعطيني أوامراً؟". يبدو الأفعال

(1) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(2) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp.44-45

مصدر: محسن بريح (محررة) - مرشد في تحليل مدون محسن (1999-1997)

المساعدة ذاتها (نحو: "تقدر" و"تستطيع" و"يمكنك") المستخدمة للإن، أقل نادياً - في هذه الملاحظة - من الأمر. يستطيع المستمع هنا أيضاً أن يرد في إهانة: "من أنت حتى تعطيني إنذاراً؟". نتفق مع الملاحظة وزيته أن "الأمر" هنا لا عمل له إلا بالتعبير عن فكرة قصد المتكلم - في رضا - إلى الفعل *can*، على نحو أشد حيادية، إنه يمرض قضية فحسب. فكما هي الحال تعلقاً في الإعلان Declaration: ولكنه يمرضها من أجل الفعل، لا من أجل أن تكون مقبولة عند المستمع فحسب، لصدقها⁽¹⁾.

الأمر إذن اصطلاح حيادي داخل النظام الفرعي لأفعال الكلام التوجيهية. يقول بالمر: "ليس الأمر بالضرورة أقوى من صيغة الفعل المساعد 'يجب' أو 'ينبغي'". الأمر قضية واجبة الوجود فحسب *deontic proposition* وهو يترك للمستمع الحكم بقوة إلزامه بالفعل من خلال الملاحظات إذا قل قائد لجنوده: "قفوا"، قلن يكون هذا المنطوق إلا أمراً. ولكنه محض تعبير عن إذن بالدخول في "ادخل" حيثما لا يكون استعمال "يجب" في هذه الملاحظة مناسباً. من ثم يتبين أن الأمر ليس أقوى من "يجب" ولا أضعف. فكما أنه ليس أكثر نادياً من "يجب" ولا أقل⁽²⁾.

٣- تحليل القوة الإنجازية :

يمتلك المتكلم منظوقه أو يكتفه لمقصده في سياق اتصال بهينه يحدد مبدأ تعديل القوة الإنجازية من البداية مبدأ معروفاً عند جرايس، هو: "كن مقتصداً Be Brief" وذلك أن المتكلمين - فكما يقول ميخائيل ستوس - لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب لست هناك تعبيرات أسلوبية⁽³⁾.

يعد مبحث التعديل (أو التكييف) من أثرى حقول البحث وأكثرها فائدة في تداولية أفعال الكلام في النظرية اللسانية المعاصرة بعامه صار مبحث التعديل دعامة لسانية تداولية أساسية في نظرية النص

(1) Palmer, F.R., Mood and Modality, Cambridge Univ. Press (1993) P.29

(2) فرج لساني ص ١٠٩ ويستند إلى صيغة *deontic* المعروفة بترسيخ الجسم منه "أفعل من حيث الأثر" أي "تسبب" أو "تجبر" - *imperative* - لا تفعل على مصرعك "أفعل" أو "فعل" (المراد)

(3) *Containing an element of will* : فرج منه ص ٩١

(4) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, op cit. P.157

تحليل الخطاب وصار تبعا لذلك من الدعامات اللسانية التداولية
التي هي النظرية الأدبية المعاصرة بأسرها. إذا كنا نريد فقها حقيقيا
لنظرية الأدبية المعاصرة ومعطياتها في التحليل العلمي للنصوص الأدبية
فإننا نحتاج بالأساس اللسانية التي اعتمدت عليها في بناء برامجها وألياتها في
ذلك التحليل.

لنصرف غايقتنا هنا إلى بحث تأثيرات الاستراتيجيات التي توظف في
عمل القوة في المنطوقات المؤثرة تأثيراً إيجابيا والمنطوقات المؤثرة تأثيراً
سلبياً، مولين على ما تزود به النصوص. لاسيما النصوص الأدبية - من
شعرية ونحلية ونحوها - أن نفقد من أحدث الدراسات في مجال تعديل
قوة الإنجازية لبيان الدوافع والأسباب التي تحدد المتكلمين إلى توظيف مثل
الاستراتيجيات أما دأبنا الأكبر، فهو وصف الوسائل اللغوية المختلفة
في يكيف بها المتكلمون قوة المنطوق الإنجازية على نحو أو آخر .

(1) استراتيجيات التعديل :

من المسلم به أن تعديل قوة المنطوق الإنجازية يرتبط باستراتيجيات
تصل العامة. إذا تأملنا دوافع السلوك الاتصالي، فسوف يتبين لنا أنها تنوع
بحالة إلى أخرى. يضع المتكلم عرضاً أو التماساً، تهديداً أو احتجاجاً،
يحاول فدحا، حثا على فعل أو نهياً عنه، إعلاء شأن أو إبطاله وهكذا.
فهو غرض المتكلم هو الذي يحدد الطريقة التي يتكلم بها، فالشخص
الذي يستطيع - كما يقول ز. سالزمان Z. Salzman - أن يتكلم في
حالة واحترام، عندما يوقفه شرطى عن عجلته أملا أن يترك هذا السلوك
علامى الاعتذارى المهذب أثره في ذلك الشرطى، بأن يكتمى - مثلا -
الهدف. وإن كان مستحقا القرامة⁽¹⁾.

كل سلوك اتصالي موجه إلى هدف والأهداف مختلفة. والقضية التي
يحلها الباحثين في شتى أنواع الاتصال اللغوى هي - كما يقول
رومان ياكوبسون Roman Jakobson - مطابقة الوسائل المستخدمة للأثر

(1) Salzman, Z. Language, Culture and Society. An Introduction to
Anthropology. Westview Press. Boulder-San Francisco Oxford (1991), P. 138.

المستهدف⁽¹⁾.

إن من الحقائق الجوهرية في الاستعمال اللغوي ارتباط الصيغة بالمقصود ومن المسلم به في كل تفاعل لغوي، أن الصيغة التي يقال بها الشئ تعد جزءاً مما يقال. حينما يعدل المتكلم قوة منطوقة الإنجازية، فإنه يدل بذلك على وعيه بالمقصود وتقديره مقتضيات السياق وهما يرتبطان - لا تقديراً -

بكفاءة المتكلم وأدائه معاً. ولعل خير تفسير سوسولوجي لهذين الاصطلاحين، ما نجده عند بـ B. Bernstein تشير الكفاءة عند المتكلم مستخلصاً من المحددات والقيود السياقية، ويشير الأداء إلى المتكلم في قبضة تلك القيود السياقية التي تحدد منطوقاته. تشير الكفاءة إلى المثال Ideal، ويشير الأداء إلى الحال Fall⁽²⁾.

في السبعينيات، كان الباحثون قد اعتادوا البحث فيما سمي بـ "ثقافات التآدب السلبي Negative-politeness cultures" وكانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بآثر ظاهرة التآدب في الاستعمال اللغوي، منصرفين - في حالات كثيرة - إلى علاقة السؤال بمظاهر التآدب في الخطاب.

وفي عام ١٩٨٠ أصدر كل من فريزر Fraser ورينتل Rintell وولتز Walters بحثاً مشتركاً عن اكتساب "الكفاءة التداولية" في اللغة الثانية Second language في هذا البحث عرض هؤلاء للاستراتيجيات والقوالب الدلالية التي تتخذها اللغة لأداء فعل كلامي بعينه: فإذا استطاع المتكلم مثلاً أن يلتصق - في إحدى اللغات - عن طريق سؤال المستمع عن قدرته على فعل كلامي (هل تستطيع أن تفعل هذا؟) أو عن طريق التعبير عن رغبته في أن يفعل المستمع ذلك الفعل الكلامي (مثل: سأكون ممتناً حقاً إذا فعلت هذا) فإن هذه الاستراتيجيات ذاتها، تعد نافعة للمتكلم في أية لغة أخرى⁽³⁾.

(1) Jakobson, Roman: *Linguistics and Poetics*. In: Marcel Danesi and Donato Scatena (eds.) *Introducing Semiotics*. Canadian Scholars Press Toronto (1992) pp. 47-72, p. 48.

(2) Bernstein, B.: *Social Class, Language and Socialization*. In: Pier Paolo Giglioli (ed.) *Language and Social Context: Selected Readings*. Penguin Books, Clays Ltd England (1990) pp. 157-178, p. 160.

(3) Fraser, Bruce-Kimeli, Ellen- Walters, Joel: *An Approach to Conducting Research on the Acquisition of Pragmatic Competence in a Second Language*. In: Li Lanier (ed.) *Discourse Analysis in Second Language Research*. Newbury House, Rowley (1980) pp. 75-91, p. 76.

في ذلك تعدداته. عرض فريزر في بحث له مفرد، مبهوماً تدولياً مهماً في رعيه اسم التنشيف "Conversational Mitigation" بين فريزر أن تنشيف استراتيجيه يعتمدها المتكلم لتخفيف قوة الفعل الكلامي أو بضمه. يقع هذا التخفيف (أو الإضعاف) - كما لاحظ فريزر - في النطق الذي تبدو تأثيراته غير مرحب بها عند المستمع^(١).

في عام ١٩٨٤م ظهر أثر بحث فريزر في محاولة جديدة، قدمتها جانيت هولر Janet Holmes لدراسة تعديل القوة الإنجازية على نحو أشد عمقاً وإحاطة^(٢). اجتهدت جانيت في تأمل مفهوم التلطيف في علاقته باستراتيجيات الاتصال لتعديل قوة المنطوق. إذا كان التلطيف يعني تخفيف قوة المنطوق أو إضعافه Attenuation، فقد كشفت جانيت عن استراتيجية مضادة: هي زيادة قوة المنطوق أو تعزيزها boosting or emphasizing the illoc force.

تسر المنطوقات عن أغراض عدة، ويمكن للفرض الإنجازي الواحد أن يقدم في درجات مختلفة من القوة. لنقارن مثلاً بين المنطوقات التالية: "أنت خبيث" و "يا إلهي أنت (هكذا) خبيث" وعندك (شيء) من الخبث". تمبر هذه المنطوقات جميعاً عن غرض إنجازي واحد: هو الانتقاد. ولكن هذا لغرض الواحد، قد قدم بدرجات متفاوتة من القوة. استخدمت "يا إلهي" و"هكذا" تقوية قوة الانتقاد، على حين استخدمت "شيء" لتخفيف هذه القوة وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق؛ لأن الانتقاد فعل كلامي سلبي التأثير. في حالات أخرى، يبدو الفعل الكلامي فعلاً إيجابياً التأثير، نحو: "أنت طريف" و "حقاً أنت طريف" و "أنت طريف (نوعاً ما)". في هذه المنطوقات يستخدم المصدر المعجمي "حقاً" لزيادة القوة الإنجازية التي قدم بها غرض التمجيد. أما المصدر المعجمي "نوعاً ما" فقد استخدم لتخفيف هذه القوة. ولما كان تأثير المتوقع لمل هذا الفعل الكلامي تأثيراً غير مرغوف، فإن استراتيجية من تلك الاستراتيجيات لا يمكن أن تعدل حتى تصبح تلطيفاً^(٣).

(١) Fraser, Bruce: Conversational Mitigation. In Journal of Pragmatics 4 (1980) 341-350, P.342

Holmes, Janet: Modifying Illocutionary Force. Journal of Pragmatics 15 (1991) 345-365

من الوسائل الأخرى التي تعتمد استراتيجيات التعديل بزيادة شدة
الفرض الإنجازي أو إنقاصها ما يسمى باسم " الإشارة الصريحة explicit
reference " إلى شروط الصدق التي تحكم أنواعاً مختلفة من أفعال الكلام.
من هذه الأفعال الكلامية ما أسماه جون سيرل بـ " أفعال الكلام المرضية
representative speech acts " (١).

هذا النوع مما يمكن تقوية قوته أو إضعافها إلى درجة اعتقاد المتكلم،
أو مدى التزامه بالقضية التي يعبر عنها المنطوق؛ كقولنا: " (أظن) أنه يوم
دراسي " في مقابل: أنا (متأكد) تماماً أنه يوم دراسي " . يسري الإضعاف
والتقوية على المنطوقات بجميع أنواعها في تصنيف سيرل المعروف: تعبيرية، أو
توجيهية، أو التزامية.....الخ.

(ب) أسباب تعديل القوة :

لماذا يعدل المتكلم قوة المنطوق الإنجازية؟ وما انتمكسات هذا التعديل
على العلاقات بين المتكلم والمخاطب، أو بين المتكلم ومحتوى القضية التي
يعبر عنها؟ تمس هذه التساؤلات جوهر إجرائية التعديل في علاقتها
باستراتيجيات الاتصال. ترى جانيت هولمز سببين رئيسيين اثنين يدفعان
المتكلم إلى تعديل القوة المعتمدة في التعبير عن فعل كلامي بمهنة :

(أولهما) التعديل من أجل نقل المعنى المرتبط بسلوك المتكلم وتصرفاته
تجاه القضية التي يعبر عنها (Modal Meaning).

(والآخر) التعديل من أجل التعبير عن معنى تأثيري Affective meaning ، أو
عن سلوك المتكلم إزاء المخاطب في سياق المنطوق (٢).

يمكن أن ندرج هذين المعنيين اللذين ذكرتهما جانيت فهما يسمى
Modality. يجمع هذا المصطلح طائفة الوسائل التي تدل على سلوكيات
المتكلمين وتصرفاتهم تجاه ما يعبرون عنه من قضايا، وتجاه مخاطبيهم إلى
حد ما. تتوزع هذه السلوكيات والتصرفات إلى: ميادين الصلاحية Area of
Validity (حيث يعبر 'المتكلم' بثقة أعظم أو أقل عن صدق قضاياها)، والقدرة

(١) Searle, John Expression op cit P.27

(٢) Holmes, Janet Modifying op cit P.346

بحالات أخرى يقتضيها السبك ولا لثر فيها لقصد التقرير أو التوكيد أو الإقناع أو نحو ذلك ، ولكننا نريد لنذكر أمثلة للتوضيح من نصوص كتب ولقد مررنا بالعقد:

- قوله: فتتهيج فيها (الأصوات) العاطفة العاطفة ، وتبعث الرغبة الرغبة^(١).
- وقوله: «وكأنما ينزع نفسه من نفسه»^(٢).
- وقوله: «لأن المدرك مشارك فرد واحد ، والهوى هوى نوع بلهر»^(٣).
- وقوله: «بخالجه القضب كما بخالجه الطرب»^(٤).
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله وتصل حل الحياة جيلا بعد جيل»^(٥).

يمكن أن نرى لبعض هذه الاستخدمات وظائف خاصة ، كان تكون الوظيفة هي الوصف في نحو «جيلا بعد جيل» ؛ أي لجيالا متتابعة ، ولكننا لا نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصة Cohesive Function يقتضيها التركيب ، لا بلاغية يقتضيها المقام . مثل هذه الحالات لا موقع لها من الأهم في دراستنا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل ، وفقا لما يتيحه لنا استقراء النصوص المختارة ، وهي:

(١) الغزل الطيبي ، من كتابه : الفصول ص ٩٥ .

(٢) لمرجع السابق ص ٩٦ .

(٣) لمرجع نفسه ص ٩٩ .

(٤) لمرجع نفسه ص ١٠٢ .

(٥) لمرجع نفسه ص ٩٩ .

- ١- تكرير المكرر بذاته ، سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك ، في منطوق ولحد ، لم غير ذلك .
- ٢- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة .
- ٣- التكرير بإعادة الصياغة .

لما (النوع الأول) ، وهو تكرير المكرر بذاته ، فقد يكون لفظاً مفرداً ، يحول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «لأن كقوا كذلك ، فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راعيا ويلذ راعيا ويلام راعيا!»^(١) . وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتغير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث ، والطعام الملوث»^(٢) . وربما امتد تكرير اللفظ في النص للحجاجة العربية امتداداً أبعد كثيراً حتى يبدو للنواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسية . ومن ذلك مثلاً كلمة «متعددة» في نص «التعدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر ، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة ، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظيره إلى الأمور له وجوه متعددة ، وهو من حيث إنه إنسان له عقل ، تخطر عليه تسلاوات متعددة ، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة ...»^(٣) .

يريد الكاتب بالتكرير فيما سبق تثبيت تبريره دعواه ، حيثما يكون استباقه

(١) مقال «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٣١/٣ .

(٢) مقال «نشودة الأمل» من كتابه: كلمة السر ، كتاب اليوم - دار أخبار اليوم (١٩٩٨)

ص ١٥ .

(٣) مقال «التعدد في حياة الإنسان» من كتابه: الله في الإنسان ، مرجع سبق ص ١١ .

المكرر في الزمان والمكان وسيلة لتحضض ضده .

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى هذه بالخصم ولفضح جهله . نضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «لماذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نلهم هؤلاء السادة «المتقدمين» !»^(١) .

في عبارة «هؤلاء السادة المتقدمين» سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم ، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القدماء» قبلها .

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم . وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كفاءة اتصالية حجاجية عالية . نؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأحصنوا بلاءهم ، ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء ولحدا ، لو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء ولحدا»^(٢) . وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات . يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب . ويمكن في الموضوعين الثالث والرابع الاستغناء عنها ، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ

(١) مقال لحسن في ، من : حديث الأربعاء ١٢٦/٣ .

(٢) المرجع السابق ١٢٧/٣ .

تهدف خصمه - موصوفاً بالسفه - مع كل مرة ! التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق إحضار زعمه وكشف حقيقته .

من ناحية أخرى ، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة . ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات ، كما يقع في التبريرات والدعوي جميعاً . ولفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى ، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج لم وقعت المقدمة والدعوى في مكثبيهما المعتادين . في مقدمة حجاجه ، نرى للكندي هذه الجملة : «إنما المال لمن حفظه» . وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيها سبق من خطابه على صحتها بالتبرير : «فالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن ألقاه» ^(١) . يذكر طه حسين على أنصار القديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة ، فيقول : «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحائف والأكواب من الفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكرسي رفصاً ، وأبوا أن يستمتوا بكل ما تاحت لهم الحضارة الحديثة من ألوان الفرف والذلة البريئة - أريد أن أرى هؤلاء ، ولكني بأني من رؤيتهم» ^(٢) . التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صحاحيته معتد به ، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة ، لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المعتد .

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح ، يكرر منطوقه تثبتاً لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى . من ذلك مثلاً

(١) البغلاء ص ٧٨ .

(٢) مثل «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٢٢/٣ .

العبارة «ليس من التقديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيها يلي: «ليس من التقديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير لو تلاثم بينه وبين اللغة . وليس من التقديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تتطرق باسمها إلا إذا وجنت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من التقديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القنماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القنماء ... ثم ليس من التقديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القنماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فزون الشعر والفنر إلا ما عرفوا»^(١).

وتكرر الجملة جزءا من منطوق كامل في عجزه أيضا اكتول محمد زكي عبد القادر في توكيده ولحذية مصدر أشياء عدة: «الألب العظيم جاء من المعناة ، والفن العظيم جاء من المعناة ، والحب العظيم جاء من المعناة ، ...»^(٢).

يهدف للتكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات . فـه يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوما أكثر . فـه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقل ولتملكه .

لما (النوع الثاني) ، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فنراه في غير نص من النصوص المختارة . يمكن أن نرى من ذلك قول إخوان الصفا: «واعلم أن إقدار الله للقادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس

(١) المرجع السابق ص ٢٥/٣ .

(٢) مقال: من الألم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه : الله في الإنسان ص ١٥١ .

رئسده يستعمسي عليها هنا حصره حصراً وتقيده تقيدهاً ما نعالحه في هذه لدراسة قدر مستهل من المصادر الإبحارية للمربية. وإن كان كفاهاً لمرض صورة مناسبة عن تعديل القوة الإبحارية في الحطاب العربي (أولاً) وسائل التقوية،

يمكن أن نميز - في العربية - بين أربعة أنواع من الوسائل اللغوية المستخدمة لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، وهي: وسائل التشكيل الصوتي Prosodic Devices، والوسائل التركيبية Syntactic devices، والوسائل المعجمية Lexical Devices، والوسائل الخطابية Discourtal Devices.

ج ١/ وسائل التشكيل الصوتي:

وتسمى أيضاً باسم الوسائل التطريزية. ويقصد بها نوع النغمة، والنبر، وجهارة الصوت، والنغمات التقليلية Contrastive Pitches (وهي النغمات الأدنى أو الأعلى من نغمة المتكلم العادية)، وجهارة الصوت التقليلية Contrastive Volume. هذه الوسائل جميعاً وسائل فونولوجية توظف في تقوية قوة المنطوق؛ فكان تقول: "غبي" لجهة جهارة الصوت الأقصى. وقد تستخدم جهارة الصوت الأدنى مع النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز القوة الإنجازية لمنطوقات سلبية التأثير، مثل: "مفروراً". وقد تستخدم النغمة الأشد انخفاضاً لتعزيز قوة المنطوق لإيجابي التأثير أيضاً، كقولك: "ظريف" أو "عظيم" ونحو ذلك.

المعول عليه في كل حال، هو سياق الموقف الذي يعين كنه المعنى التأثيري للنموذج التشكيلي. يبان ذلك أن المنطوق الأخير مثلاً "عظيم" يمكن أن يدل على معنى تأثيري يضاد الحقيقة، وهو - إذ ذاك - تعبير عن المعنى على سبيل المفارقة Irony Meaning. في مثل هذه الحال، سيدل المنطوق على ضد معناه الحقيقي أو الحرفي من أجل ذلك سيستلزم المنطوق نغمة هابطة ساخرة وجهارة صوت منخفضة.

والنبر التعبيري من النماذج الفونولوجية التشكيلية الدائرة في خطاب المواجهة. يستخدم النبر القوي لتعزيز قوة المنطوق الإنجازية، كقولك: "فطيم" لودلك بنبر المقطع الأخير نبراً قوياً، تمطل معه الحركة الطويلة مطلاً زائداً يناسب تميز معنى الاستعساس أو الاستهجان وفقاً لإيجابية المنطوق أو سلبيةته.

حدير بالإشارة أن الوسائل الفونولوجية التشكيلية ليست من بنية المنطوقات في الشفرة المكتوبة. وعندما ينص عليها الكاتب، فإنه يدل بذلك على أهميتها ولزومها من حيث هي محدثات صوتية سياقية مهمة في تفسير النص. يكثر ذلك في لغة القص وفي الحوار المسرحي الذي يحاكي الحوار المنطوق في الواقع. من أمثلة ذلك في لغة القص ما يرويهِ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عن أحد بخلائه: وهو ابن أبي المزل، قال: "فلما حضر وقت الغداء، صوت بفلامه وكان ضغماً، جهير الصوت، صاحب تقمير وتقميم وتشديق وهمز جزم - يا مبشر! هات من الخبز تمام عدد الرموس^{١١}" جهارة الصوت والتقمير ونحوهما وسائل فونولوجية تشكيلية اتخذها ابن أبي المزل في كلامه، من أجل تمييز قوة المنطوق التوجيهي الإنجازية.

ج ٢/ الوسائل المعجمية :

يقصد بالوسائل المعجمية ما قد يستخدمه المتكلم - في بعض السياقات الاتصالية - من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية. يتنوع صور التقوية هنا وفقاً لما توجه إليه هذه العناصر؛ فقد توجه إلى المتكلم، أو إلى المستمع، أو إلى المحتوى القضوي.

ج ١/٢ المقويات الموجهة إلى المتكلم :

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المتكلم Speaker-oriented boosters المعززات المعجمية التي تشير إلى صدق المتكلم أو ثقته بما يعلم. الأمثلة التالية من قصص مكتوبة أدبية :

- " لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة؛ لأنني (أعلم على التحقيق) أن لفظة شاهدت المكتوبات في المدرسة، وشاهدتها في البيت^{١٢} ".
- " على أنني (أعتقد) يا صاحبي أن الطرد الوحيد الذي فتح لنا من هذه المتاهات، هو طريق كتبت عليه كله - واحدة، لا تتبدل في مشكلة من المشكلات وهي كلمة "التعاون"^{١٣} ".

١١ - جاحظ، مرجع سابق ص ٨٥.

١٢ - مقول من قصص محمود إبي علي.

١٣ - مقول من قصص محمود إبي علي.

- وإنني (الأؤكد لك) أنني لو ملكت القصل قولاً وعملاً في قضية المداهب الاجتماعية، لأوجزت الحكم وحسنت الخلاف^(١).

- إني (واثقة) أنك لن تقملي شيئاً^(٢).

مما ينبغي لنا ملاحظته هنا أن هذه العناصر المعجمية الموقية الموجهة إلى المتكلم تشيع في الشفرة المنطوقة بخاصة: لقيام الموقف الاتصالي على التفاعل المباشر، ومن ثم يكثر أن يدور في المحاورات ما يسمى باسم القواطع الأسلوبية Style Disjuncts، نحو: بأمانة، صراحة (بصراحة)، بصديق.... وغيرها :

- (بصراحة) هذه عيشة مضمّنة^(٣).

ج/٢/٢ المقويات الموجهة إلى المستمع :

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المستمع hearer-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إشارة ضمنية أو صريحة إلى معرفة المستمع، أو إلى المعلومة التي تصنع خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم. المثالان التاليان من بخلاء الجاحظ، يوضحان ما سبق :

- "أعلم أنني منذ يوم ولدتها، إلى أن روجتها، سكنت أرفع من دفيق كل عجنة حفنة، وكنا (قد علمت) نخبز في كل يوم مرة، فلذا اجتمع من ذلك مكوكل بمته"^(٤). لمن كلام مريم الصنّاع، وكانت زوجت ابنتها، فحلّتها الذهب والفضة، فسألت زوجها: أنى هذا يا مريم^(٥).

- "والنبهذ - (ما علمت) - والله يذهب بالحفظ أجمع"^(٦). لمن كلام لابن غزوان - أحد بخلاء الجاحظ - وكان المكّي قد ضبطه متلبساً بسرقة مخدته، فزعم ابن غزوان أنه جاء إليه لهيموي رأسه، فلما صارت المخدة في يده نمسي ما جاء له^(٧).

في الشفرة المنطوقة تكثر عناصر معجمية خاصة، مثل: طبعاً، (أوافق

(١) المرجع نفسه ص ٥٢.

(٢) المكعب، ترفيق: الطعام لكل فم، مكتبة الأديب، د. ت ص ٣٧.

(٣) درة، عبد الطوف، عشاق فرق العادة، سلسلة المسرح العربي، مجلة نصرة العامة للكتاب (١٩٩٥) ص ١٩.

(٤) سجلا، ص ٢١.

(٥) المرجع السابق ص ١٩٩.

توكيداً لعقولة فقران الحياة بالألم في شتى حالاته .

و«رابعها» أن تتضمن الكلمة الثنية الكلمة الأولى ، وهو أن تكون علاقة ثنية بالأولى علاقة العام بالخاص . من ذلك مثلاً قول العقاد في سياق يحضه وهما شاعرًا بين فراء شعر : وهو أن شعر الغزل ينبغي له أن يكون مفرطاً في رفته بعيداً عن الحنف والقوة : «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعتد الصوت لفظاً وحروفاً . فيبتدق الغزل من النفس المحترمة تنطقاً لويلاً علماً»^(١) . فالعلم يتضمن أقوى بالضرورة . وهو يتضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى . وهذا الشكل كثير الوقوع في النص الحجاجي العربي.

و«خامسها» وهو عكس الشكل السابق أي أن الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثنية . ومن ذلك قول الإخشيدي في سياق احتجاجة لحسن سياسته ممالكه ورعيته : «وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عظمها وسعتها ، بفضل الله علينا ... وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»^(٢) . السعة مضمنة في العظم . والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العلم إلى الخاص.

(النوع الثاني) وهو تكرير المضمون المبني على مفردتين في جملتين . ويستلزم - من خلال فحص النصوص المختارة - على أنه أقل الأنواع وقوعاً ، فهو يمثل ٤٠,٥ ٪ من مجموع الأنواع الأخرى . ومن أمثلته قول الكندي في سياق احتجاجة لحرصه على دراهمه تجنباً للفقر والحاجة : «كيف تأمروني أن

(١) مقال: الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٦ .

(٢) كتاب الإخشيدي ، من كتاب : جمهرة رسائل العرب ٤١٩/٤ - ٤٢٠ .

لوثر أنفسكم على نفسي ، وأقدم عيالكم على عيالي؟» (١). ومنه أيضاً قول مصطفى محمود في سياق تدعيم دعوته أن الحب هو راس القضية: «وما كان لمسيحيون الذين جاعوا غزاة طامعين على دين ، أي دين ، ولا كان سفاحو لمرح الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة» (٢) ، ولطف الكندي بين (لوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى ، ولطف مصطفى محمود في جملتين من قطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة) . في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر جملتين ، ووقعا بعجز الجملتين في الحال الأخيرة .

(نوع ثالث) وهو تكرار مفردتين في ثنائية . يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى ، أي ما يقل كثيراً عن سبب تلك الأنواع ، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبياً في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها لأن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة . من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمت أنما سمينا للبخل بإصلاحاً والشمع لقتصاداً ، كما سمي قوم الهزيمة تحبوا والبذاء عارضة ...» (٣).

ومنه قول إخوان الصفا في سياق التماس على التنظير دعماً للدعوى: «وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة» (٤). ومنه أيضاً قول الإخشيدي في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «وإن في الأسرى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر ، وشدة البلاء ، على نعيم الدنيا

(١) البخل ص ٨٠ .

(٢) مقال : الحب القديم ، من كتاب : الإسلام في خندق ص ٨ .

(٣) البخل ص ٧٩ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ٣٦/٤ .

لا تعني قوة التزام المتكلم هنا التقرير قدر ما تعني التعجب من المحتوى بقصوي الذي أودع المنطوق؛ وذلك أن المستمع - حكماً المحنا - يدرك أن المتكلم يجاوز ذلك إلى تزويد منطوقه بقوة تعجبية، فجعله في الاستفهام بلاغي. وقد وقف غير واحد من الباحثين في نظرية أفعال الكلام على منطوقات الاستفهامية من هذا النوع، وأبانوا عن أنه مفترض من قبل، وأنه تعجب الذي يكسب المنطوق قوة^(١). والتفت ر.أ. هدسون R.A. Hudson إلى الأسئلة البلاغية (أو المجازية) Rhetorical Questions معرباً إياها بأنها صيغ استفهامية ذات قوة تعجبية^(٢). والتفت ج. ليتش G. Leech و ج. سفارتنيك J. Szwed إلى الفرق بين الأسئلة التعجبية التي تجر المتكلم إلى الموافقة في قوة، وبين الأسئلة المجازية الأخرى التي تبني تبليغات قوية أو مؤثرة^(٣).

أرى أن نجعل من الأبنية الاستفهامية المعززة لقوة المنطوق الإنجازية، ثنية: (لم لا تستطيع أن تفعل س؟). نرى أن هذا النمط يرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً في قوته بالأمر المتلوب (لم لا تستطيع؟). التركيبان: "لم لا تستطيع أن تتركها وحدها؟" و "أتركها وحدها، لم لا تستطيع؟" يمتلك كل منهما القوة الإنجازية ذاتها، وهما ينطلقان من بنية عميقة واحدة. ولا يمنع هذا من تفاوت أحدهما عن الآخر في شئ من خواصه: فالتركيب الأمرى مقيد بمخاطب، وغرضه محاولة التأثير فيه. أما التركيب الاستفهامي فغرضه بالأحرى التعبير عن أفكار أحدهم تجاه موقف بعينه. من أجل ذلك، نوافق أنا وريزبيكا Anna Weirzbicka الرأي بأن التركيب الاستفهامي، يمد في جوهره نوعاً من الانتقاد. وهو انتقاد مهيج، ولكنه فاقد التأثير. أما التركيب الأمرى فهو في جوهره نوع من التوجيه الذي يهدف إلى تصحيح موقف غير

(١) Kempson, R. M., *Presupposition and the Delimitation of Semantics*. London: New York: Cambridge Uni Press (1975) P.172

(٢) Hudson, R.A.: *The Meaning of Question*. *Language* 51 (1975) pp 1-31, P 9

من عند الإشارة إلى غير هدسون Huddleston بين الاستفهام والسؤال، فالاستفهام مقرون من مقولات إشكالية بحرية وسؤال مقرون من مقولات قسرية. يقف الاستفهام في مكان لإعلان "declarative"، "imperative"، "interrogative"، "exclamative" أما السؤال فيكون مقرون من مقولات قسرية.

Huddleston, Rodney: *The Contrast between interrogatives and question*. *Journal of Linguistics* 10 (1974) pp 1-22, P.22. (٣) Leech, G. & Svartnik, J.: *Communicative Grammar of English*. London: (1974) pp 177

مما سبق يمكن عرض نموذج للتكرير في النص الحجلي العربي على

نحو التالي:

(١) مثل : الألب المصري ، من كتبه : الفصول من ١٠١ .

(١) مثل : لعب التتبع ، من كتبه : الإسلام في خلق من ٧ .

٢٤٩

يقصد بـ *sexuall devices* "أدوات" خارجية عن النص *meta pragmatic devices* ، وما يسرع عن ذلك من وسائل لغوية مرعبة. تنسب قوة إلى قوة المنطوقات الإنجازية. وقد كان لعلم اللغة النحوي تقدمه إلى العناية بموقفية النص من خلال سلطته في سياقات انصائية. وكذلك تنهم مقصدية النص في إطار تداولية نصية. اهتمت بها نظرية الشامل اللغوي *Sprechhandlungstheorie* ونظرية أفعال الكلام *Sprechakttheorie*."

من أهم الوسائل الخطابية التي تتضافر في النص أو الخطاب تحقيقاً لهذيفة التقوية تعيين الفعل الأدائي والتكرار والعلامات الرابطة ووسائل ما وراء الخطاب.

جـ ١/٢ تعيين الفعل الأدائي :

تعيين الفعل الأدائي وسيلة صريحة دالة على غرض المنطوق الإنجازي: نحو: أسألك، أخبرك، أذكرك... إلخ. يحلو المنطوق غالباً من الفعل الأدائي اعتماداً على دور السياق، مثل: "زواجاً موفقاً إن شاء الله" (أي: "أرجو"). وحينما يعين المتكلم غرض المنطوق الإنجازي بفعل أدائي صريح، فإنه يريد أن يجعل ذلك نوع توكيد أو تقرير للقوة الإنجازية. وكان أوستين يرى التصريح بالأفعال الأدائية مما يجعل قوة المنطوقات أوضح^(١). وكان ليهنر يرى أن المتكلم يستخدم مثل تلك الأفعال عندما يريد أن يوقع نبأً خاصاً على قوة المنطوق الإنجازية^(٢).

(١) Wierzbicki, Anna A Semantic op. cit. P 80

(٢) Sowiński, Bernhard Textlinguistik Eine Einführung. Verlag W. Kohlhammer: Stuttgart, Berlin Koeln- Mainz (1983) S. 64

(٣) Leech, G. N. Explorations in Semantics and Pragmatics. John Benjamins: Amsterdam: (1980) p. 60

يزيل تمام بن جعفر - أحد بغلاء الجاحظ المروءين - (في رده على شكوى أحدهم إليه ضرره) يزيل غموض الفرض الإنجازي لمنطوقه الاستفهامي قائلاً: "(عجبت) كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع"^(١). ج/ ٢/٣ التكرار:

وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية. يقولون: الشئ إذا تكرر تقرر. والتكرار تفرغه الشفرتان: المنطوقة والمكتوبة كليهما، وإن كان تأثيره في بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى. فضلاً عن تكرار المنطوق بتركيبه، قد يكرر بتغيير طفيف في هذا التركيب. ويمثل للحالة الأخيرة بالمنطوق التالي من كلام أبي مازن - أحد بغلاء الجاحظ - لجبل الفمر الذي لجأ إليه، فتساكر أبو مازن، وقال لجبل: "سكran والله، (أنا والله سكran)"^(٢).

ج/ ٢/٣ العلامات الرابطة:

العلامات الرابطة Linking Signals من الوسائل الخطابية الأساسية التي تميز قوة المنطوق الإنجازية. تعرف المربية كثيراً من تلك العلامات نحو: إلى جانب ذلك، فضلاً عن ذلك، علاوة على ذلك، أكثر من ذلك... إلخ. هذه العلامات نوع من الحشو الخطابي الذي تستخدمه المربية - فيما يثبت البحث اللغوي التقابلي - أقل مما تستخدمه لغات أخرى كالإنجليزية^(٣).

تدخل تلك العلامات فيما يسميه هاليداي ورقية حسن باسم "روابط الإضافة Additive Conjunctions" من النوع الأول الذي يؤدي هذه الوظيفة العامة ذاتها: وهي وظيفة الإضافة: أي إضافة معلومة، أو تكملة كلام سابق^(٤).

وقد تستخدم روابط من نوع آخر لوظيفة التقوية أيضاً، نحو: مع هذا، مع أن، على رغم كذا ونحوها. الرابط الأخير مثلاً يستخدم بقوة "أسلم بأن".

(١) السلا، ص ١٠٦.

(٢) مرجع السابق ص ١٠٦.

(٣) Williams, M. P. A Problem of Cohesion, In J. Swales and H. Mustafa (ed.) English for specific purposes in the Arab World, Birmingham: Language Studies Unit Aston Uni Press (1984) pp. 118-128, pp. 124-125.

(٤) Halliday-Hawson Cohesion op. cit. pp. 242-243.

وهذه الروابط جميعها مما يسميه هالداي ورقيه جسس باسم "روابط المخالفة" *adversative conjunctions* من النوع الأول الدال على هذه الوظيفة العامة داتها^(١). السور حان التاليان بوصفها ما سبق :

- "طارق: تريدان أن تتركبي هذا البيت؟

نادية: هذا ما فكرت فيه من زمن طويل.

السيدة: وأين كنت ستذهبين؟

نادية: هذا شأني وحدي.

طارق: دعها يا أمي تتخذ القرار الذي يريحها.. وسيدمشك أن أقول: إني أوافقها على هذا القرار بكل الموافقة.

السيدة: توافقتها؟

طارق: (أكثر من ذلك) أقول: إني فكرت فيه منذ لحظات...."^(٢)

- " قبل للحارث لمن بخلاء الجاحظ: والله إنك لتصنع الطعام فتجده، وتمظم عليك النفقة، وتكثر منه، وإنك لتغالي بالخياز والطباخ...، ثم أنت - (مع هذا كله) - لا تشهده عدوا لتفمه، ولا ولها فتسره، ولا جاهلا لتعرفه، ولا زائرا لتعظمه"^(٣).

ولاشك أن الروابط من النوعين السابقين ذات علاقة مباشرة بالموقف *Situation*، والوسط *Medium*، والتأثير المقصود *intended effect*. ولا ينضمحل الحشو والترابط أحدهما عن الآخر انفصلاً كلياً، ولا يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً كلياً في الوقت نفسه. كلما زاد الحشو زاد الترابط، ولكن زيادة الترابط لا تؤدي دائماً إلى زيادة الحشو^(٤).

يمكن أن نجعل لوظيفة التقوية روابط من نوع آخر، نحو: " إذن " التي تدخل في الروابط السببية *Causal Conjunction* من النوع الثالث المسمى باسم "الروابط السببية الدالة على الحال أو الملابسة *Condition / Circumstance* ". من هذه الروابط " هكذا " التي تدخل في النوع القرعي الأول من الروابط

(١) المرجع السابق ص ٢١٢-٢١٣

(٢) لغتان تكل لم ص ٨٩.

(٣) سجلا ص ٦١

(٤) Halliday-Haas Cohesion op cit on 242-243

المسببة أيضاً، هذا النوع الذي يدل على السبب والنتيجة *reason / consequence* النموذجان التاليان يوضحان ما سبق:

- الشاب: ولماذا لم تكثبي لي بذلك قبل عودتي؟
السيدة: ربما..

الشاب: هو (إذن) عمل تخجلين منه؟⁽¹⁾

- التوطئة ودورات ذاتية: "وهكذا" انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة⁽²⁾.
ج/ ٤ وسائل ما وراء الخطاب :

تعرف العربية وسائل أخرى، ترتبط - من حيث الوظيفة - بالوسائل الخطابية ارتباطاً قوياً: هي المفردات والمبارات التي تمد وسيلة لقوية صريحة لإبراز معنى المتكلم الذاتي بمجرى الخطاب وحالته، وإن لم تكن من بنية النص المنطوق أو المكتوب، نحو: أشدد، أكرر، أعود فأكرر، أقول ثانية، قلت أكثر من مرة، دعني أشدد ... إلخ.

- السيدة: (قلت لك أكثر من مرة) دعيني أنا أتصرف⁽³⁾.

ومن وسائل ما وراء الخطاب ما يتجه إلى تقوية إسهام المشارك في التفاعل، نحو: كما تقول، كما قال فلان لتوه، كما ذكرت، كما ذكر فلان من قبل ... إلخ. هذا نوع آخر من مصادقة المتكلم على إسهام المستمع. والمصادقة نوع تقوية للمنطوق. نلاحظ هنا أن مثل تلك الإفعامات *Interjections* تتردد في العربية تردداً أقوى من لغات أخرى من غير فصيلتها كالألمانية والإنجليزية والفرنسية. لعل ذلك يرجع إلى أن العربية تتطلق من ثقافة شفوية تركت آثارها في خصائص السبك وهيئاته.

(ثانياً) وسائل الإضعاف :

من سياقات الاتصال ما يحتاج إلى إضعاف المتكلم لقوة المنطوق الإنجازية. تعرف استراتيجيات الإضعاف من الوسائل ما عرفته استراتيجيات التقوية من حيث النوع، ولكنها مختلفة من حيث الكيفية.

⁽¹⁾ نسخة بكا، ص ٤٦

⁽²⁾ نسخة بكا، ص ٤٦

⁽³⁾ نسخة بكا، ص ٤٦

جـ ١/ وسائل التشكيل الصوتي :

من أهم هذه الوسائل: مسوب التثني، والتبر الضميف، وجهازة الصوت المنخفضة، والنفمة العالية في سياق مناسب :

لعب مسوب التثني دوراً كبيراً في حقل القوى الإنجازية في المدرسة هناك نعت من التثني الهابط - الصاعد الذي يبر عن السلوك المعرف عند المتكلم، وهو وسيلة فونولوجية مهمة لتخفيف قوة المنطوق الإنجازية. في مثل قولنا: " أنت أ هـ ٧ و ج " يخفف ذلك التثني حدة النقد، كما يخفف قوة المنطوق التوجيهي من الأمر إلى الالتماس في مثل: " املأ الفراغ ٧ أعلى " .

من ناحية أخرى، فإن تخفيف النبر على مقطع بالكلمة، وما يصحبه من انخفاض جهازة الصوت، مما يؤدي إلى إضعاف قوة المنطوق، نبر المقطع الأول من الفعل " اكتب " نبراً ضميفاً يجعل الأمر إذناً بالكتابه فحسب في سياق مناسب.

أما النفمة العالية، فتستخدم - في سياقات خاصة - علامة على تجرد المتكلم أو اتصاله من مسئولية التصديق بصحة منطوقه. نطق المنطوق: " أنت فيلسوف! " في نفمة عالية يضمن من التصديق بصحة محتواه يستبطل من هذا أن النفمة العالية ليست دائماً علامة على تعزيز قوة المنطوق. في سياقات مناسبة تبدو النفمة العالية وسيلة صوتية تشكيلية لإضعاف القوة أيضاً. ولننظر الآن مثلاً إلى كلام ابن أبي المزل -أحد بخلاء الجاحظ - لراضاً صوته فيه بالتثني والتشنيح هلتين من حيلة لإخجال ضيفاً: " هات يا مبشر لفلان شيئاً يطعم منه، هات له شيئاً " .

سياق رواية الكلام يؤدي بنا إلى القول بأن النفمة التي استخدمها ابن أبي المزل كانت نفمة اصطناعية متكلفة ناشئة Falsetto. التثني والتشنيح في كلام ابن أبي المزل وسائل صوتية تشكيلية يحدد المقام مغزاهما، وأنها من احتياله الماكر لإضعاف قوة الأمر انتظاراً لأن يرد الضيف- وقد اعتراه الخجل- " قد فعلت " : أي " قد أكلت " .

• مله حسين (العدد ١٥)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٪٦٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	x	x
بين مفردتين في جملتين	x	x
بين جملتين أو أكثر	٥	٪٣٣,٣

• المقاد (العدد ٢٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	٪٤٥,٤
بين مفردتين في ثنائية	٣	٪١٣,٦
بين مفردتين في جملتين	٣	٪١٣,٦
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٢٧,٣

• المازلي (العدد ٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١	٪٥٠
بين مفردتين في ثنائية	١	٪٥٠
بين مفردتين في جملتين	x	x
بين جملتين أو أكثر	x	x

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٪٦٦,١
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	١	٪٣٣,٣

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	٪١٠٠
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٪٦٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	١	٪٤,٨
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٢٨,٦

والتحليل بأنماط خاصة من الاستفهام، ونفي الصحة، والمداول
أما الأسئلة التذييلية، فهي الأكثر استعمالاً لهذا الغرض. في تداولية
أعمال الكلام، نظر إلى الأسئلة التذييلية من حيث هي مضمّنات لأعمال
بكلام غير المرحب بها Unwelcome Speech Acts. من ذلك قولك: "أنت كنت
معه، ألم تكن أنت؟" أو "أنا كنت على حق، ألم أكن هكذا؟"، وذلك
عندما يؤدي كل منهما في تفهيم استفهامي صاعد، ينظر إليه على أنه طريقة
الطيف للإخبار بأنك "كنت معه" وبأنني "كنت على حق"، على التوالي دون
تنهيل. جعلت أنا ويريبيكا وصفها للبنية الإنجازية للجمل الإعلانة
declarative sentences على النحو التالي:

- أرى أن س.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب.
- أريدك أن تقول بأنه صواب، أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.
- وإذا كانت الجملة الإعلانة متعلقة برأي بيمينه، لا بمسألة حقيقية، فإن
القوة الإنجازية سوف تضم أكثر من مكون واحد، نحو ذلك المثال الذي
نضربه ونصفه لنا أنا ويريبيكا:
- ماريا لطيفة، أليس كذلك؟
- أرى أن س.
- أزعم أنك ترى الرأي نفسه.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب (أي أنك ترى الرأي نفسه).
- أريدك أن تقول بأنه صواب أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.

النمط السابق من الاستفهام التذييلي هو ما يطلق عليه فريزر Fraser اسم
التذييل ذو الاستقطاب المتناظر Contrastive Polarity Tags. أما النمط الآخر
هو ما يطلق عليه اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتماثل Matching Polarity
Tag". مثل: "الحو حار، حار؟"، يتراوح هذا النمط الأخير بين وظيفتين

...بعضهما يهدى نوقضه عن الحرم بصحة القضية المحبر عنها بالمنطوق. وهذا
١ - أهداف لقوة الإنجازية

وأما ما لاحظناه من زعم، من تعبير منسوب التفتيم الهابط في التنذيرات،
من الاستثناء والصهر، مما يناسب حالة بمعناها؛ هي أداء التنذير في منسوب
مهم غامض هجومى، لا يستلزم معه إسهام المستمع في التفاعل. من ناحية
أخرى، فإن زعم هريرر بأن التنذيرات المساعدة تعبر دائماً عن رضا المتكلم،
مستلزم بمطابقات مثل: " هذا كتابي، أليس هو؟ " حيث ينطق التنذير هنا
بأهمية مساعدة، ولكنه - مع ذلك - يرمي إلى تلطيف قوة الاتهام. والالتزام
لا يبرر بداهة عن رضا المتكلم.

سألك نمط آخر للتنذير، هو تنذير الأمر بجملة استهامية. يكشف هذا
نمط عن مجال واسع من القوى الإنجازية المشفرة فيه، وهي قوى إنجازية لا
يصح أن نعبر عنها بواسطة أفعال أدائية، مثل: " اجلس، ألا تريد؟ "،
والتنذير هنا يعكس الرغبة في أن يكون المتكلم مهذباً مع زائر مهمز.
" تنذير " ألا تريد؟ " يستلزم رؤية الفعل الكلامي شيئاً يتوقع معه رغبة
مخاطب في فعله. وهو يختلف عن مثل قولنا: " اجلس، هل ستجلس؟ " الذي
يستلزم النظر إلى الفعل الكلامي على أنه شئ يريد المتكلم. استخدام " ألا
تريد؟ " في موقف ينظر فيه إلى الفعل الكلامي على أنه من مصلحة المخاطب
لا من مصلحة المتكلم، وتوظف هذا التنذير في تلطيف قوة الأمر السابق
عليه، وحمل الخطاب مهذباً، مما يجعل الاستهزاء التنذيري الملحق بالأمر
وسيلة تركيبية فعالة من وسائل تلطيف القوة الإنجازية في سياقات اجتماعية
خاصة. وإذا كان للتقوية درجاتها، فللإضعاف تبدو درجات الإضعاف مع
تنذير: " ألا تريد؟ " في إنزال الأمر إلى المرض. وهذا يتواءم مع تقديم " ألا
تريد؟ " الفعل الكلامي على أنه شيء يرى المتكلم أن مخاطبه يريد أو
يرغب في فعله. كذلك لا ينبغي أن ننظر إلى التنذير " هل ستجلس؟ " على أنه
جبر عن مشاعر سلبية تجاه المستمع. نلاحظ استعمال هذا التنذير غالباً لإنزال
قوة الأمر إلى قوة الالتئام. ويتواءم هذا مع تقديم " هل ستجلس؟ " الفعل
" كلامي " على أنه مرغوب فيه من جانب المتكلم.

صكوك صادوك Sadock ممن يملأوا إلى الأمر الملحق بسؤال على أنه وسيلة من وسائل تلطيف قوة الأمر المباشر أو الالتماس الخشن. اجتهد صادوك في أن يبرز إلى حقل البحث الخلفية الحضارية لاستعمال الأمر في اللغة، يقول: " يبدو لي أن المسألة أعظم من ككون الأوامر الملحقة بأسئلة تاديباً، وأعظم من ككون الأوامر المجردة منها غير تاديب. أنا لا أرى فظاظاً للأوامر جزءاً من معناها ".

أحسب - على رغم ذلك - أن هناك قوائين محددة حضارياً لاستعمال اللغة، هذه القوائين التي تبين لنا أن من الفظاظ أو قلة الأدب أن نلتص شيئاً التماساً مباشراً ممن هو نذل لنا، أو ممن هو أرفع منا اجتماعياً⁽¹⁾. وأما التلطف بأنماط خاصة من الاستفهام، فمنه الجملة الاستفهامية من النمط: "لماذا لا تفعل سر؟" في سياقات مناسبة، يوضح لنا أن جملة من هذا النمط، يقصد بها الدعوة إلى فعل شئ، أو عرض فعله، أو اقتراح فعله، أو التماس فعله، مثل: "لماذا لا تزورنا الليلة وتتناول معنا المشاء؟" "لعدونا، أو "لماذا لا تجرب شيئاً من هذا الكعكة؟" "اعرضنا أو "لماذا لا تتصل به، إنه يستطيع مساعدتك" "اقتراح" أو "لماذا لا تكف عن هذا اللغو" "التماس أو انتقاد!

غني عن البيان أن التعبير بالأسلوب الاستفهامي المضمّن معنى المرض أو الاقتراح ونحوهما، يعني أن المتكلم لا يحاول أن يفرض رغبته على المستمع، بل يحاول أن يوجه اهتمامه إلى شئ يستحسن فعله فحسب. وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق الإنجازية.

وصكوك وبرزبهك ممن عنوا ببحث هذا النمط من الاستفهام ووصفه دلاليًا. جرى وصفها له على النحو التالي :

أقول أريدك أن تقول - إن استطلعت - لماذا لا يفعل سر؟

- أرفع أنك لن تستطيع (قوله).

- أرى أنه شئ طيب إذا فعل.

- أقول هذا. لأنني أريدك أن تفكر فيه وأن تقول إذا كنت تريد أن

(1) Sadock, Harold, M. Toward a Linguistic Theory of Speech Acts, op. cit. P 114

...، و...، و...، و...، وذلك أن الاحتراس والتحفظ ونحوهما فيما يتفاوت فيه
 نيام من حسن واحد على حسب تقديرهم للمواقف الاتصالية واختلافهم في
 إدراكهم للشخصية والخواص التعبيرية. في حقل الخطاب الأدبي يصدر المقادير
 مثل: "مر مرة طاهرة إلى الأسلوب الفوقي الذي تتضال معه وسائل الاحتراس
 الموهبة. المقادير احتراساته بالطبع، ولكنه في تقويته لمنطوقاته يبالغ مبالغة
 مبهمة من سائر مفاصله، حتى صارت له أساليبه المعروفة. في سيرته الذاتية
 (أنا) تنتشر عبارات وأساليب مثل: "والحق الذي لا مرية فيه عندي" و"أعرف
 من المعرفة"، و"أعلم علم اليقين" و"أقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف
 و"أقرر... نعم أقرر... إلخ. والمقادير احتراساته يملو بها كثيراً إلى ما يداني
 التأكيد من صدق القضية التي يعبّر عنها، نحو: "لا أدري على التحقيق" و"
 ومع هذا يجوز لي أن أقول" و"أوشكت مع هذا أن أومن بأن... و"والظاهر،
 لا بل المحقق أنني... إلخ. في عمل منظر هو "الأيام" لطله حسين نراه قد
 صنع لنفسه أسلوباً خاصاً في الاحتراس مثل "قل... أو قل... و"إن شئت... أو
 تحبيره المخاطب بين شئين كثيراً بالحرف "أو" مثل: "وذهل عن نفسه أو
 دهلت نفسه عنه" و"فلما تقدمت به السن اعرض عن التجارة أو اعرضت عنه
 التجارة" و"لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً... إلخ. يمكن أن نتخذ من
 طهية الاحتراسات في نص السيرة الذاتية بين المقادير وطه حسين مؤشراً على
 موقفة كل منهما من نصه السيري وموقفه تجاه القضايا التي يعبّر عنها فيه.
 إذا كان الخطاب الأدبي - كما يقول فرديناند هالين - كطائر
 المنقار، يمارس قوته في عدد غير محدود من السياقات^{١١}، فإن ذلك ادعى إلى
 زيادة توسيع مجالات استثمار مفاهيم تداولية أفعال الكلام وأسسها اللغوية
 لبيان كيف يتكون الخطاب الأدبي فعلاً لغوياً، وكيف يتحقق إدراك المعاني
 الحقيقية للمنطوقات اللغوية في الخطاب الأدبي من خلال سياقاته الاتصالية
 الحقيقية.



^{١١} طه، فرديناند، "المنقار: لغة وقوة محمد عبد الحامى حلفه نواهد، الأولى لأوسى تظلال بعدة ٢٠٠٢، ص ١١٩٩

الفصل الخامس الصورة والثقافة والاتصال

١- توطئة:

الزيادة السريعة في رفعة الصورة على خارطة الثقافة الإنسانية تقف وراء وصف عصرنا بأنه "عصر الصورة"، كما أن الطبيعة الرمزية للصورة بأجناسها بكافة، هي التي دفعت إلى القول بأن صورة واحدة تساوي ألف كلمة. الصورة - كما يقول ريجيس دويري Régis Debray في كتابه القيم (حياة الصورة وموتها Vie et Mort de L'image) رمزية، غير أنها لا تملك الخصائص الدلالية للغة؛ إنها طفولة العلامة. ولا يخفى أن هذه الأصالة تمنحها قدرة على الإيصال لا مثيل لها؛ فالصورة ذات فضل لأنها أداة ربط، لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنتفي الحيوية الرمزية^(١).

يمكن أن نضيف إلى الحيوية الرمزية التي أشار إليها ريجيس دويري الطبيعة الاختزالية للصورة بعام، بما في ذلك الصورة الشعرية. ما تقوله الصورة الشعرية غالباً في كلمات قليلة يحتاج لمادته وتأويله إلى كثير من الكلمات. وما تقوله رواية في صفحات عديدة يمكن للصورة السينمائية أن تقولها في صورة واحدة؛ وذلك اعتماداً على طبيعتها الخاصة: فهي صورة مرئية يحكمها قانون "أن ترى يعني أن تختصر".

بينما ربط الصورة بالوعي والثقافة من مجالات الدراسة المعروفة في نظرية الصورة غير الأدبية، إذا به كالأرض المجهولة التي لم تستكشف بعد في نظرية الصورة الأدبية. ما أكثر العلوم وما أشد تنوع المناهج التي درست بها الصورة الأدبية من حيث هي بنية لغوية ذات غايات جمالية، ولكن ما أندر الإسهامات التي وضعت الصورة الأدبية في منظور الثقافة والوعي والاتصال.

ليست الصورة أثراً خلفه الإحساس فحسب، وليست نتاجاً جمالياً خالصاً لخيال مطلق أو واقع تصورهما وصفت الصورة بواقعيتهما؛ فهناك دائماً شئ ما تبنيه الصورة بطريقتها. إذا كان اختيار الكلمات يتضمن اختيار الموقف، اختيار نوع من التركيب الذهني الذي يشاهد الشئ من خلاله، أو يستوعب

(١) دويري، ريجيس. حياة الصورة وموتها. ترجمة دكتور محمد الزاهي. مركزها للدراسات، ٢٠٠١م ص ٢٤.

الإطالة بالإضافة ، والإطالة بالتنوين .

(لولا) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود:

- الابن يقتل لياه ، والأم تقتل لبنها ^(١).

٢+

١

والإطالة بالإضافة نمط بارز جدًا عند مصطفى محمود بوجه خاص .

(تقيا) ومن الإطالة بالتنوين: قول محمد زكي عبد القادر:

- من الأكم ينبع كل شيء عظيم ، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء عظيم ^(٢).

٢+

١

يعبر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنوين هكذا:

من ولكن ليس كل من ، أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق

ومن الإطالة بالتنوين أيضًا قول إخوان الصفا:

- لم يصف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا ،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمة الدين والدنيا جميعا ^(٣).

(١) مقال : نشوة الأمل ، من كتبه : كلمة لمر ص ١٥ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٢٢/٤ .

(٣) المرجع السابق ٢٢/٤ .

ويجوز عن هذه الصورة هكذا: ليس من ولكن من .

(جـ) ولما التمسيد بالتعظيم ، فخرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة مرورا عدة ، من أهمها ما يلي:

(لولا) لتعظيم بالإشارة إلى الزمان ، ومنه قول إخوان الصفا:

فلما تنبى بمكة نحوا من اثنتي عشرة سنة ،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ^(١).

٢٥

وتسمى هذه الصورة بالتعظيم لزماني المتقدم ، أي: أقبل ب .

(ثانيا) لتعظيم بالطريقة ، ومنه قول إخوان الصفا أيضا:

- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا ،

١

وهكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) ^(٢).

٢٦

ما سبق يمثل التوزي في علاقة التمسيد بالتعظيم في هيئة الطريقة من

نوع الثاني وهو المقارنة . «هكذا» فيما سبق تعني: «بهذه الطريقة» ، ويقصد

(١) المرجع نفسه ٣٣/٤ .

(٢) المرجع نفسه ٢٣/٤ .

مقدمتها السؤال التالي: "هل في ديوان العرب اشياء اخرى غير الجماليات التي وقفنا عليها - وحق لنا - لمدة قرون ٩-١١".

الإجابة عن هذا السؤال المحوري في دعوة الغدامي إلى تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوب النسقية، إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه الثقافية^(١). ولأن الهدف من الدراسة التأسيس لنظرية نقدية ثقافية، فقد كان النص الشعري في بنيته اللغوية وإشكالياته الأيديولوجية الاهتمام الرئيسي.

ولعل في مناقشة الغدامي مفهوم "المجاز" من حيث هو قيمة ثقافية وليس قيمة بلاغية - جمالية كما هو ظاهر الأمر، ما يفيد في التمهيد النظري لدراسات الصورة بعامة من المنظور الثقافى.

أما دراسة الدكتور مصطفى ناصف، فهي تشترك مع دراسة الدكتور الغدامي في النقد الثقافى للشعر، ولكنها عبارة عن قراءات شتى لنصوص مختلفة من الشعر العربي المعاصر، كأنما قدر لدعوى النقد الثقافى أن تتكامل تطبيقاً وتطبيقاً. وقد وضع الدكتور ناصف في مقدمة هذه الدراسة مقولات نظرية أساسية: كالقول بأن إسهام الشعر في الثقافة يعتمد على طبيعته، وأن هذا الإسهام هو غالباً من قبل الحفاظ على حيوية الحساسية وإثارة الخيال، وأن الغاية من قراءة الشعر إفراح السهل لتصور أفضل لثقافتنا^(٢).

هذه المقولات الأساسية هي الخيوط التي ربطت كل القراءات في هذه الدراسة بخيط واحد، هو استجلاء الجدل القوى بين الشعر ومجموع الثقافة. غير أن هذه الدراسة لم تول اهتماماً لما تتطوي عليه الصور الكلية في النصوص المقروءة من دلالات ثقافية، ولكن انشغالاً بالكتابات الثقافية والرموز لا يستكثر منه كثير من النقاء والإعجاب. ينبغي لنا أن نجعل لثقافة الصورة وجهاً آخر، هو ثقافة الصورة الشعرية

(١) الغدامي، عبد الله: النقد الثقافى، دراسة في الأساق الثقافية العربية، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ١٤ (٢٠٠٠م) ص ٧.

(٢) المرجع السابق ص ٨.

(٣) ناصف مصطفى: ثقافة والشعر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م) ص ٤.

وعلى عكس جبوري وباربرا ، فهمت شيرلي لوستلر Shirley Ostler التوازن على حقيقته . من الناحية النحوية ، تبدو العربية - وفقاً لـ شيرلي - مجاهدة من أجل تحقيق التوازن Balance ، على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة . وهي ترى هذا التوافق (أو التسمتية) على مستوى نظم الجملة ، وفي تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات ^(١) .

(١) راجع في تفصيل أكثر :

Ostler, Shirley, L. English in Parallels of ... pp. 173-175.

الفصل الرابع
تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

نظر إليوت - اعتبار المستويات العليا على حط من الثقافة أصعب من حط المستويات الدنيا، ولكن ممثلة لثقافة أضخم وعمياً وأصغر تخصصاً. كان سالزمان قد ميز بين الثقافة غير اللغوية واللغة المناطرة تقسم الثقافة غير اللغوية عنده إلى ما يلي :

٧ - الثقافة العقلية (Mental Culture): وذلك كالنظر إلى العالم "world view" وتوجهات القيم "value orientation".

٨ - الثقافة السلوكية (Behavioral Culture): وذلك مثل مسح الأقدام قبل الدخول إلى المنزل أو القيام بعملية نقل قلب.

٩ - الثقافة المادية (Material Culture): وذلك وفقاً لبعض علماء الأنثروبولوجيا. وهي عبارة عن النواتج المادية للسلوك، وذلك أن مواد الثقافة المادية هي عادة حصيلة تطبيق سلوك بعينه (كالمهارات اليدوية)، أما الثقافة العقلية، فهي المعرفة^(١).

تدعونا صفة الجمع أو الشمولية في مفهوم الثقافة إلى القول بأن الصورة ظاهرة ثقافية بالضرورة. ويدهي أن العلاقة بينها وبين الثقافة هي علاقة الخاص بالعام، من حيث إن الصورة إحدى تجليات الثقافة العقلية، الصورة إنتاج لنظام من الماني يخضع لثقافة المجتمع الذي تتوجه إليه، وإن كانت ذات دور طلبي في استشراف المستقبل، فضلاً عن خصوصياتها في إنتاج ذلك النظام. ويدهي أيضاً أن صفة الثقافة التي تقدمها الصورة مرتبطة بطبيعة الوسيط التعبيري الذي تظهر فيه، وبالفئة التي تتفاهها: فالصورة الأدبية فكرة مبر عنها بالكلمات. والصورة الأدبية طريقة فنية لوضع تصور عن العالم لا تعكس به إلا بالتفاعل والتأويل.

ولا ينبغي المبالغة في أهمية العنصر الفكروي في الشعر، كما يقول ريتشاردز: لأن ذلك سوف يؤدي إلى إساءة فهم الشعر والتقليل من أهميته^(٢). إن الشاعر لا يكتب - كما يقول ريتشاردز - باعتباره عالماً، وإنما هو يستخدم هذه الكلمات لأن النزعات التي يثيرها الوضع الذي يوجد فيه تتألف

(١) المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) Salzman, Z. Language, Culture and Society, Op. Cit. P. 156

(٣) ريتشاردز، أ. علم الشعر ترجمة دكتور محمد مصطفى بقوي من الكتاب (١٩٩١) ص ١٩.

النص عامة حقيقة نحيط به في مقدس الحقيقة لنصالح في حضرات
عسمة ونعمه.

نرى أن النص في هذا المفهوم يرتبط بقدمه بصورة يسمي
له أن ينسج لدراسة مضمون الصورة والخطبة التي يقدم بها هذا المضمون معاً
نرى لذلك المفهوم وجهين اثنين.

إذا كانت الصورة نتاجاً فنياً، فإن الوجه الأول لذلك النتاج هو شكل
أنوار الثقافة التي تدخل في عملية الإنتاج ذاتها: نعني بذلك تقنيات إنتاج
الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه اسم "نص الصورة" لأنه مرتبط
بالبنية أو الشكل.

أما الوجه الآخر، فهو ما يمكن أن يستنبط من منظورات إلى العالم
وتوجهات القيم من مضمون الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه
خطاب الصورة: لأنه مرتبط بالتوجه أو المضمون. والملاقة بين "نص الصورة"
و"خطاب الصورة" هي دائماً علاقة تبادلية، علاقة تآثر وتأثير. يعني نص
الصورة بالتقنيات التي تدفع خطابها على النحو الذي نريده إلى المتلقي. وبين
نص الصورة بتقنية داخلية حيناً وتقنية خارجية حيناً آخر. وقد يجمع بين
النوعين حيناً ثالثاً.

يقصد بالتقنية الداخلية أن تكون من بين الوسائل التي يتيحها النمط
التصويري ذاته: كالصورة الاستعارية في الصورة الشعرية. ويقصد بالتقنية
الخارجية أو المستعمارة دخول وسيلة أو أكثر من نمط تصويري آخر، عن وعي
أو غير وعي: كإدخال بعض الوسائل من النمط التصويري التشكيلي أو
السينمائي إلى الصورة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه - قياساً على "تراسل
الحواس" - اسم "تراسل الفنون".

إذا كانت الصورة العامة تنتمي إلى نمط بعينه من أنماط الثقافة في
تصنيف سالف زمان السابق أو غيره من العلماء، وهو الثقافة العقلية والتي
مركزها المعرفة ومدارها النظرة إلى العالم وتوجهات القيم، فإن فضاء
الصورة الثقافية لا تحدد حدود. لا سيما الصورة السينمائية التي تعرض لنا
بشي أنماط الثقافة العقلية والسلوكية واتدابة (السينمائية الوثائقية).

التكبير الشفاهي بعامية، ولأن مراراً يهين سياق النص لمثل تلك الصور، فإنها تأتلف معه اثتلاف الصدي باللحمة.

في هذا الإطار الشفاهي توضع أيضاً وبرة وافرة من الاستخدامات المحازية الشعبية في شعر نزار: كقوله:

فأنا المسبب بالكبريت
وأحرق نفسي مثل جميع الأطفال

(استلا الحب يستهل / أنا رجل واحد من ٢٠٢)

وقوله :

كـيـف يـا سـيـدي يـفـتـي المـفـتـي
مـل إذا مـات شـاعر عـرـبي
يـجـد الـهـوم مـن يـحـلـي عـلـه
لا يـيـوس الـهـديـن شـعـري، وأحـرى بالـسـلاطـين أن يـيـوسوا يـديـه

(كيفية فصلك مضروب عليها ص ٨)

ويذكر أونج أن المجتمعات الشفاهية تعيش إلى حد كبير جداً في الحاضر، على نحو يحفظها في توازن من خلال التخلص من الذكريات التي لم يعد لها صلة بالحاضر^(١١)، وأن التقاليد الشفاهية تمكس قيم المجتمع الثقافية الحاضرة أكثر مما تمكس حب الاستطلاع المجرد حول الماضي^(١٢). وهنا نلاحظ أن اشتغال صور نزار على قيم المجتمع الثقافية الحاضرة يدل عليها ندرة الصور الخيالية والتجريدية أمام الصور البصرية المشغولة بحاضر الشاعر والناس في الحب والسياسة (انظر مثلاً: قصيدة "لا غالب إلا الحب" من ديوان يحمل اسم القصيدة ذاته، وانظر أيضاً قصيدة "الوصية" من ديوان "لا").

ومما يلاحظ أيضاً أن صور نزار صور موقفية أكثر منها تجريدية. وهي بذلك تتفق مع سمة جوهرية في الثقافات الشفاهية، حيث تمثل تلك الثقافات

^{١١} المرجع ص ١١١.

^{١٢} المرجع ص ١١١.

فلم يذهب أبداً
بل دخل الفرقة ككي يرتاح
وسيصحو حين تظل الشمس
ككما يصحو عطر التفاح
الخبز مأكله معنا
وسيشرب قهوته معنا
ونقول له
ويقول لنا
القائد يمشي بالإرهاق
فخلوه يفتو ساعات

يضرب نزار في مثل هذا المقطع عن عبد الناصر عرض الحائط بتقائيد
فصيدة الرثاء الثقافية وأعرافها الفنية جميعاً. تمرض علينا مثل هذه الصورة
الكلية موقفاً اجتماعياً وأفعالاً اتصالية يومية عادية. هذه المغايرة أو
لأنحراف عن النمط الرثائي المألوف من خلال الصور الموقفية تستدعي
بالضرورة مقولة ه. ج. ودسون H.G. Widdowson السديدة: "على رغم أن
لأدب لا يحتاج إلى أن يكون منحرفاً deviant من حيث هو نص، فإنه ينبغي
له بطبيعته أن يكون منحرفاً من حيث هو خطاب".^{١١} على مستوى البنية

المسبة يحنو المقطع السابق من أبي مطهر من مطاهر الأحرار. لكنه - من حيث هو خطاب في موقفه فيه - محروم دالة الصور. الخطيب الذي يلتقط القارئ خبوطها في صوته ليسجها الاحتماعي. عن القوائى الشائنة والانبائعات المخرومة

ولعل الإطناب التصويري جزء من الإطناب الذي تتميز به الثقافات الشفاهية. نلاحظ في كثير من شعر نزار إطناباً تصويرياً. مصدره توالي الصور المتغايرة أحياناً كثيرة، حتى تبلغ مبلغ القوضى. ولكنها هوضى الارتهال الجميلة: كقوله:

أريدك أن تكوني حبيبيتي

حتى تتنصر القاصيدة

على المسمى الحكاتم للصوت

وينتصر القلام

على الفأزات المسيلة للدموع

وتتنصر الورد

على هراوة رجل البوليس

وتتنصر المكتبات

على مصانع الأسلحة

(أحبك حتى ترتفع السماء/ لا غالب إلا الحب ص ٨٨)

أو قوله .

من علمني

كيف أشعر كالتفاحة قلبي

حتى نأكل منه نساء الأرض جميعاً

كنت لسه عينا

من علمني
كيف أرى وطناً
به شكل القلب
وشكل الشريان التاجي
وشكل المصفور الدوري
وشكل التفاح الشامي
لكنني لم أبعثاً عبداً

(من علمني جباراً تزوجتك أيتها الحرة ص ٦٦)

مكتنفاً يمتد في مثل هذه المقاطع والقصائد ما نسميه بالإطناب التصويري الذي ينتج عن عقوبة التصوير. فتتوالي الصور وتتداخل حتى يصعب شيئاً من الفوضي. ولكننا - كما قلت - الفوضى الجميلة التي شبه الفوضى التي يتحدث عنها عبورغي غاتشف إنها تعبر عن النبض حي الحياة الحرة. هذا النفس الذي يحطم شكل تخطيط مسبق، ويمصف جهود مخططات المنطق العقلي، بل يجهود مخططات المنطق الفني القبلي. فالأدب دائماً مجاهدة حقبة في الفن الشعري. شأنه شأن الفنون بكافة. في التعبير عن القيم الثقافية بوصفها مبادئ للعلاقات بين الأفراد والمجتمعات بين فونفجانج شولتز Wolfgang Schulz إسهامات Cohn - أحد ممثلي حداثة الجديدة Neukantianismus - في النظرية الثقافية. فيضع يده على لاحظ كون القيمة. وهي: أن توجهات القيم تحدد من خلال بنية حدسية Dialektische Struktur تعبر عنها حالات التوتر بين استقلالية الأفراد من ناحية مجتمعهم في المجتمع من ناحية أخرى. لا تكاد العلاقات بين الشاعر

من علمني جباراً تزوجتك أيتها الحرة ص ٦٦

100 Schulz, Wolfgang: K. Wert-Symbol-Wissen: Anmerkungen zum Paradigmenwechsel in der Kulturtheorie der Weimarer Zeit. In: Helmut Bräuer, Fritz Wefelmeyer (Hrsg.): Kultur Bestimmungen mehr Jahrhunderte. Suhrkamp, Frankfurt (1990) SS. 13a-155, S. 13a

والحياة السياسية تتقطع عن ثورتها في حاصر أليم وطموحات مؤجلة. بلجا
مرار في بقعة السياسي للاستبداد الممتد بجدوره إلى التصوير الساخر في إطار
صور شكلية تستمد خيالها وعلاماتها اللغوية وتبني تأثيراتها على رصيد ثقافي
مشترك. في سعي إلى تجديد الوعي بذلك الحاضر وبذلك الطموحات. نلاحظ
هنا أن للصورة الشكلية الساخرة نواة لفظية تستقطب في تأثيرها الدلالة
الاجتماعية الحافة والمكتسبة من تجارب وخبرات يومية بسيطة: كالطبله
والدبلك ونحوهما.
يقول نزار:

الحاكم يـ ضرب بالطبله
وجميع وزارات الإعلام تدق على ذات الطبله
وجميع وكالات الأنباء تضخم إيقاع الطبله
والصحف الكبرى والصغرى
تعمل أبشراً راقصه
في ملهى تملكه الدولة

(عزف منفرد على الطبله / قصائد منضوب عليها من ١٣٦)

ويقول نزار في المقطع الحادي عشر من قصيدة "الدبلك":
حين يمر الدبلك بمسوق القرية
مزموماً، منفوش الشريش
وعلى كتفه خشن نياشين التحرير
يصرخ كل دجاج القرية في إعجاب:
"يا سيدنا الدبلك".
"يا مولانا الدبلك".

— حسد الـ "حس" ويا محسن الميـ
 "كنت حبيب ملايين نسوان"
 "هل تحتاج إلى جارسة؟"
 "هل تحتاج إلى خادمة؟"
 "هل تحتاج إلى تدليك؟"

(الدبك / أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء ص ٢٥٩)

نفيه تضاد سريتها حتى وإن تصادمت مع الأعراف الاجتماعية أو ما يبدو وكأنه من تلك الأعراف. للقبيلة والدبك في العرف الاجتماعي دلالات اجتماعية رمزية على التحويل الأخوف والنزوع "الكاذب".
 يريد الشاعر بهاتين الصورتين الشكليتين الساخرتين ليستنهض الوعي الاجتماعي ضد موقف ما تجاه ذلك الواقع الذي استشري فيه الفساد والاستبداد وطال

ومهما يكن من أمر، فإن الإشارة التي يتبع تناول الصورة من منظور ثقافي هو الشفاهية الجديدة، بل إن إشار الشفاهية الجديدة لتتسع لتفسير معظم ما يتسم به شعر نزار من سمات أسلوبية كان الدكتور صلاح فضل قد لاحظ أن المقطع عند نزار يحل محل البيت، وأنه أصبح جملة واحدة مطوَّنة يعيد إنتاج نموذج التكرار في الشعر الإحيائي. حيثما يعيد الشاعر في الشطر الثاني ما ذكره الأول تقريباً مع اختلاف في الترتيب^١. الواقع الذي نراه هو أن نزار لا يعيد نموذج التكرار في الشعر الإحيائي ولا في غيره من مدارس شعر الأخرى. إنما جاء التكرار على النحو الذي ذكره وفي أنحاء أخرى كثيرة من تلك الشفاهية الثانوية التي صبغت شعره بصيغتها في الصور والأساليب وبني الكلام جميعاً. ونحن نعرف في نظرية اللغة المنطوقة أو الشفاهية مرجعية التكرار وتعدد صوره.

(ب) الصورة وإشكالية التراسل

التراسل الذي نقصده هنا هو ما أسميناه بتراسل الفنون. أبدت الشعرية العربية المعاصرة وعياً أقوى بالتفاعل الخلاق بين الفنون في الفأبات والوسائل. فضلاً عن تمايز اتجاهات الشعرية العربية المعاصرة في بنية الصورة الدلالية تعبيراً عاماً بين تجريدية في الاتجاه الرمزي الصوري والاتجاه الرمزي الأسطوري. وحسية موقفية في الاتجاه الواقعي الاجتماعي، فإنه يمكن القول بأن أهم ملامح التطور المام على مستوى التقنية منذ جيل الرواد حتى الآن هو تراسل الصورة الشعرية مع التصوير السينمائي والتشكيلي في التقنيات الأساسية. يمكن تفسير هذا التراسل بأنه موقف ثقافي من مسألة العلاقة بين الفنون. وهو موقف ثقافي عملي من الأساس، وإن أضح عنه بعض الشعراء المعاصرين في نظريتهم عن الإبداع الشعري الحقيقي، بل أفصحوا عنه في بعض عناوين القصائد والدواوين (أذكر مثلاً ديوان "الرسم بالكلمات" لنزار نفسه).

اختلف الباحثون في تعبير أقرب الفنون إلى الأدب يرى كل من ليسنغ وديدرو أن الرسم هو أقرب الفنون إلى الأدب. من حيث طريقة المحاكاة وتصوير الأشياء أما غيورغي غاتشيف، فيرى أن الموسيقى هي أقرب الفنون الآن من الأدب. ويرى غاتشيف أنهما يتباينان في طريقة التعبير عن الإيقاع العام للوجود والعالم الداخلي للإنسان". من ناحية أخرى، يشير غاتشيف إلى حاجة الشعر إلى الفنون التي اقتصت بالصور المادية التجسيمية: كالعمارة والنحت: "ما دامت الصور المادية - التجسيمية في العمارة والنحت هي، قبل كل شيء، الصورة المصطنعة بالنسبة للوعي الفني في المرحلة القديمة، فإن الشعر، بنية تأكيد ذاته، يحس بحاجة إلى الاستناد إلى أحوته الكبار الذين هم أرسخ قديماً منه". وكان سيمونيد يعتبر التشكيل "شعراً صامتاً" والشعر "تشكلاً صائناً".

من ناحية أخرى، عرفت محاولات شعبة الصورة السينمائية وتسميتها

في التصويرات التي تروق السامعين وتروعههم، والتغيلات التي تهز المدحجين وتحركهم وتغلغل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر؛ فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتونق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويفشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه. فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها، وكذلك حكم الشعر فهم يصنعه من الصور، ويشكّله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يترهم بها الجامد الصامت في صور الحي الناطق، والموات الأخرس في قضية الفصح المرب والمبين المميز^(١).

المشابهة بين الشعر والفنون الأخرى كالرسم والنحت ونحوهما في الغرض والفعل في النفس - على رغم الاختلاف في المادة - فكرة راسخة إذن في الثقافة العربية منذ قرون طويلة، وإن كنا - للأسف البالغ - لا نكاد نرى تطوراً لها في الفكر النقدي العربي إلا تلك الإشارات القليلة المتأخرة جداً عند بعض النقاد الحداثيين المعاصرين.

لعل رسوخ فكرة المشابهة بين الفن الشعري وفنون أخرى في الثقافة العربية يقود إلى الإشارة إلى أن ما نراه في كثير من القصائد السردية المعاصرة من تقطيع وكتابة شعرية سينارية ليس بالضرورة وليد تأثر الشاعر العربي المعاصر بتقنيات تصويرية سينمائية. إنها بالأحرى منبهات لا شعورية للمبالغة في المعنى عن طريق المحاكاة لفن آخر. قصائد سردية في عصور الشعر العربي القديمة بنيت على مثل هذه الكتابة الشعرية السينارية ولم تكن تقنيات التصوير السينمائي قد عرفت بالطبع بعد. انظر مثلاً إلى بعض قصائد عشرة في غزلياته الفروسية. وانظر إلى بعض قصائد البحري: كقصيدته المشهورة في وصف الذئب والصراع بين الذئب والشاعر. إنها سرديات سينارية من طراز عال لعل وجوهاً عدة للمشابهة بين نصوص شعرية قديمة وما نعرفه الآن في التقطيع التقني السينمائي أو مراعاة الأبعاد

١٠٠

في هذه الأبيات لوحة تشكيلية بارعة لساق عارية اتخذت صاحبها
 رسماً خاصاً، هو وضع الاضطجاع الذي يجعل الصورة كلها في وضع التملّي
 في الصورة اللفّة بعلاماتها من هينات وتفاصيل، تفسر المخيلة والحساسية
 تخيلية أكثر مما تفسر الإثارة الفريزية. بيد أن مثل هذا التجويد الفني الذي
 يخفي معالم الشهوانية، قد يزول زواله في صور أخرى تتضح بالتصوير
 لحسب الشهواني. من ثم، فكان الخلاف بين نقاد نزار في شأن التصوير بين

الذين يقدرون تصويره لمرأة التي تحضن فيها لحياء، تصوير
 روحه التشكيلية أو الصورة التيمائية مع يقين تحت في نفس الصورة
 يتجاوز القدرة بين اللون هي أفضل وسيلة تمكّن من الوصول إلى فهم
 واضح لكل من مصادره في قصيدة إلى مصطفة أم ديوان
 شملية بعد من ١١١ - ١١١١ يقول نزار

.. ويقال عن ساقيك: إنهما

في العمري .. مزرعتان للفيل

ويقال أشربة الحرير .. هما

ويقال: أنبويان من طلل

ويقال: شلالان من ذهب

في جورب كالصبح مبتل

عرب الرداء وراء ركبتك

فتعمت في ماء .. وفي ظلل

ترسم هذه الأبيات لوحة تشكيلية بارعة لساق عارية اتخذت صاحبها
 رسماً خاصاً، هو وضع الاضطجاع الذي يجعل الصورة كلها في وضع التملّي
 في الصورة اللفّة بعلاماتها من هينات وتفاصيل، تفسر المخيلة والحساسية
 تخيلية أكثر مما تفسر الإثارة الفريزية. بيد أن مثل هذا التجويد الفني الذي
 يخفي معالم الشهوانية، قد يزول زواله في صور أخرى تتضح بالتصوير
 لحسب الشهواني. من ثم، فكان الخلاف بين نقاد نزار في شأن التصوير بين

لحسية والجمالية متوقفاً. وسم دكتور صلاح فضل شعرية نزار بـ "شعرية الحرس" "وانبى حسين العورى في رفضه تلك الدعوى لبهان أن أداة الحرس في بحر نزار - انطلاقاً من ظاهرة - ترأسل الحواس - أو ما يسميه العورى "الحس المتراحم" - ليست أداة بسيطة (أذن أو عين)، وإنما هي أداة معقدة؛ فما تكاد حاسة السمع - مثلاً - تفرع حتى تتحول عن طريق التخيل من لمس إلى بصر، أو من ذوق إلى لمس إلى شم"

والحق أن العورى لم يفعل شيئاً، فما زالت التراسلات تراسلات بين الحواس. بيد أن نصوصاً أخرى غير قليلة من شعر نزار - على نحو ما رأينا في النموذج السابق - قد استحال فيها الجسد الأنثوي إلى لوحة فنية مقصودة لداتها، ولكنها - من ناحية أخرى - تمكس مخيلة الشاعر الخصبة وحساسيته الجمالية البرينة من الاشتاء.

في حالات أخرى تبني القصيدة كاملة على صورة شكلية من نمط "الصورة - الحركة التي يعرفها الفن السينمائي؛ كالقصيدة - الصورة التالية التي يصور فيها رافعة شرقية، وعنوانها "ذبة" من ديوانه (طفولة نهد ص ١٣٢ - ١٣٣)

.. وداسبت على أذرع الضوء ..

ترقص .. مهداء عنبة

كحافلة العطر .. تطوى المدى

محبوبة إلحاح صخب

تلب خلال المسابيح

نهرأ .. أضواء مصبه

على شمرها الفجرى

وصف الصورة: القصيدة تتكون من ستة أبيات، كل بيت من خمسة أسطر، والبيت الأول من ستة أسطر.

البيت الأول: "وداسبت على أذرع الضوء .. ترقص .. مهداء عنبة" - البيت الثاني: "كحافلة العطر .. تطوى المدى" - البيت الثالث: "محبوبة إلحاح صخب" - البيت الرابع: "تلب خلال المسابيح" - البيت الخامس: "نهرأ .. أضواء مصبه" - البيت السادس: "على شمرها الفجرى"

يـمـنـنـ مـمـاء .. وـرـهـبـة
 وـجـة نـفـرـهـا العـكـرـزـي المـلـن
 تـبـرـعـم رـغـبـة
 عـلـى نـقـلـة الـمـمـاق ..
 يـهـمـر لـجـ .. وـتـخـضـل تـرـبـة
 وـجـة مـقـلـع لـلـرـخـام ..
 هـنـالـك ، تـبـض مـضـبـة
 إـذا انـفـعـل الـلـهـن .. ثـارـت
 شـغـاها .. وـمـدـرا .. وـرـكـبـة
 وـثـدـيا .. مـكـزـوبـمـة الفـل
 تـمـد إـلى الـنـجـم ظـفـرا
 غـمـمـمـاً .. تـحـاول جـنـمـه
 وـقـد تـنـحـني مـرة إـلى الطـرـيق
 لـتـلـق طـحـمـة
 إـذا انـتـهـر الـلـهـن .. رـاحـت
 تـمـنـن عـلـى الأـرض .. نـمـمـة

يمكن القول بأن تمثل تقنيات الصورة السينمائية في الصورة الشعرية
 التي بنيت عليها القصيدة السابقة نوع من رغبة البلوغ بالصورة الشعرية أقصى
 درجات العبوية والحضور. إذا كان تمثل الصورة الشعرية للصورة التشكيلية
 تمثل للمكان الذي يتسع للأبعاد والعلاقات بين الألوان، فإن تمثل الصورة
 الشعرية للصورة السينمائية تمثل للمكان والزمان في آن معاً، ذلك أنها تبني

على الصورة - الحركة، وليس الصورة التي تضاف إليها الحركة. يقول جيل دولور Gilles Deleuze: "لا تقدم لنا السينما صورة ستضاف إليها الحركة، ولكنها تقدم لنا مباشرة صورة - حركة. تقدم لنا بالتأكيد مقطعاً، ولكنه مقطع متحرك، وليس مقطعاً ساكناً - حركة مجردة"^(١١). تأتي القصيدة - الصورة السابقة على الحركة، وهي حركة متطورة: من دوس ورقص وطلي للمدى ونقل للساق ونفض للهباب (على الكفائية) وانفعال للحن وثورة للشفاة والصدور ... إلخ. الحركة حضور. وهذه الصورة - الحركة التي قامت عليها القصيدة تفتح لنزار نافذة أخرى على مطالعة جماليات الجسد الأنثوي في أوضاع حركية مختلفة تجود بها هذه الراقصة النشيطة في الصورة - الحركة السابقة تظهر بعض تقنيات الصورة السينمائية ومبادئها:

- ١ - فالصورة السينمائية تقف على لحظات ما من الزمان، يمكن أن تكون مألوفة أو منفردة، عادية أو بارزة"^(١٢). وهنا يقف نزار عند تلك اللحظات المتميزة للراقصة وهي تتماطي الرقص في نشوة ومزاج عذبة وقد دل نص الصورة على ذلك لفتياً بالقطع ثم المطف على محذوف مدلول عليه كتابياً بالنقطتين في صدر البيت الأول من القصيدة.
- ٢ - في "إطار الصورة" السينمائية أو "اللقطه" ما يسمى بـ "ضبط حدود الإطار" Cadrage، وهو عبارة عن تحديد منظومة مغلقة نسبياً، تحتوي على شكل ما هو مائل في الصورة: ديكور، وشخصيات، واكسسوارات. فالكامر، أو إطار الصورة، هو مجموع من عدد كبير من الأجزاء، أي من العناصر التي تدخل في نفسها في أجزاء - مجاميع Sous-ensembles"^(١٣). وفي هذه القصيدة - الصورة تلعب أذرع الضوء والمصابيح دوراً مهماً في إطار الصورة من حيث دلالتها على المكان والزمان، ويلعب شعر الراقصة الفجري، ولقرها الكركزي، وسبقاتها المتقلبة دور المثيرات

(١١) دولور، جيل. "الصورة - الحركة (أو طبيعة الصورة)" ترجمة حسن حمودة منشورات وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٧) ص ٦.

(١٢) المرجع السابق ص ١٢.

(١٣) المرجع نفسه ص ٢١.

تعرف منطوقاته قوى إيجازية عدة. في الغرض الإنجازي الإخباري مثلاً يمكن أن نقول: 'ضاع' وأظنه ضاع' و 'أسفاه، ضاع'. وفي الغرض الإنجازي التوجيهي، يمكن أن نقول: 'توقف عن الكلام' و 'توقف عن الكلام، من فضلك' و 'توقف عن الكلام راضياً أو غير راضٍ'. في كل من 'ضاع' و 'توقف عن الكلام' نحصل على القوة الإنجازية الأبسط ذات الغرض الإخباري أو التوجيهي. وفي أظنه ضاع' و 'توقف عن الكلام، من فضلك' تدخل علامة من علامات القوة هي فيهما علامة إنقاص في درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ في الغرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأدب، في تحقيقها الغرض الإنجازي التوجيهي (فالتكلم باستخدامه من فضلك يمنح المستمع حق الاختيار في صقل محاولته بجملة يفعل شيئاً ما^(١)). وفي المنطوقين الآخرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن 'أسفاه' عن أسف المتكلم الذي يتفله المحتوى القسوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلغي راضياً أو غير راضٍ حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإرغام على الفعل.

علامات القوة السابقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبة تعد مفاتيح لغوية تقود إلى تعيين القوى الإنجازية والتمييز بين درجاتها. يضاف إلى

(١) يفرض التأدب سبرجه عام - مراعاة مشاعر الآخرين. وكما تقول جانيت هولمز، فإن التأدب يعني لغوياً أن تخاطب الآخرين على ضوء علاقتهم بك. أما الخيارات اللغوية غير المناسبة، فيمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. وتشير جانيت إلى أننا بحاجة إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب. وتعمل جانيت للتأدب لمطين اثنين هما: التأدب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق التماسك Solidarity. وذلك أنه يدعم السلوكيات والقيم المشتركة. والنمط الثاني هو التأدب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يبجل بعضهم بعضاً ولا يعتدي أحدهم على الآخر: Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics. Longman. London and New York (1992) pp. 296-297.

تلك المقاييس اللغوية اعتبارات تداولية (كما في ذلك أعراف الاستعمال الفنية كما شرحها سيرل^(١)، والالتزامات الحوارية Conversational Implicatures كما في ذلك البادئ الخمسة التي قدمها جرابس والتي يتبعها المتكلمون في التخاطب)^(٢).

(هـ) نسبة القوة

إذا كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين يعبر بهما عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أيًا كان المؤشر أو العلامة الملاءة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف درجات متفاوتة، فإن القوة الإنجازية ينبغي لها أن توصف بأنها نسبية. يبان ذلك أن الأمر -سواءً- بوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الغرض الإنجازي التوجيهي، وأنه الأشدّ تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في ضوء الاستعمال الفعلي المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك يستعصي على التسليم. إذا قارنا مثلاً الأمر بالصيغة ذات الفعل المساعد 'يجب' أو 'ينبغي' سيبدو الأمر من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون المتكلم في كامل سلطته in full authority (كالقائد في الجيش) للتأكد من أن الأمر قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين 'يجب' أو 'ينبغي') ومن ناحية أخرى، سيبدو الأمر أضعف كثيراً عندما يستعمل في مثل: أدخل! (في إجابة عن طريقة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إنشاً. وهي

(١) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(٢) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds): Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp.44-45

وتقارن:

المجد محمد: العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال. دار الفكر العربي. ط ١
(١٤١٦-١٩٩٥) ص ٨١ وما بعدها.

فلا الشعرية المعاصرة عند غير واحد من الشعراء الحدائين على نحو نبوة
معاشة يومية لفنون الصورة الأخرى، مما يعني بالضرورة استثمار الصورة
الشعرية لطرائق أخرى للإبلاغ والتواصل. إذا كان لنص الصورة مركزيته
المطلقة في الثقافة العربية، فقد أن الأوان لتذليل شتى المعارف لتحليل
خطابها، وسوف تصبح قراءة الصورة الشعرية من حيث هي نافذة الشاعر
المنفوحة على العالم فلا ضوء فنون التشكيل والتصوير الأخرى دعامة أساسية
لمثل ذلك التحليل.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
اوليات	٧
الفصل الاول: الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية	١٣ - ٦٦
١ - توطئة	١٥
٢ - الكفاية اللغوية	٢٠
(أ) مفهوم الكفاية اللغوية	٢٠
(ب) الكفاية والأداء	٢٤
(ج) نقد الكفاية اللغوية	٢٥
(د) إعادة صياغة الكفاية	٢٩
(هـ) الكفاية اللغوية والملكة اللسانية	٣٢
٣ - الكفاية الاتصالية	٣٧
(أ) مفهوم الكفاية الاتصالية	٤٠
(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية	٤٣
(ج) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة	٤٧
(د) المعايير النحوية والكفاية الاتصالية	٤٨
(هـ) الكفاية الاتصالية والفشل اللغوي التداولي	٥٢
(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإشاد ..	٥٩
١ - مراعاة مكان الاتصال	٦١
٢ - مراعاة حال المخاطب	٦٢

الموضوع	الصفحة
٣ - العلاقة بين أطراف الاتصال.....	٦٤
الفصل الثاني : حبك النص - منظورات من القرائن العربي... ١٤٠-٦٧	
١ - توطئة.....	٦٩
٢- الحبك عند القدماء: إشارات عامة.....	٧٨
٣- بنية النص من منظور الحبك.....	٩٠
(١) بنية النص من منظور الحبك قبل حازم.....	٩١
١ - الابتداء.....	٩٢
٢ - التخلص.....	٩٦
٣ - الانتهاء.....	١٠١
(ب) بنية النص من منظور الحبك عند حازم.....	١٠٣
١ - قوتين الابتداء والتخلص والانتهاء.....	١٠٦
١ / ١ - الابتداء.....	١٠٦
ب / ١ - التخلص.....	١٠٨
ج / ١ - الانتهاء.....	١١١
٢ - المبادئ الدلالية لحبك الفصول.....	١١٢
١ / ٢ - قوتين الوصل بين الفصول.....	١١٣
ب / ٢ - تسبق المعاني بين الفصول.....	١١٨
(ج) رهوس الفصول: التسميم والتحجيل.....	١١٩
٤ - التناسب بين النصوص.....	١٢٢
٥ - خلاصات وتعميمات.....	١٣٣

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث: النص الحجاجي العربي - دراسة في وسائل الإقناع	١٤١-١٤٢
١ - توطئة	١٤٣
(أ) أنواع النصوص	١٤٣
(ب) الحجاج والنص الحجاجي	١٤٦
(ج) الحجاج والإقناع	١٤٩
(د) الحجاج عند العرب	١٥٠
٢ - النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية	١٥٥
٣ - وسائل الإقناع	١٦٨
(أ) الرسائل المنطقية الدلالية	١٦٨
١ / - القياس المنطقي	١٦٨
٢ / - القياس المضمر	١٧٢
٣ / - القياس المنطوق	١٧٤
(ب) الرسائل اللغوية	١٧٨
ب / ١ - بنية التكرير	١٧٨
ب / ٢ - بنية التوازي	١٩٦
ب / ٣ - بنية الازدواج	٢٠٦
الفصل الرابع: تحليل القوة الإنجازية - دراسة في التحليل التداولي للخطاب	٢١٣-٢١٤
١ - توطئة	٢١٥
٢ - القوة الإنجازية	٢١٩

الصفحة

الموضوع

٢٢١	(أ) مفهوم القوة
٢٢٣	(ب) القوة والمقصد والهدف
٢٢٥	(ج) القوة والحرص
٢٢٨	(د) علامات القوة
٢٣٠	أساسية لقوة
٢٣١	٣ - تعديل القوة الإنجازية
٢٣٢	(أ) نتائج تعديل التعديل
٢٣٥	(ب) أسباب تعديل القوة
٢٤٠	(ج) وسائل تعديل القوة
٢٤١	أولاً - وسائل التقوية
٢٤٠	ثانياً - وسائل الإضعاف
٢٤١	الفصل الخامس : الصورة والثقافة والاتصال
٢٦٣	١ - توطئة
٢٦٦	٢ - الاتصال الأدبي والصورة
٢٧٤	٣ - الصورة والثقافة
٢٨٢	٤ - نص الصورة وخطاب الصورة
٢٨٣	(أ) الصورة والشفافية الجديدة
٢٩١	(ب) الصورة وإشكالية التراسل
٣٠٦-٣٠٩	الفهرس